

جامعة النجاح الوطنية

كلية الدراسات العليا

الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في شعر أبي نواس

إعداد

آلاء عزّام عبد الوهّاب عودة

إشراف

د. عبد الخالق عيسى

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس - فلسطين.

2014

الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في شعر أبي نواس

إعداد

آلاء عزّام عبد الوهّاب عودة

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2014/9/18، وأُجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة

- د. عبد الخالق عيسى/مشرفاً ورئيساً

- أ.د. مشهور حبازي/ ممتحناً خارجياً

- أ.د. وائل أبو صالح / ممتحناً دخلياً

التوقيع

.....

.....

.....

الإهداء

إلى من نسجوا من خيوط الأمل شراع الحرية
إلى أرواح الشهداء الذين جادوا بدمائهم ليغدو تراب الوطن
أكثر خصباً

إلى من علّت تكبيرات انتصارهم على أثات جراحهم
إلى من حمل لواء العلم ، وتكبّد في سبيله المشاق ، والصّعاب ،
فليس يستوي الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون
إليكم جميعاً أهدي هذا البحث المتواضع

الشكر والتقدير

الحمد والشكر لله على فضله وهداه، فما توفيقى إلا به، وما اعتمادي إلا عليه، ولولا رضاه لما تم هذا البحث .

كما أجهل بالشكر والثناء كل من ساهم في إنجاز بحثي وإتمامه، ابتداءً بالدكتور المشرف عبد الخالق عيسى، على ما بذله من جهد في تقويم أخطائي، وتشجيع إحساني، بحسن أسلوبه ولباقة تعامله، فقد كان خير مشرف وموجه.

والشكر موصول إلى الأستاذ الدكتور وائل أبو صالح، والدكتور مشهور حبّازي على تكرمهما بقراءة بحثي، ومناقشتهما لي .

وأقدم شكري وامتناني لكل من شجّعني، ودعمني ليتم هذا البحث فلكم جميعاً كل الشكر والتقدير.

الإقرار

أنا الموقع/ة أدناه، الرسالة التي تحمل العنوان:

الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في شعر أبي نواس

أُقرُّ بأنَّ ما اشتملت عليه هذه الرسالة، إنَّما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه
حيثما ورد، وإن هذه الرسالة كلّها ، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة، أو لقب علمي،
أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية، أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced is the
researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other
degree or qualification.

Student's Name:

اسم الطالبة :

Signature:

التوقيع :

Date:

التاريخ:

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	ت
الشكر والتقدير	ث
الإقرار	ج
الفهرس	ح
الملخص	د
المقدمة	1
التمهيد	3
أبو نواس : مولده ونشأته	3
ثقافته	4
بواعث الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في شعر أبي نواس	6
أولاً : الطفولة الشاذة	6
ثانياً : والبة وعصبة المجان	8
ثالثاً : حبّه لجنان	9
الفصل الأول : مظاهر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في الموضوع الديني	12
المبحث الأول : الحياة الدينية في العصر العباسي الأول	13
المبحث الثاني : موضوعات الانقلاب والمواجهة الدينية عند أبي نواس	17
الانقلاب في المفاهيم الدينية لدى أبي نواس	17
أولاً: المجون	19
ثانياً: الزندقة	28
الجوانب اللافتة في زندقة أبي نواس	35
1- موقف أبي نواس من الصلاة والزكاة	35
2- موقفه من الصوم	41
3- موقفه من الحج	45
4- موقفه من الأخلاق	48
ثالثاً: الزهد	56
الفصل الثاني : مظاهر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في الموضوعين السياسي والاجتماعي	67
المبحث الأول : الانقلاب المعرفي والمواجهة السياسية في شعر أبي نواس	68
أولاً : الانقلاب المعرفي والمواجهة السياسية في عهد هارون الرشيد	68

83	ثانياً : الانقلاب المعرفي والمواجهة السياسية في عهد الأمين
103	المبحث الثاني : الانقلاب المعرفي والمواجهة الاجتماعية في شعر أبي نواس
103	أولاً : شعوبية أبي نواس
105	1- موقفه من الأنساب العربية
116	2- موقفه من الأطلال
122	3- موقفه من العادات ، والظواهر الاجتماعية
129	ثانياً : موقف أبي نواس من المرأة
140	الفصل الثالث : أثر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في لغة أبي نواس وأسلوبه الشعري
142	أولاً : لغة أبي نواس
147	اللغة العامية
149	اللغة المبتذلة
151	الألفاظ الفارسية
157	الألفاظ المسيحية والمجوسية
163	ثانياً : الأسلوب الشعري
163	1- التناص
181	2- الحوار والأسلوب القصصي
183	3- التكرار
188	4- السخرية
192	الخاتمة
194	المصادر والمراجع
B	Abstract

الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في شعر أبي نواس

إعداد

آلاء عزّام عبد الوهّاب عودة

إشراف

د. عبد الخالق عيسى

الملخص

وقفت هذه الدراسة على مواطن الانقلاب المعرفي، والمواجهة الثقافية في شعر أبي نواس، وتناولتها بالتحليل والنقد، فقد برع أبو نواس في قلب الحقائق والمفاهيم، وثار على العادات والأعراف والتقاليد التي درج عليها المجتمع ، وفسرها بما يوافق منطق المعكوس، وينسجم مع ذاته المتمردة، فكان فنّه ذا طابع مختلفٍ غير مألوف .

وقد اشتمل هذا البحث على: مقدمة ، وتمهيد، وثلاثة فصول ،وخاتمة؛ تحدّثت في الفصل الأول عن مظاهر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في شعر أبي نواس في الموضوع الديني. وعرضت في الفصل الثاني مظاهر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في الموضوعين السياسي والاجتماعي، وفي الفصل الثالث تحدّثت عن أثر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية على لغة أبي نواس، وأسلوبه الشعري .

المقدمة

الحمدُ لله حمداً طيباً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد :

فقد أسس أبو نواس مذهباً فنياً مبتكراً، لا يخضع لسلطة، ولا يطوق بقيود، وأطلق العنان لذاته الخلاقة لتفيض شعراً ينسف ثوابت في الحياة الاجتماعية، ويؤسس لثوابت أخرى، متكناً على العبث والمجون، وما تضيفه ألحان قيثارة الخمر، ليثبت منهجه ويؤكد اختلافه.

فالتَّمرّد سمة لا يناعه عليها أحدٌ من سابقه أو معاصريه من الشعراء، فقد بثّه في أشعاره، واعتمده أسلوباً لحياته، دون أن يلقي بالاً للقوانين التي سنّتها السلطة الدينية أو السياسية أو المجتمعية، بل تحدّاهم مجاهراً بالخطيئة، مستبيحاً المحرّمات، متخطّياً الأسس والقواعد الدينية والأخلاقية.

وقد أثارت شخصية أبي نواس كثيراً من الباحثين والدّارسين، واستثارت اهتمامهم؛ بوصف الشاعر علماً للتمرد والثورة في عصره، ولذا تكمن أهمية هذه الدّراسة في تفصيل جوانب الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية عند أبي نواس، ودعمها بما يندرج تحت أطرها من أشعار نظمها الشاعر لأجلها، وما كان لهذه الآراء من أثر على لغته، وأسلوبه الشعري. وقد ارتأيتُ أن ينتظم عقد هذه الدّراسة في مقدّمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة.

حيث تحدّثت في التمهيد عن مولد الشاعر ونشأته، وثقافته، ووقفت على بواعث الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية لديه، والتمثّلة في: طفولته الشّاذة، ومرافقته والبة وعصبة المجان، وحبّه لجنان.

فيما تناول الفصل الأول مظاهر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في الموضوع الديني، واحتوى هذا الفصل على بحثين، عرضت في أولهما لملاح الحياة الدينية في العصر العباسي الأول، فيما تحدّثت في الآخر عن موضوعات الانقلاب المعرفي والمواجهة الدينية عند أبي نواس. وفي الفصل الثاني تحدّثت عن مظاهر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في الموضوعين السياسي والاجتماعي، وكان هذا الفصل في بحثين، عرضتُ في أولهما لمظاهر الانقلاب

المعرفي والمواجهة السّياسيّة، وتحدّثت في المبحث الثاني عن الانقلاب المعرفي والمواجهة الاجتماعية.

وتحدّثت في الفصل الثالث عن أثر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافيّة في لغة الشّاعر، وأسلوبه.

وقد تمثّلت المشكلة التي اعترضت هذا البحث في كثرة الدّراسات التي سلّطت الضّوء على أبي نواس؛ حياته، وشعره، وفنّه، ولكنني لم أجد دراسةً علميّةً شاملةً مستقلّةً ركّزت على الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافيّة، التي تزعمها، وتفرد بها عن غيره.

واعتمدت في هذا البحث على المنهج التّكاملي، فاستعنتُ بالمنهج التّحليلي ، والمنهج النّفسي، والمنهج الوصفيّ لرصد أسس الانقلاب المعرفي ، وأبعاده في الإبانة عن قدرة الشّاعر في مواجهة مجتمعه.

وكان ديوان أبي نواس بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، وكتابا ابن منظور: "أبو نواس في تاريخه وشعره ومبازله وعبثه ومجونه"، و"ملحق الأغاني"، من أهمّ المصادر التي رفدت هذا البحث في بيان صورة أبي نواس المنقلبة، والمواجهة للمجتمع .

وقد أفدّت من عددٍ من المراجع، ومنها: كتاب "أبو نواس الحسن بن هانئ" لعبّاس العقاد، وكتاب "نفسية أبي نواس" لمحمد النّويهي، وكتاب "أبو نواس بين العبث والاغتراب والتّمرد" لأحلام الزعيم، وكتاب "أبو نواس بين التّخطّي والالتزام" لعلي شلق، فضلاً عن عدد من الدوريات، والرسائل الجامعيّة، والمواقع الإلكترونيّة .

وخاتمة القول: فما في هذا البحث من إجادة ففضلٌ من الله ومنّه، وما فيه من تقصيرٍ ونقص فمن الشيطان، وحسبي أنّي اجتهدت ما استطعت.

والله وليّ التوفيق

التمهيد

شهد العصر العباسي صراعاً حضارياً وتمازجاً فكرياً توغلت آثاره في نسيج مجتمع مترف، خالطه العنصر الأجنبي، وساده الفرق والأحزاب، واتسعت فيه الهوة بين الطبقات، فشكل تربة غنية بالأفكار الثائرة التي أذكت روح العصر وثقافته، وأفرزت جيلاً متميزاً من الشعراء تزعّموا قيم التجديد والتغير، وبرعوا في تصوير الواقع، فكانت أشعارهم انعكاساً صادقاً لما اعتري مجتمعهم من تطور وانحلال.

وقد رفع لواء هذه النزعة التجديدية شاعرٌ عبقرٍ، ضمّ إلى جانب موهبته الشعريّة شخصية فذة قادرة على امتلاك زمام القصائد، وتطويعها شكلاً ومضموناً؛ لترجمة أفكاره، وآرائه، فعمد إلى تسجيل أحوال عصره عن كثب، وألم بواقعه ورصد جوانبه، حيث أسرته ألوان الحضارة وضروب الفتنه فتأثر وأثر، وامتاز بشعر الخمر، وأغرق في غزل الجوّاري والغلمان، فذاع صيته وعلت شهرته وقد قيل فيه: "أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس للمتقدمين، فتح لهم هذه الفطن ودلّهم على المعاني، وأرشدهم إلى طريق الأدب، والترف في فنونه" ¹.

مولده ونشأته

تجمع معظم التراجم على أن الحسن بن هانئ، المكنى بأبي نواس، وُلد في الأهواز في العشرية الرابعة، أو بداية العشرية الخامسة من القرن الثاني للهجرة، مع اختلاف بين الرواة في تحديد سنتي ميلاده ووفاته، واتفاق بينهم على أنّ أباه كان يعمل في جند الخليفة الأموي مروان بن محمد وأنّ أمه كانت فارسية ².

¹ ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل بن مكرم: أبو نواس في تاريخه وشعره وعبثه وجونه، ط2، من التراث العربي، 1969 م، ص48.

² اختلفت آراء المترجمين لحياة أبي نواس حول سنة مولده، فكانت بين عامي (130 - 145 هـ)، وكذلك اختلفوا حول تاريخ وفاته، فكانت بين عامي (195 - 200 هـ). ينظر: أبو هفان، عبد الله بن أحمد المهزومي: أخبار أبي نواس، تح: عبد الستار فراج، مكتبة مصر، ص108 - ص109. ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد: طبقات الشعراء، تح: عبد الستار فراج، ط4، دار المعارف، القاهرة، ص139. ابن خلكان، شمس الدين بن محمد: وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، م2، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ص95. ابن منظور: أبو نواس، ص20 - 21. الحنبلي، عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ج1، ص345. البغدادي، عبد القادر بن عمر: خزنة الأدب، تح: عبد السلام هارون، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979 م، ص347. الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ج2، ص225.

وقد توفي والده عندما كان طفلاً صغيراً ، فانتقلت به والدته الى البصرة ¹ ، وشكل ذلك منعطفاً في حياته ، ولا سيما أن أبواب البصرة فتحت له ، وهي حاضرة من حواضر العلم والأدب ، ومصدر إشعاع فكري متوقد ² ، وفيها نشأ الشاعر ، واختلف إلى حلقات الدرس في المساجد ، واستقى العلم على يد كوكبة من علماء اللغة والشعر ، إضافة إلى عمله لدى براء كان يبيري أعواد العطور ³ .

ثقافته

شبّ أبو نواس في صفوف طلاب العلم فأحاط بعلم القرآن والحديث واللغة، واطّلع على نحو سيبويه ونهل من معين أبي عبيدة ، وأبي زيد الأنصاري ، وأبي حاتم السجستاني والأصمعي وحفظ عنهم، فازدادت معرفته بأخبار العرب وأيامهم ، ونوادرهم وطرق الكلام لديهم⁴ ، وقد قال فيه الجاحظ : "ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبي نواس ، ولا أفصح لهجة، مع حلاوة، ومجانبة للاستكراه"⁵.

صحب أبو نواس خلفاً الأحمر ، فدربّه على نظم الشعر ⁶ ، ولكنه استطاع أن يُكوّن رؤية شعرية خاصة به ارتكزت على سرعة بديهته وقدرته على الارتجال، وإحاطته بالتراث الشعري القديم، وما اكتسبه من كثرة حفظه وروايته .

¹ ينظر : أبو هفان : أخبار أبي نواس ، ص108 . ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص194 .

² ينظر : شلق ، علي : أبو نواس بين التخطي والالتزام ، ط1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، 1982 م ، ص39 .

³ ينظر : أبو هفان : أخبار أبي نواس ، ص108 ، 109 . ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص194 . ابن خلّكان ، شمس الدين بن محمد : وفيات الأعيان ، ص95 . ابن منظور : أبو نواس ، ص21 ، 22 .

⁴ ينظر : ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص201 . الخطيب البغدادي ، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي : تاريخ بغداد ، م7 ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ص436 . البغدادي ، عبد القادر عمر : خزانة الأدب ، ص347 .

⁵ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ص437 .

⁶ ينظر : ابن منظور : أبونواس ، ص33 . زكي ، أحمد كمال : الحياة الأدبية في البصرة ، دار المعارف بمصر ، ص481 .

وقد أتاح له عمله في دكان العطارة فرصة التعرف إلى والبة بن الحُبَاب¹ الذي وافق أهواءه، ودلّه على حانات الخمر، وجلسات السّمّار، ولكنّه لم يبخل عليه بتعليمه الشعر، وإرشاده إلى طرق الابتكار والنّظم ، وقد أغراه بمصاحبتّه حتى يخرجّه شاعرًا معروفًا بعد أن رأى علامات النجابة والفلاح² . وكان لا بدّ لشاعرٍ نجيبٍ كأبي نواس من أخذ اللغة من مظانّها، وتعلم شواردها وغريبها ، ومذاهب الإعراب فيها ، فارتحل إلى بادية بني أسد في الكوفة ، وأقام فيها سنة يتلقى الفصاحة من موئل اللغة، وموطن العرب الأقياح ، فحفظ الشعر، حتى روى لأكثر من ستين امرأة شاعرة ، دون الرجال³ .

وألمّ الشاعر بثقافات عصره فتفتّحت أمامه آفاق الاطّلاع على حضارات مختلفة ، وأفكار متباينة ، " فأخذ يتفنّن بالعلم ، ويضرب في كلّ نوع منه بنصيب " ⁴ ، فتعلم الفارسية واستغلّها في فنه ألفاظًا، ومذاهب، وحكمًا، وأمثالًا ، وكان شعره شاهدًا على تقديره لتاريخ الفرس وحضارتهم ، ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد كان لعلوم الهند وفلسفة اليونان، وحكمتهم حضور في شخصية الشاعر، وتراثه الفني الرّاخر بالمعطيات⁵ ، المقبل على الحياة دون خضوع لقيم أو انقياد لثوابت ؛ ولم يكن الشاعر إلّا ربيب عصره في شتى جوانب المدنيّة والانفتاح .

¹ والبة بن الحُبَاب : " أبو أسامة الشاعر من بني نصر بن قعين بن الحارث ، وهو كوفي ، وكان من الخلاء المجّان " كان له دورٌ بارزٌ في إفساد أبي نواس، وإخراجه عن جادة الحق والصواب، ينظر: الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج13، ص487 . وينظر في ترجمته وقصة تعرّفه إلى أبي نواس : ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص86 - 89 . و ابن منظور : أبو نواس ، ص22- 26 .

² ينظر: أبو هفان : أخبار أبي نواس، ص138، 139، ابن منظور : أبو نواس، ص23- 26 . و صدقي، عبد الرحمن : أبو نواس قصة حياته في جدّه وهزله ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص25- 27.

³ ينظر: ابن منظور : أبو نواس ، ص26 ، 50 . و خليف ، يوسف : تاريخ الشعر في العصر العباسي ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ، ص61 ، صدقي ، عبد الرحمن : أبو نواس قصة حياته في جدّه وهزله ، ص42- 43 ، مهنا، علي جميل: الأدب في ظل الخلافة العباسية ، ط 1 ، 1981 م ، ص264 .

⁴ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، تج: أحمد محمد شاكر، دار التراث العربي للطباعة، ج2، ص802.

⁵ ينظر: عيد ، يوسف : دفاتر عباسية ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس - لبنان ، 2008 م ، ص57 .

كما خالط أبو نواس طوائف المتكلمين ، واستقى كثيراً من طبائعهم وأفكارهم ؛ فقد كان للمعتزلة في عصره ريادة فكرية ، ومنهج منظم تمثله الشاعر في بعض قصائده وامتنعه في قصائد أخرى¹ .

بواعث الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية لدى أبي نواس

أولاً :- الطفولة الشاذة

رسمت طفولة النواسي لوحة بائسة ؛ فقد كان لوفاة والده أثر كبير في حرمانه الرعاية والاهتمام ولا سيما أن والدته (جُلْبَان)² تخلّت عنه ، وقذفته في خضم أمواج الحياة يواجه قسوتها وحده ، ولعلّها حاولت العناية به في صغره ، وأسرفت في دلاله على نحو جعل قلبه متعلقاً بها³ ، إلا أنّها ما لبثت أن شغلت عنه بطلب الرزق ، ودفعته شدة الحاجة إلى أن تسلم ولدها إلى عطار ، ليعمل عنده ، فيما جعلت بيتها موئلاً لرؤاد المتعة وطلّاب اللذة من الرجال والنساء ، يجتمعون فيه ليقضوا مآربهم من لهو ، وشرب ، وقصف على مرأى ومسمع من صغيرها⁴ ، ففتحت بذلك عيونه على طريق الغواية ، وأتاحت لتلك المشاهد أن تترك في نفسه أثراً سيئاً إلى حدّ بعيد ؛ فاتسمت حياته بالقسوة ، و العبث معاً⁵ . فكّر أبو نواس أمه وطارده سُمعتها السيئة ، وزاد على ذلك زواجها الجديد الذي أدّى إلى انقطاع صلته الضئيلة بعائلته ، واتباعه هواه ، وحرمانه من ملاذه الوحيد في طفولته العاجزة حرماناً نهائياً⁶ ، ولذلك لم يملك أبو نواس وسيلة لمواجهة إغراء الحياة لما رُكّب في نفسه من ميلٍ إلى اللعب ، ومن غريزة جنسية سبّبها حبُّ الاستطلاع⁷ ، إضافة إلى

¹ ينظر : سعيد ، فوزي : في الأدب العباسي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2003 م ، ص 106 - 107 .

² قيل : " إنّ أمّه كانت تدعى شحمة من قرية من قرى الأهواز تدعى بباب أذر ، وكانت تعمل الصّوف وتتسج الجوارب والأخراج " ، ابن منظور : أبو نواس ، ص 20 .

³ ينظر : التّويهي ، محمد : نفسية أبي نواس ، ط 2 ، مكتبة الخانجي ، دار الفكر ، ص 79 .

⁴ ينظر : أبو نواس : ديوان أبي نواس ، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، 1982 م ، ص ط .

⁵ ينظر : دكاش ، نضال الأميوني : ظاهرة الزمن في الشعر العربي القديم ، ط 2 ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2009 ، ص 219 - 220 .

⁶ ينظر : التّويهي ، محمد : نفسية أبي نواس ، ص 80 . و أبو نواس : الديوان ، ص ط .

⁷ ينظر : أبو نواس ، الديوان ، ص ي .

ما أورثته إياه أمه من عقدٍ نفسية أفرغت ظلّها في حياته وعلاقاته وشعره ، وساهمت في شذوذه وجعلته ينساق وراء شهواته دون رادع .

وليس ذلك فحسب فقد شكّلت غيرته الشديدة على أمه من زواجها دافعاً قوياً لديه لكره النساء والنّفور منهنّ جميعاً ؛ فعاف الزّواج، وبدا مشمئزاً من التفكير به ، واندفع وراء رغباته ليعيش المحارم عموماً¹ ، في محاولة لالتماس ما يعوضه عن حرمانه العطف والرعاية .

فمضى باحثاً عن فراغ الأمومة في مجتمع خلا من القيم التي تدعو إلى حماية الطّفولة ورعايتها ، ولم يجد أمامه غير الخمر ، فتمثلها بأُمٍ ترضعه لبانها ، وتظلّه بظلّها فتقيه قيظ الحرّ ، وتشعره بالراحة والاكْتفاء² ، فكانت الخمر أمّه، ومعشوقته، ورفيقة أيامه ومؤنسته في ليالي وحشته وغريته. ولم يقتصر الأمر على ذلك فصورة الأمّ الخائنة طبعت في ذهن أبي نواس ، وكان يراها في كلّ أنثى يلقاها ، فإذا به يمتنع عن إقامة علاقات حبّ نسائية مستوية ، وينصرف عنها إلى تعشق الغلمان، وقد رأى بعض النّقاد في التّكوين الجسدي لأبي نواس عاملاً مساعداً على شذوذه وانحرافه، فالنّوَاسيّ كان جميلَ المحيّا، ألثغ الصّوت ، وفيه من الرّقة، والنّعومة، وبياض اللون ما جعله أقرب إلى الأنثى، فتقرّب منه نظراؤه، وزادوا في غوايته³ .

¹ ينظر : الحنفي ، عبد المنعم : موسوعة الطبّ النفسي ، ط 2 ، م 2 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1999 م ، ص 478 .

² ينظر : دكاش، نضال الأميوني : ظاهرة الزمن في الشعر العربي القديم ، ص 173 .

يقول أبو نواس :

{ المنسرح }

نُقْطِرُ لِي مَرْيَعِي وَلِي بَقْرَى ال كَرْخٍ مَصِيفٍ وَأُمِّي الْعِنَبُ
تُرْضِعُنِي دُرَّهَا وَتَلْحَفُنِي بَظْلَهَا، وَالْهَجِيرُ يَلْتَهَبُ
فَقُمْتُ أَحْبُو إِلَى الرِّضَاعِ ، كَمَا تَحَامِلُ الطِّفْلُ مَسَّهُ سَعْبُ

أبو نواس : الديوان ، ص 4 .

³ ينظر : هلال ، ريم : الدرس النفسي لأبي نواس ما بين العقاد والنّويهي ، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث

الإنسانية، سوريا، م 28، ع 1، 2006 ، ص 50 . و النّويهي ، محمد : نفسية أبي نواس ، ص 77 - 78

ثانيًا - والبة وعصبية المجان .

تعد حقبة النقاء أبي نواس بالشاعر الماجن والبة بن الحباب، حقبة انتقالية بسطت أثرها في حياة الشاعر وأدبه ، فقد كان والبة شاعراً خليعاً ، ينظم في الغزل والشراب ، وكان فاحشاً في أخلاقه وسلوكه ، ما يبالي ما قال و لا ما صنع ، وله في المجون والفتك والخلاعة ما ليس لأحد¹، حتى أن الخلفاء كرهوا منادمته² ، إلا أن هذا كان محبباً عند النواصي الذي قاده إعجابه به وبشعره إلى أن يلتبس فيه المثل الأعلى والقذوة المفقودة³ .

اهتم والبة بإرشاد أبي نواس إلى طريق الحانات، وأراد أن يخرجَه إلى المجتمع ماجناً فاسداً لا يعرف للهداية سبيلاً ، وزاد في غوايته حين قدّمه إلى رفقاءه من عصبية المجان بوصفه بشارة إبليس⁴ ، فامتلك أبو نواس بهذه البشارة أحاسيسهم وسيطر على عواطفهم، ولا شك في ذلك ؛ فقد كان النواصي جميلاً ، وسوق الجمال رائجة⁵ ، وكان فكهاً ظريفاً ، كثير الدعابة، والهزل، حاضر البديهة ، فاستثار اهتمامهم، واستحوذَ محبتهم، وكان ذلك قاعدة لتفوقه عليهم حتى غدا زعيمهم بلا منازع⁶ .

أذكت مجالس والبة ورفقائه قريحة النواصي ، فقد مكنته من الاستماع إلى ما يرتجلون من شعر في: الغزل، والخمر، والهجاء المقذع ، والاطلاع على ما يتناقلون من أخبار حول ما يدور في حانات الكوفة من قصص الجواري والغلمان ، وأحاديثهم الشائعة ، ونواذرهم الممتعة ، إضافة إلى ما ضمته تلك المجالس من طبائع ونماذج متباينة من النفوس فهؤلاء الشعراء كانوا أهل الفن

¹ ينظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج 13 ، ص 488 . و ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص 87 ، 88 .

² ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص 89 .

³ ينظر : خليل ، السيد أحمد : في الأدب العباسي والأندلسي ، ص 86 .

⁴ صدقي ، عبد الرحمن : أبونواس قصة حياته في جدّه وهزله ، ص 41 - 42 . و هاشم ، علي محمد : الأندية الأدبية في العصر العباسي حتى القرن الثالث الهجري ، ط 1 ، دار الآفاق ، بيروت ، 1982 م ، ص 143 - 144 .

⁵ ينظر : عبود ، مارون : الرؤوس ، ط 5 ، دار مارون عبود ودار الثقافة ، 1972 م ، ص 131 .

⁶ خفاجي ، محمد : الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط 1 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، 2004 م ، ص 142 . والخوسيكي ، زين كامل : في الأدب العباسي والأندلسي ، دار المعرفة الجامعية ، بيروت ، 2006 ، ص 199 .

في ذلك الزمان، وكان منهم: الزنديق، والشعوبي، والشيعي، ممن لا يستطيعون إغفال اهتمامهم بما يدور في بلاط الدولة من فتنٍ وثورات على الخلافة والحكام¹.

إن تلك المجالس كانت أشبه بمدرسة تعهدت أبا نواس بالتثقيف والتّخريج، فعلى الرغم من كونها " أفسدت أخلاقه، وعلمته أفانين الفسق إلاّ أنّها هيأت له تجويد النّظم وترطيب الكلام وأسّست له قيادة الشعر، فتغلب على ما كان يشعر به من استحياء حين يحاول شعراً أو يطلب منه أن يقول شعراً فظهر على من حوله، وبزّ كل من يحاول محاكاته ومساجلته"².

ثالثاً - حبه لجنان

لم تكن (جنان)³ فتاة عابرة في حياة النواسي؛ فقد كان لحبها سطوة أسرت قلبه وأفقدته لبه، وبتت في نفسه أمل الخلاص من عقده النفسية التي أصابته بها أمه، فحاول جاهداً التوصل إليها⁴؛ لأنه رأى فيها مثالا للطهر والعفة، ولكنه كان يقابل بالصدّ في كل مرة، ولم يكن الحاحه في حبها، وإصراره على قربها إلا بوابة للخيبة التي يمني بها أي عاشق لا يروق لمعشوقه.

تغاضى أبو نواس عن سبّ جنان وشتمها له، وشكايتها منه، وكان يرد على ذلك بشعر فيّاض بمعاني الحب واللوعة، مظهرًا رهبة منها تمنعه من التماذي في فسقه ومجونه الذي كان العائق الأول في نفور جنان منه، ورفضها إياه⁵، يقول:

¹ ينظر: خليل، السيد أحمد: الاتجاهات الأدبية في العصر العباسي، ص 87. وخريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994 م، ج 1، ص 45. و أبو نواس: الديوان، ص ل.

² ينظر: أبو النصر، عمر: أبو نواس في مبادئه، ط 1، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، 1955 م، ص 33.

³ جنان هي: " جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد النّقي المحدث، وكانت حلوة جميلة المنظر، أدبية تروي الأشعار وتعرف الأخبار، وكانت مقدودة الحسن والقوام، شغف أبو نواس بها، وقال فيها الكثير من الشعر حتى قيل: "إنّه لم يصدق في حب امرأة غيرها". ينظر: الأصبهاني، أبو فرج: الأغاني، م 18، القسم الأول، دار مكتبة الحياة، دار الفكر، بيروت، 1956 م، ص 3. وابن منظور: أبو نواس، ص 149، 151.

⁴ ينظر: ابن منظور: أبو نواس، ص 151، 152.

⁵ ينظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التجديد، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994 م، ج 2، ص 114.

{ الوافر }

جَنَانُ تَسُبُّنِي ذِكْرْتُ بِخَيْرٍ
وَأَنْ مَّوَدَّتِي كَذِبٌ وَمَيِّنٌ
وَمَا صَدَقْتُ وَلَا رَدٌّ عَلَيْهَا
وَلِي قَلْبٌ يُنَازِعُنِي إِلَيْهَا
رَأْتُ كَلْفِي بِهَا وَدَوَامَ عَهْدِي
وَتَزْعُمُ أَنَّي مَذِقُ خَبِيثٍ
وَأَنِّي لِلَّذِي أَهْوَى بَثْوُثٌ
وَلَكِنَّ الْمَلُولَ هُوَ النَّكَوْثُ
وَشَوْقٌ بَيْنَ أَضْلَاعِي حَثِيثٌ
وَكَرْهَتْنِي كَذَا كَانَ الْحَدِيثُ¹

ويقول :

{ مجزوء الكامل }

لَوْلَا حِذَارِي مِنْ جَنَانٍ
وَرَكِبْتُ مَا أَهْوَى وَكَمْ
وَخَرَجْتُ أَخْبَطَ سَادِرًا
لَمْ أَغْنِ عَنْ حُبِّ الْغَوَانِي²
لَخَلَعْتُ عَنْ رَأْسِي عَنَانِي
أَجْفُو مَقَالَةً مَنْ نَهَانِي

أعيا الشاعر نفسه في تتبع جنان ، وملاحقتها منتهزا أي فرصة تجمعها بها ؛ ليعبر عن كلفه بحبها
وما يعانيه من وجده بها ، محاولاً استعطافها واستمالة قلبها علّها ترق لحاله . فيقول :

{ المتقارب }

حَبِيبِي ظَلُومٌ عَلَيَّ ضَنِينٌ
يَعِزُّ عَلَيَّ ، وَلَكِنِّي
فِيالَيْتَ شَغْرِي أَمِنْ صَخْرَةٍ
بِرَبِّي عَلَى ظُلْمِهِ أَسْتَعِينُ
بِحَمْدِ إِلَهِي عَلَيْهِ أَهْوُونُ
فَوَادُكَ هَذَا الَّذِي لَا يَلِينُ³

ويقول :

{ المنسرح }

جَنَانُ إِنْ جُدْتَ يَا مُنَايَ بِمَا
وَإِنْ تَمَادَيْ وَلَا تَمَادَيْتُ فِي
عَلِقْتُ مَنْ لَوْ أَتَى عَلَى أَنْفُسِ
أَمَلُ لَمْ تَقْطُرِ السَّمَاءُ دَمًا
مَنْعَكَ أَصْبَحَ بِقَفْرَةٍ رِمَمًا
الْمَاضِينَ وَالْغَابِرِينَ مَا نَدِمًا

¹ ابن منظور : أبو نواس ، ص 155 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 289 .

³ المصدر السابق : ص 292 .

لَوْ نَظَرْتُ عَيْنُهُ إِلَى حَبْرٍ وَلَدَ فِيهِ فَتُورَهَا سَقَمًا¹

ولكن محاولاته باءت بالفشل ؛ فقد بات وصل المحبوبة أمرا مستعصيا لا سبيل له إلا بالعزوف عن نهج تنباه ، وطريق رصفه بالشذوذ والانحراف ، وقد أرادت مولاة جنان أن تهبها له بشرط تخليه عن اللواط² ، فكان هجره لمحبوته أكثر هوانا عليه من تخليه عن شذوذه الذي مثل مسارا لنفسه ، يقول :

{ الوافر }

يُشَاطِرُنِي الْحَبِيبُ عَلَى الشُّرُوطِ وَلَسْتُ بِمَا يُشَاطِرُ بِالسَّخُوطِ
أرى تَرْكَ اللَّوَاطِ عَلَيَّ عَارًا لِأَنِّي وَاحِدٌ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ³

أيقن أبو نواس أن مطلب جنان عسير، وأن فراقها سيغدو قدرا حتميا ؛ ولا سيما أن جنان تركت البصرة مخلّفة وراءها عاشقا مضطربا الشعور ، حائر النفس فقد شكل غيابها هزة نفسية عنيفة ؛ فهو مرفوض مجددا من امرأة أخرى كان في نظره مثالا لعذرية الحب وعفة الجسد . فمضى يجر أذيال الخيبة ، وينفض عن نفسه غبار الذكريات ليعود مواجهًا مجتمعه بفسق وفجور ، فقارع الخمر وعاشر الغلمان وتغزل بهم ، وغاص في بحر اللذات والمتع الحسية ، وسكب في شعره صورا التقطها لذاته وهو يمارس عقده النفسية التي زاد من وطأتها رحيل جنان عنه . ولئن كان حب جنان باعثا للتفكير في الحياة من زاوية مفعمة بالتجدد والإنطلاق وإخماد جذوة الحيرة والتساؤل التي غدت هاجسا يؤرقه ، فقد أودت به إلى يقين سلبي جعله يكفر بالدين والحياة وما وراءها⁴ . فلم يكن انسياقه وراء المجون وإقباله على صخب الملهيات بشكل مستمر وإدمانه على الخمر إلا محاولة لإسكات الصراخ العاطفي الحبيس في أعماقه ، ونسيان هموم تعتلج صدره⁵ .

¹ الأصبهاني : الأغاني ، م 18 ، ص 6 ، 7 .

² ينظر : خريس ، حسين : حركة الشعر العباسي في مجال التجديد ، ج 2 ، ص 112 .

³ ابن منظور : ملحق الأغاني ، ط 2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، 1992 م ، ج 25 ، ص 137 .

⁴ ينظر : حاوي ، إيليا : فن الشعر الخمري ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، 1960 م ، ص 212 - ص 213 .

⁵ ينظر : أبو نواس : الديوان ، ص س ، ص ع .

الفصل الأول

الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في الموضوع الديني

- المبحث الأول - الحياة الدينية في العصر العباسي الأول
- المبحث الثاني - موضوعات الانقلاب والمواجهة الدينية عند أبي نواس
- الانقلاب في المفاهيم الدينية لدى أبي نواس
 - أولاً - المجون
 - ثانياً - الزندقة
 - ثالثاً - الزهد

الفصل الأول

الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في الموضوع الديني

المبحث الأول - الحياة الدينية في العصر العباسي الأول

اتّسم عصر أبي نواس بتآلف الحضارات واختلاف المعتقدات ؛ فقد غرس الامتداد الفارسي جذوره في شتى نواحي الحياة العباسية ، محاولاً زعزعة أركان الدولة الإسلامية التي أوقعت بالنظام الفارسي وقوّضت أركانه ، فأراد بعض الفرس أن يكون الحكم العباسي فارسياً مظهرًا وحقيقة ، وسعوا لتحقيق ذلك جهازًا وخفية بدس المانوية¹ ، والزرادشتية² ، والمزدكية³ ، في زوايا المجتمع العباسي الذي نعم بالأمن والاستقرار، واتّسع فيه تيار اللهو والمجون ، وازدادت عدد الخمارات والديارات والداكر، وانتشرت فيه الجواري والغلمان انشارًا كبيرًا ، فعلى الرغم من كون ذلك العصر قريبَ عهدٍ بزمان ظهور الإسلام وتحريم تلك المظاهر⁴ .

فكان المجتمع العباسي عرضةً لموجة فساد وانحلال خلقي وديني واجتماعي ؛ لما شاع فيه من أدوات لهو ومجون ورثها عن المجتمع الساسانيّ الفارسيّ ، إضافة إلى حرية مسرفة منحت للأفراد إبان الثورة العباسية⁵ ، فأقبل الناس على الشّهوات والملذّات دون رداع ، وتفتشت (الزندقة)⁶

¹ المانوية : من الديانات الفارسية القديمة ، التي جمعت بين الديانة النصرانية ، وأضيف إليها بعض تعاليم الديانة البوذية ، والديانة الزرادشتية ، وهم أتباع ماني . ينظر : بهجت ، مجاهد مصطفى : التّيار الإسلامي في العصر العباسي الأول ، ط 1 ، 1982 م ، ص 107 .

² الزرادشتية : هم أتباع زرادشت بن بورشف ، وهم من المجوس ، أتاها زرادشت بكتاب فيه أمرٌ ونهي ووعدٌ ووعدٌ وشرائع وعبادات و معجزات تبهر العقول ، وأخيرهم بالغيبيات . المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت - لبنان ، 1982 م ، م 10 ، ص 196 ، 197 .

³ المزدكية : " من فرق الغلو ممن انتحلوا التشيع ونفوا الزبونية عن الخالق تبارك وتعالى وأثبتوها في بدن مخلوق باعتبار البدن مسكنًا لله وأنّ الله تعالى نورٌ أو روح ينتقل في الأبدان ، وأحلوا الشهوات والزنا وشرب الخمر والميتة ونكاح الرجال " الحنفي ، عبد المنعم : موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية ، ط 2 ، مكتبة مدبولي ، 1999 م ، ص 584 .

⁴ ينظر : أمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ط 2 ، مطبعة الاعتماد ، 1934 م ، ص 139 - ص 141 .

⁵ ينظر : ضيف ، شوقي : العصر العباسي الأول ، ط 6 ، دار المعارف بمصر ، ص 65 .

¹(بمذاهبها وعقائدها في أوساط الطبقة المترفة من حاشية الخلفاء وشعرائهم ومنشديهم الذين كانوا يجاهرون بتهكمهم ، ويفرطون في دعوة الناس إلى مبادئهم في فجور وإباحة واستهتار ، وتعرض ساخر للدين وأحكامه ، وانجراف للكفر والإلحاد ² .

وعلى الرغم من كل المحاولات التي قام بها الخلفاء العباسيون لقمع تلك الظواهر بالتعذيب والقتل ³ ، فقد ظل التيار الماجن طابعاً يمثل ذلك العصر . ولكن تنازعه تيار مضاد دعا إلى التمسك بالعقيدة والرجوع إلى الدين الصحيح ، وتجنب الفحش الناجم عن معاقرة الخمر والعبث بالجواري والغلمان ، مستمداً قوته من تعدد الروافد الإسلامية ومعتمداً على نشاط الفرق والأحزاب الدينية التي تزعمت حركة الجهاد الداخلية والخارجية ⁴ ، وعلى طائفة من العلماء والوعاظ والنساک الذين لم يعرفوا مجوناً ولا زندقة ؛ لانتمائهم إلى طبقة العامة وبعدهم عن مظاهر الترف والفساد ، وعيشهم في ضنك وبؤس بعيداً عن النعيم فرفعوا لواء الزهد والتصوف والتشيع ودعوا الناس إلى العبادة وسلوك السبيل الواضحة إلى جنة الآخرة ⁵ .

هذا الواقع الذي يعجّ بالتناقضات أوقع كثيراً من الشعراء في مسألة الاتهام بالزندقة ؛ لأن كلمة زنديق أصبحت تطلق على كل ماجنٍ خليعٍ مستخفٍ بالدين ، وعلى كل ملحدٍ منكرٍ للبعث والنشور ⁶ ، والحق أن الدافع وراء زندقة بعض الشعراء كان دافعاً علمياً ؛ حيث آمنوا بسلطان العقل والعقل ورفضوا الإيمان بكل ما لا تراه العين ، وليس لحكم العقل فيه مجال ؛ وربما كان السبب في ذلك اقتران العصر العباسي بالجدل الديني والبحث الفلسفي الذي دار بين فرق المتكلمين ، ومذاهب المعتقدين بالفلسفة الفارسية ⁷ .

¹ الزندقة : الزنديق هو : القائل ببقاء الدهر ، فارسيّ معرّب ، وهو بالفارسية زندكاي ، يقول بدوام الدهر ، والزنديق معروف ، وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ووحداية الخالق . ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، (مادة زَنْدَقَ) . و ابن دريد : جمهرة اللغة ، ط 1 ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ج 3 ، ص 504 ، ص 505.

² ينظر : ضيف ، شوقي : العصر العباسي الأول ، ص 82 - ص 83 . و أمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ص 184 . وبهجت ، مجاهد مصطفى : التيار الإسلامي في العصر العباسي الأول ، ص 107 .

³ ينظر : أمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ص 140 - ص 141 .

⁴ ينظر : بهجت ، مجاهد مصطفى : التيار الإسلامي في العصر العباسي الأول ، ص 841 .

⁵ ينظر : ضيف ، شوقي : العصر العباسي الأول ، ص 84 .

⁶ حجاب ، محمد نبيه : معالم الشعر في العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، القاهرة ، 1972 م ، ص 161 .

⁷ ينظر : أمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ص 131 ، ص 155 .

فأظهر أولئك الشعراء الإسلام وأبطنوا ما يدينون به حقيقة من تعاليم المجوسية ، وكان بعضهم ينزع إلى أصله الفارسي وانتمائه إلى الموالي ، وبعضهم الآخر عربي أوقعته الخصومات السياسية في شرك الاتهام بالزندقة¹ .

وهناك دافع آخر للزندقة ، مثلته طائفة من الشعراء الذين أخذهم حب الحياة ، وكان همهم تحقيق الشهوات والسير وراء الملذات ، وإظهار خفة الروح في إطار اللهو والمجون ، فكان كل ما يعرض مجونهم ولهوهم ويحد من لذاتهم موضع إنكارهم وبغضهم ، ومجال سخريتهم وعبتهم . ولم تكن زندقة هذه الفئة إلا ضرباً من ضروب التّهتك والفجور ، واستعباد الذات في كثير من الأحيان² .

في حين آثرت فئة أخرى من الشعراء اتباع التيار الزاهد ؛ بإصغائهم لما تمليه عليهم فطرتهم من خوف من الموت وما يتلوه من ثواب وعقاب ونبذ الملذات التي تنتافي والسلوك السوي للإنسان فاصطبغ شعرهم بمعاني الإيمان والتوبة ، ودعوة الناس إلى خشية الله وحسن العمل التماساً لأجر الآخرة ، وعدم الاغترار بنعيم الدنيا الزائل³ ، وقد تواجد أولئك الزهاد في المساجد ، والتفوا حول حلقات النسك والوعظ ، صارفين أنفسهم عن ملذات الحياة ، ومحاولين السمو بأرواحهم إلى مصاف النور والهداية ، وحجب ظلال الكفر والإلحاد⁴ .

¹ ينظر : أمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ص 151 .

² ينظر : إسماعيل ، عز الدين : في الأدب العباسي الرؤية والفن ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1975 م ، ص 262 .
وأمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ص 156 .

³ ينظر : إسماعيل ، عز الدين : في الأدب العباسي الرؤية والفن ، ص 309 .

⁴ ينظر : خليف ، يوسف : تاريخ الشعر في العصر العباسي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1981 م ، ص 36 .

مهّد التيار الزاهد بأفكاره وآرائه لنزعة تصوف مثلّها كثير من من الشيوخ والنّسّاك واستطاع أن يكون ميداناً نشطت فيه الفرق والأحزاب، كالمعتزلة¹، والشيعة²، والمرجئة³، والجبرية⁴. وكما ارتبط العصر العباسيّ بتيّار المجون، ارتبط بتيّار الزهد ارتباطه بتيّار المجون؛ فكان ذلك سبباً في تذبذب بعض الشعراء بين التيارين أمراً طبيعياً، فترى أنّهم قد عرفوا بزهدهم بعد رميهم بالزندقة غير أنّ ذلك التذبذب تعلّق بعوامل أخرى كالنشأة والظروف الاجتماعية والاقتصادية⁵.

¹ المعتزلة هم: "أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية وبالعدلوية، وأصول مذهبهم هو التّوحيد والعدل والوعد والوعد، والمنزلة بن المنزلتين والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فمن خالفهم في التّوحيد سمّوه مشركاً، ومن خالفهم في الصّفات سمّوه مشتبهاً، ومن خالفهم في الوعد سمّوه مرجئاً، ومن اكتملت له وتحققت فيه الأصول الخمسة فهو المعتزليّ حقاً. الحنفي، عبد المنعم: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية، ص 589.

² الشيعة هم: "الذين شابعوا عليّاً رضي الله عنه، وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصيّة، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فيظلم يكون من غيره..." المصدر السابق: ص 414.

³ المرجئة: الإرجاء بمعنى التأخير، والمعنى الآخر إعطاء الرّجاء، وتقول: أرجيت فلاناً تريد أنّك أعطيت الرّجاء. ويجوز أن تكون تسمية هذه الفرقة بالمرجئة مأخوذة من المعنى الأول لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النّية وعقد القلب، فالعمل عندهم لا يضر ما دامت العقيدة صحيحة فهي تهتم بالعقيدة وتهمل، أي تؤخر الحكم على مرتكب الكبيرة إلى يوم القيامة حتى ينفذ الله ما يريد، إما أن يعفو عنه، وإما أن يعاقبه على معصيته، ويجوز أن تكون مأخوذة من المعنى الثاني لأنهم كانوا يقولون: "لا تضرّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة"، فقد كانوا يعطون المؤمن العاصي الرّجاء في ثواب الله والنّجاة يوم القيامة. ينظر: المصدر السابق: ص 577. و مزروعة، محمود محمد: تاريخ الفرق الإسلامية، ط 1، دار المنار، 1991 م، ص 100.

⁴ الجبرية هم: الذين "قالوا بالإجبار والاضطرار في الأعمال وأنكروا الاستطاعات كلّها، وأن لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنّما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز، أفعال الإنسان مخلوقة لله وما الإنسان إلّا مكتسب للفعل الذي أحدثه الله على يدي الإنسان، والكسب هو تعلّق قدرة العبد وإرادته بالفعل المقدر المحدث من الله على الحقيقة". الحنفي، عبد المنعم: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية، ص 189.

⁵ كانت تهمة الزندقة مشتركة بين المجان والزّهاد على السواء، ولذلك طالبت التهمة أبا العتاهية، أكبر دعاة الزهد في ذلك العصر، حيث قيل إنّّه لا يؤمن بالبعث وإنّّه ولا يذكر الجنة والنّار وإنّما يذكر الموت فقط. ينظر: إسماعيل، عز الدين: في الأدب العباسي الرواية والفن، ص 269.

المبحث الثاني - موضوعات الانقلاب والمواجهة الدينية في شعر أبي نواس

الانقلاب في المفاهيم الدينية لدى أبي نواس

اصطبعت شخصية أبي نواس بطابع ديني ميزه عن شعراء عصره ، تمثل بتأرجحه بين الكفر والإيمان والشك واليقين ، فبات أمر تصنيفه على دارسي شعره صعباً إلى حد ما ¹ ؛ فتارة يحمل شعره صفة التطرف والمجون ، أو صفة الزندقة التي تصل إلى الإلحاد ، وتارة يسمو إلى مراتب الزهاد والمتصوفين . ولا شك في أن جذور ذلك التأرجح تمتد إلى أعماق شخصية أبي نواس الذي اعتاد التقلب والجمع بين المتناقضات ؛ في سبيل خلق رؤية ثائرة على جميع السلطات والقيود.

التحق أبو نواس في مقتبل عمره بحلقات المسجد ، وقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي ، الذي أجازته بأقرأ أهل البصرة ² ، فنشأ " عالماً فقيهاً ، عارفاً بالأحكام والفتيا ، بصيراً بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ، ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه ومتشابهه " ³ ، ثم انضم إلى مجالس اللغويين طالباً العلم ، وراغباً في الأدب والشعر ، ولعلّ هذا يعكس جانباً جدياً في حياة النواصي وإرهاصاً لبروز شخصية أثارت جدلاً دينياً فيما بعد ؛ فلم يلبث الشاعر أن سعى إلى مجالس اللهو والمجون ، وعاشر الخلاء والمتهتكين ، وتخلّق بأخلاق المتكلمين ، وقادته فلسفته إلى الاهتمام بالزندقة والإلحاد ، واختلف في تفسير مذهبه الديني ، فعده بعض الدارسين من المرجئة ، ومنهم من رآه من الجبرية ، ونسب إليه آخرون الكفر ، والإباحية ⁴ ولم تكن تلك الاتهامات

¹ ينظر : خليل ، ياسين عايش : قراءات في تمرد الشعراء العباسيين على السلطة ، ط 1 ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، 2011 م ، ص 67 ، ص 69 . ومجموعة من المؤلفين : المفيد في الأدب العربي ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، 1964 م ، ج 2 ، ص 486 .

² ينظر : ابن منظور : أبو نواس ، ص 21 .

³ ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص 201 .

⁴ الإباحية هم : " فرقة من المتصوفة أو المندسين في الصوفية أو المنتسبين بهم ، دخلوا التصوف ظاهراً وقالوا : إذا كانت السعادة والشقاوة قد كتبت علينا والأعمال في الأصل لا تتراد إلا لاجتلاب السعادة ودفع الشقاوة ، فإن الأولى أن توجه العبادة إلى مساعدة المقدور على الوقوع ، بأن نترك النفوس على سجيته ، ولا نمنعها عن ملذوذ مقدور لها تحصيله ، وقالوا : إن الله مستغن عن أعمالنا فلنترك إذن أنفسنا على سجيته ، بحسب ما هو ميسر له كل منا ... وقيل : إنهم كانوا يستحلون المحرمات " . الحنفي ، عبد النعم : موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب الحركات الإسلامية ، ص 23 .

عبثاً ؛ فقد غصّ كثيرٌ من شعره بمعاني المنكر ، وأغرق بالدعوة للفحش، والحضّ على الإباحية والمجون ، على نحو يجعل المتأمل في شعره يظنّ أنّه سار في طريق ضلال لا هداية بعده ، وأنّ آثامه لن تغفر ، وأنّ لهفته على اللذة قد امتلكت عليه نفسه ، فغداً إماماً للفسق ، وعلماً من أعلام الفجور ، ولكنّ المتأمل سيفاجأ لدى قراءته لمقطوعات شعرية أخرى بشاعر منقلبٍ على ذاته، قادر على إثبات إيمانه العميق ، وكشف النقاب عن ذنوبه ، غير متوانٍ عن الاعتراف بخطاياها إذا تعرّض للومٍ أو مساءلة ؛ فهو موقنٌ بأنّ التوبة تجبّ ما قبلها ، وأنّ تماديه بالخطايا يقابله عفو الله ومغفرته ورحمته الواسعة .

ولذلك تتنازع أبو نواس في نفسه نشوتان ¹ ، إحداهما نشوة دينية يحاول من خلالها الارتقاء إلى منازل العباد والمتقين ، فينشح ثياب التوبة والإنابة ، ويعلن انقطاعه عن المعاصي والزلات ، وأخرهما نشوة حسية تعلّي شأن اللذة وتدفعه إلى اتباع الشهوات واقتناص فرص نيلها ، فيخلع عذار التوبة ويتأسف على ما فاتته من متع ، ويحدوه سعي حادّ لتعويضها ، خاضعاً لسطوة الخمر وتعشّق الغلمان ، ومغفلاً خوفه من عذاب الله ، ومجاهراً بآثامه .

وقد ظلّ النواصي في هذا الصّراع حتّى دنا أجله واحتضرته سكرات الموت ، فبدا متحسراً على ما فرطه في جنب الله طالباً الصفح والغفران ، بعد أن نال منه البلاء وأثقله المرض ² ، فغلب الحق على الباطل وقال :

{ الرمل }

دَبَّ فِيّ الْبَلَاءُ سُفْلاً وَغُلُوبَا	وَأَرَانِي أَمُوتُ عَضُوبَا فَعُضُوبَا
لَيْسَ مِنْ سَاعَةٍ مَضَتْ لِي إِلَّا	نَقَصَتْ نِي بِمَرِّهَا بِي جُزُوبَا
زَهَبَتْ جِدَّتِي بِطَاعَةِ نَفْسِي	وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضُوبَا
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيْالٍ وَأَيَّا	مِ تَمَلُّيْتُهُنَّ لِعِبَا وَلَهُوبَا

قد أسأنا كلّ الإساءة فاللهُمَّ صفحاً عنا وغفراً وعفواً ³

¹ ينظر : النويهي ، محمد : نفسية أبي نواس ، ص 119 .

² ينظر : ابن منظور : أبو نواس ، ص 254 - ص 255 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 580 .

وأثبت أبو نواس سعيه إلى مجاهدة نفسه لخلق توازن بين مطالب الروح وحاجات الجسد، متحدياً نفسه ومجتمعه وكلّ عاذل يهدف إلى تعكير صفو ذاته المحبّة للحياة بمسراتها وملاهيها، وكلّ من يحاول نفي استحقاقه للمغفرة ، وإنذاره بحتمية العذاب . فضمّن شعره ما يؤكد إدراكه لحقيقة الشعر بإظهاره معاني الإبداع والخلق المرتبط بعمق الشّعور دون تقيّد بحدود أو إذعانٍ لقواعد . وأهمّ الموضوعات التي ظهر فيها الانقلاب في المفاهيم الدينية عند أبي نواس هي:

أولاً- المجون

المجون في اللغة مأخوذٌ من مَجَنَ الشيء يَمْجُنُ مجوناً إذا صَلَبَ وَغُلُظَ ، ومنه اشتقَّ الماجنُ لِصِلَابَةِ وجهه وقَلَّةِ حيائه ، وفي الاصطلاح : المجونُ خلطُ الجدِّ بالهزل¹ . " والماجن عند العرب من يرتكب المقابح المُردية والفضائح المُخزية ولا يُمضه عدلٌ عاذله ولا تقرّيع من يقرّعه "² . وقد حملت هذه اللفظة طابعاً خاصاً في العصر العباسي ؛ نتيجة لطبيعته التي أباحت وسائل اللذة، ووفرت أسباب المتع ، فهيات الفرص لكلّ ماجنٍ للمجاهرة بأقواله وأفعاله دون خوف من رقيب أو حسيب ، وارتبطت بصفة التّظرف³ ، فكانت سمةً لكلّ ظريف يسعى للاشتهاار بين الناس في مجتمع أسقط الأخلاق ونزع عن الفضيلة ؛ فعمرت مجالس المجان بشعراء عرفوا بظرفهم وفسادهم وقَلَّةِ ورعهم وبشغفهم بالخمير ، وغزلهم الفاحش بالجواري والغلمان مع استهتار بالدين وشرائعه ، وإباحة محارمه . والأمثلة على هؤلاء كثيرة ؛ فوالبة بن الحباب شاعرٌ معروف ببغيه وشذوذه ، وإسرافه بالخلاعة والفجور ، ومطيع بن إياس كان متحللاً من الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان⁴، والرقاشي الذي كان متهاوناً بمروءته ودينه ، يوصي بالخلاعة والمجون ويحثّ

¹ ابن منظور : لسان العرب ، مادة (مَجَنَ) .

² الزبيدي ، محمد مرتضى : تاج العروس ، م 9 ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان ، ص 341 .

³ التّظرف في اللغة : " ظَرْفٌ ظَرْفًا وظَرْفًا : كان كَيْسًا حاذقًا لطيفًا حسن الهيئة يَظرف في أحاديثه ، وَيَشَدُّ السامعين إليه". اللّجمي ، أديب ، وآخرون ، المحيط : معجم اللغة العربية ، ط 2 ، م 2 ، المحيط ، بيروت ، ص 830 . و " الظّرف البراعة وذكاء القلب ، وقيل : الظرف حسن العبارة والحدق بالشيء " . ابن منظور : لسان العرب ، م 9 ، ص 228 .

⁴ ينظر : ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص 93 - 95 . و ضيف ، شوقي : العصر العباسي الأول ، ص 390 .

أصحابه على الفاحشة وشرب الخمر والقمار¹ ، والشاركي الذي لم يعرف للاحتشام سبيلاً ولا للاستتار مسلماً² .

وهؤلاء الشعراء وغيرهم كانوا أعلاماً في المدن العراقية التي انحدرت تباعاً إلى منحدر الحضيض الأخلاقي ، وهم أيضاً خلان أبي نواس وخاصته ، الذين أسلموا له قيادتهم في المجون والهزل ، فأصبح لسانهم الصادق ومرآتهم الصافية³ .

1- السعي للمتعة بكلّ طريق

أقدم أبو نواس على الحياة بكلّ ملذاتها ، ومضى لاهثاً وراء طرائق اللهو، مؤثراً اتباع الغي للتوصل إلى سعادة تصرف الهموم وتدفع القنوط ، دون خوفٍ من نهايةٍ تتبعها سوء عاقبة، فيقول :

{ الوافر }

ألم ترني أبحتُ اللّهو نفسي ودينني واعتكفتُ على المعاصي
كأنّي لا أعودُ إلى معادٍ ولا أخشى هنالك من قصاص⁴

وهان على الشاعر كلّ شيء في سبيل الحصول على متعه ، فبات مفتوناً بما توفره الحضارة عاكفاً على لذة لا يقيدّها ستر ولا يحدّ من صبوتها عذر ، يقول :

{ الطويل }

غدوت على اللذات مُنْهَتِك السّترِ وأفضت بنات السّرّ منّي إلى الجهرِ
وهان عليّ النّاسُ فيما أريدُهُ بما جئتُ فاستغيثُ عن طلبِ العذرِ⁵

ولم يحفل أبو نواس بالشواغل العامة كونيةً كانت أو محليةً ؛ فهو مشغول بطلب اللذة الشخصية ، ينشد الراحة وخلو البال بالطرب والمدام⁶ ، ويظهر ذلك في قوله :

¹ ينظر : الأصبهاني ، أبو الفرج علي بن الحسن بن محمد : الأغاني ، دار الكتب ، ج16 ، ص 246 . و ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص 226 - ص 227 .

² ينظر : ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص 306 - ص 307 .

³ حسين ، طه : حديث الأربعاء ، ط 12 ، دار المعارف بمصر ، ج 2 ، ص 35 .

⁴ أبونواس : الديوان ، ص 622 .

⁵ المصدر السابق : ص 139 .

⁶ ينظر : صدقي ، عبد الرحمن : ألحان ألحان ، دار المعارف بمصر ، 1957 ، ص 5 .

{ المتقارب }

طَرَبْتُ إِلَى الصَّنَجِ وَالْمِزْهَرِ وَشُرِبَ الْمُدَامَةِ بِالْأَكْبَرِ
وَأَلْقَيْتُ عَنِّي ثِيَابَ الْهُدَى وَخُضْتُ بُحُورًا مِنَ الْمُنْكَرِ
وَأَقْبَلْتُ أَسْحَبُ ذَيْلَ الْمُجُونِ وَأَمْشِي إِلَى الْقَصَفِ فِي مَنَزَرٍ¹

وهو يصِرُّ على أنَّ نفسه عزيزة لا ترضى إلا بكل شيء حرام ، ولذا تراه قد وهب حياته لما يحقق له السرور ، ويساعده على قضاء عمره بالملذات ، حيث يقول :

{ الخفيف }

نَسِيْتَنِي حَوَادِثُ الْأَيَّامِ وَصَفْتُ عِشَّتِي ، وَقَلَّ اهْتِمَامِي
أَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالنَّدَامَى الْكَرَامِ وَرَكُوبَ الْهَوَى وَشُرِبَ الْمُدَامِ
أَنْفَتُ نَفْسِي الْعَزِيزَةَ أَنْ تَقْـ نَعَّ إِلَّا بِكُلِّ شَيْءٍ حَرَامٍ²

ويقول :

{ الطويل }

رَأَيْتُ اللَّيَالِي مُرْصِدَاتٍ لِمُدَّتِي فَبَادَرْتُ أَيَّامِي مُبَادَرَةَ الدَّهْرِ
رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِكَأْسٍ وَشَادِنٍ تَحَيَّرُ فِي تَفْضِيلِهِ فِطْنُ الْفِكْرِ³

2- تفضيل اللهو على الفروسية

لا يعبأ الشاعر بمظاهر الفروسية والشجاعة ، في وقت كان الشعراء يحرصون عليها،
ويصرّون على إبرازها في قصائدهم ، فعناق الغانيات ومشاهدة الندماء وهم يقصفون على أوتار
العود أطيب عنده من معانقة السنان في يوم الطعان . يقول :

{ الوافر }

وَقَوْلٍ قُلْتُهِ فَأَصَبْتُ فِيهِ وَلَمْ أَحْفَلْ مَقَالَةً مِّنْ لِّحَانِي
عَنَاقُ الْغَانِيَاتِ أَلَذُّ عِنْدِي وَأَشْهَى مِنْ مُعَانَقَةِ السَّنَانِ
وَيَوْمٌ عِنْدَ نَدْمَانٍ كَرِيمٍ يَجَاوِبُ فِيهِ أَوْتَارَ الْقِيَانِ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 682 .

² المصدر السابق : ص 372 .

³ المصدر السابق : ص 139 .

يواتيني النديم على التصابي الذُّ إلى من يوم الطعان¹

3- المفارقة بالمجون والدعوة إليه

لقد سعى أبو نواس من خلال مجونه إلى التجديد ومخالفة المألوف الذي ابتذله الناس ، فلم يكتف بإقدامه على المعاصي وإنما تباهى بها ودعا إليها ، فهو يريد من أهل عصره أن يقبلوا على ما منحته البيئة الجديدة من رخاء ورفاهية² ؛ ولذلك نقل ما يعتريه من مشاعر ، وما يخالجه من أحاسيس لدى نهمة من متع الحياة نقلاً صادقاً . يقول :

{ مجزوء الرمل }

فامض في اللذات قُدماً واخْلَعْ فِيهَا الْعِذَاراً³

ومضى أبو نواس يحضّ بصراحة مطلقة طُلاب المتعة على اقتحام ساحاتها دون تردد أو خشية لوم أو حساب⁴ ، فيقول :

{ البسيط }

بادِرْ صَبُوحَكَ وَانْعَم أَيُّهَا الرَّجُلُ واعصِ الذينِ بَجْهَلٍ فِي الْهَوَى عَدَلُوا
واخْلَعْ عِذَارَكَ ، أَضْحِكْ كُلَّ ذِي طَرَبٍ واغْدِلْ بِنَفْسِكَ فِيهِمْ أَيْنَمَا عَدَلُوا
نَالَ السُّرُورُ ، وَخَفِضَ الْعَيْشُ فِي دَعَا وفازَ بالطَّيِّبَاتِ الْمَاجِنُ الْهَزْلُ⁵

لقد صاغ النواصي حياته من فلسفة خاصة ، دعائمها كلّ ما تمليه عليه نفسه ، وما تقضيه إليه روحه ، وما تدفعه إليه شهوته ، فلم يظهر يوماً خلاف ما يبطن ، ولم يدع للتستر والنفاق

مجالاً في حياته⁶ ، فيقول :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 353 .

² ينظر : خليل ، ياسين عايش : قراءات في تمرد الشعراء العباسيين على السلطة ، ص 77 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 112 .

⁴ عبد العال ، محمد جابر : حركات الشيعة المتطرفين ، مطبعة السنة المحمدية ، 1954 م ، ص 281 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 84 .

⁶ ينظر : فروخ ، عمر : أبو نواس شاعر هارون الرشيد ومحمد الأمين ، ط 3 ، مكتبة الكشاف، بيروت ، 1946 م ، ص 45 .

{ مجزوء الكامل }

وَدَعَ النَّسَّ ثُرَّ وَالرَّيَّا
عَ فَمَا هُمَا مِنْ شَانِيَةٍ¹

ويقول :

{ الطويل }

فَبُخِ بِاسْمِ مَنْ تَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكُنَى فلا خير في اللذات من دونها سِثْرُ²

عاش أبو نواس متمردًا على لوم الناس ساخطًا على ادعاءاتهم ، فقال ما قال ، وفعل ما فعل دون خوف أو وجل³ ، وليس ذلك فحسب فقد أطلق العنان لذاته الرافضة لتفرض سيطرتها على النظم والتقاليد والعادات التي تلغي حرية الفرد ، وتفقده الإحساس الحقيقي بوجوده⁴ ، فكان شعاره :

{ البسيط }

مَالِي وَلِلنَّاسِ ؛ كَمْ يُلْحُونَنِي سَفَهًا دِينِي لِنَفْسِي وَدِينُ النَّاسِ لِلنَّاسِ⁵

وآثر الحرام ، وباع صلاحه بطلاحه ، وهذا واضح في قوله :

{ الوافر }

يَلَانِمَنِي الْحَرَامُ إِذَا اجْتَمَعْنَا وَأَجْفُو عَنْ مُلَاعَمَةِ الْحَلَالِ⁶

وهذا أمر قد لا نجدُه عند شاعرٍ آخر في تاريخ الأدب ؛ إذ إنَّ مجاهرة أبي نواس بالحرام ، وإصراره على تجنُّب الحلال ، وجنوحه إلى المعصية موقفٌ مخالفٌ لما حثَّ عليه الدين ، وما دعت إليه الأخلاق ، وما طبعَ عليه المجتمع الإسلامي من إعلاءٍ للفضيلة ، وإيثارٍ للصَّلاح ، يقول :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 136 .

² المصدر السابق : ص 28 .

³ ينظر : فروخ ، عمر : أبو نواس شاعر هارون الرشيد ومحمد الأمين ، ص 45 - ص 46 .

⁴ ينظر : العشماوي ، محمد زكي : موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، دار المعرفة الجامعية ، 1999 م ، ص 200 . و نافع ، عبد الفتاح : الشعر العباسي قضايا وظواهر ، ط1 ، دار جرير للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، 2008 م ، ص 78 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 265 .

⁶ المصدر السابق : ص 62 .

{ مجزوء الرمل }

لَا حَ إِشْرَاقُ الصَّبَاحِ	فَاطْرُدِ الْهَمَّ بِرَاحِ
لَسْتُ بِالتَّارِكِ لَذَا	تِ النَّدَامَى لِلصَّلَاحِ
فُلٌ لِمَنْ يَبْغِي صَلاحي	بَغْتُ رُشْدِي بِطَلاحي
ظَفِرْتُ كَفُّ أَرِيْبِ	بَاعَ بَرًّا بِجَنَاحِ
أَطِيبُ اللَّذَاتِ مَا كَا	نَ جَهَارًا بِافْتِضَاحِ ¹

كما ويعترف بأنَّ الرشد لا يوافق جبلته ، وإن نازعته إليه نفسه ؛ فشغفه بالمجون سيقف عائقاً أمام النَّسك ، وسيتصدى لأي وازعٍ داخليٍّ كان أو خارجيٍّ ، يقول :

{ البسيط }

إِذَا نَزَعْتُ إِلَى رُشْدٍ تَكَنَّفَنِي	رَأْيَانٍ قَدْ شَغَلَا يُسْرِي وَأِفْلَاسِي
فَالْيُسْرُ فِي الْقَصْفِ لِلْأَيَّامِ مُبْتَذَلٌ	وَالْعُسْرُ فِي وَصْلِ مَنْ أَهْوَى مِنَ النَّاسِ
لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا بِالْمُدَامِ مَعَ الـ	أَكْفَاءِ فِي الْوَرْدِ وَالْخَيْرِ وَالْآسِ
وَمُسْمِعٍ يَتَغْنَى ، وَالْكُوُوسُ لَهَا	حَثٌّ عَلَيْنَا بِأَخْمَاسٍ وَأَسْنَدَاسِ ²

ويقول :

{ مجزوء الرمل }

إِنَّمَا طَابَتْ لِيذِي فَتًى	كَ تَرْدَى بِفُسُوقِ
جَاهَرَ النَّاسَ بِمَا يَأْ	تِيهِ فِي ضَنْكِ وَضِيقِ
وَبَدَا فِي النَّاسِ مَشْهُو	رًا كَذِي الرَّأْسِ الْحَلِيقِ ³

فأبو نواس (مُتَهَنِّكٌ)⁴ لم يحفل بمدارة فسوقه ، ولم يتكلف بإخفاء ما يقترفه من منكرات⁵، حتى أصبح معروفاً بها في المجتمع ، فهي باعتقاده حرية وإن خالفت ثوابت الشريعة

¹ أبو نواس : الديوان: ص 685 .

² المصدر السابق : ص 140 .

³ المصدر السابق : ص 206 .

⁴ متهتك : " هتك ، الهتك : خرقُ الستر عما وراءه ، وتهتك أي افتضح ، ورجلٌ مُتَهَنِّكٌ لا يبالي أن يُهتكَ ستره " . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (هتك) .

⁵ ينظر : العقاد ، عباس محمود : أبو نواس ، الحسن بن هانئ ، دار الهلال ، ص 24 .

والعرف والأخلاق ، فمن الطبيعي إذن أن يتعرض الشاعر الذي جعل قيمة حياته متلخصة في البحث عن اللذة والمغالة في تقديسها لهجمة لوم شرسة من المجتمع وساسته ؛ إلا أنه اختار طريقة حياته برؤية داخلية ، واقتناع ذاتي ، وآمن بأفكاره ، فتصدى لللائميه وعدّاله بإغراقه في الخطيئة وتسّلحه بالمعصية ، فكان أي تصرف متمرد يجابه به عرف الناس ودينهم موضع غبطته وسروره ؛ فهو يعلن من خلاله حرّيته واستقلاله من قيود مجتمعه ، ولا ريب ؛ فهو بفرديته يناهض مجتمعاً بأكمله ويعلن أنه ندّ له ، وقادِرٌ على التفوق عليه ¹ . يقول :

{ الهزج }

لَقَدْ كُنْتُ وَمَا فِي النَّاسِ	سِ مِنِّْي لِلَّهِوَى أَسْتَرِّ
وَلَا أَقْنَعُ بِاللُّدُونِ	عَلَى اللَّهِوِ وَلَا أَصْبِرُ
فَلَمَّا أَظْهَرُوا أَمْرِي	وَقَدْماً كَمَا لَا يَظْهَرُ
وَأَغْرُوا بِي تَأْنِيْبًا	مِنْ الْمُقْبِلِ وَالْمُذْبِرِ
تَجَاسَرْتُ ؛ فَأَقْدَمْتُ	عَلَى كَشْفِ الْهَوَى الْمُضْمَرِ
وَلَا وَاللَّهِ ... لَا وَاللَّهِ	... لَا وَاللَّهِ لَا أَقْصِرُ
وَقَدْ شَاعَ الَّذِي أُخْفِيَ	وَقَدْ كَانَ الَّذِي أُخْذَرُ ²

4- الإصرار على الغواية والتمادي فيها

إنّ المخالفة هي دأب الشاعر ودينه ، ولم يزدّه إلحاح عدّاله إلا إصراراً على التماضي في الغواية. وعلى الرغم من اعترافه بسوء ما يفعل، فقد صرف معرفته إلى الإنكار ؛ في محاولة عنيفة لمقاومة الإيمان ، وتقاديه لمذهب الأبرار، ما هو إلا ضعف أمام إغراء اللذة التي كانت دائماً ، تسوقه إلى الحرام ³ . فيقول :

{ الكامل }

وَمَلْحَةٍ بِاللُّومِ تَحْسَبُ أَنَّني بِالْجَهْلِ أُؤْثِرُ عَيْشَةَ الشُّطَارِ

¹ ينظر : عشموي ، محمد زكي : موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، ص 200 - ص 201 . و نافع ، عبد الفتاح : الشعر العباسي قضايا وظواهر ، ص 78 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 368 .

³ ينظر : النويهي ، محمد : نفسية أبي نواس ، ص 101 - ص 102 .

بَكَرْتُ عَلَى تَلَوْنِي فَأَجَبْتُهَا إِنِّي لَأَعْرِفُ مَذْهَبَ الْأَبْرَارِ
فَدَعِيَ الْمَلَامَ فَقَدْ أَطَعْتُ غَوَايَتِي وَصَرَفْتُ مَعْرِفَتِي إِلَى الْإِنْكَارِ¹

فالشاعر لن يتقبل نصيحة أي شخص يحاول زجره وتأنيبه ؛ لأنه لن يحيد عن الطريق الذي رسمه لنفسه . حيث يقول :

{ الكامل }

وَمُلْحَةٍ فِي الْعَذْلِ ذَاتِ نَصِيحَةٍ تَرْجُو إِنَابَةَ ذِي مُجُونٍ مَارِقٍ
بَكَرْتُ تَبَصُّرَنِي الرَّشَادَ وَشِيمَتِي غَيْرُ الرَّشَادِ وَمَذْهَبِي وَخَلَائِقِي
كَمْ رُضْتُ قَلْبِي فَاعْلَمِي وَزَجَرْتُهُ فَارَى اتِّبَاعَ الرُّشْدِ غَيْرَ مُوَافِقٍ²

ولا يمكن تفسير مجون أبي نواس بمعزل عن ذاته الخلقة ورؤيته الإبداعية ؛ ولا سيما أن شعره كان ترجمة لما يجول في داخل أناه الشاعرة من أحاسيس وعواطف ، وكان ضرباً من ضروب المواجهة مع الحياة والزمن والموت من جهة ، ومع ما كان يعتقد بأنه تسلط ديني ومجتمعي من جهة أخرى . فالثورة والمواجهة هما سيّدا الموقف ، والهدف هو تعرية المجتمع وكشف زيف تصرفاته ، أما السخرية والتحدي فهما الوسائل فتكتمل بذلك الصورة التي جعلت هذا المبدع يخرج عن عقد الدين والقوانين والتقاليد ، ليصبح متمرداً مارقاً ينبغي أن يحاسب ويعاقب ، ولكنه لا يرى نفسه سوى إنسانٍ يطلب الأمن والسلام ، والعيش الرغيد في ظلّ المتعة وبين حنايا اللذة³ . يقول :

{ الوافر }

إِذَا مَا نَلْتُ مِنْ عَيْشِي رَحَاءً وَصَرْتُ مِنَ النَّوَائِبِ فِي أَمَانٍ
رَكِبْتُ غَوَايَتِي وَتَرَكْتُ رُشْدِي وَكَفُّ الْجَهْلِ مُطْلَقَةً عَنَانِي⁴

¹ المرزباني ، محمد بن عمران : الموشح ، تح : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، 1995 ، ص 318 . وقد وردت هذه الأبيات في رواية أخرى عند ابن منظور : ملحق الأغاني ، ص 267 ، 268 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 218 - ص 219 .

³ ينظر: خليل ، ياسين عايش : قراءات في تمرد الشعراء العباسيين على السلطة ، ص 80 . و عيسى ، حكمت : شعر المجون في القرن الثاني الهجري بين الإبداع والزندقة والشعوبية ، مجلة تشرين للبحوث والدراسات العلمية ، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية ، م 32 ، ع 1 ، 2010 م ، ص 209 ، ص 210 ، ص 222 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 676 .

وأما قوله :

{ الطويل }

وَكُنْتُ وَمَا بِي وَالتَّمَاجُنُ مِنْ مِثْلِي	خَلَعْتُ مُجُونِي فَاسْتَرَحْتُ مِنَ الْعَذْلِ
يُعَدُّ مِنَ النَّسَاكِ فَيَمْنُ مَضَى قَبْلِي	أَيَا ابْنَ أَبَانٍ هَلْ سَمِعْتَ بِفَاسِقٍ
بِسِمْتِ " أَبِي ذَر " وَقَلْبِ أَبِي جَهْلٍ	أَلَمْ تَرَ أَنِّي حِينَ أَغْدُو مَسْبَحًا
وَسَجَّادِي فِي الْوَجْهِ كَالذَّرْهِمِ الْمَطْلِي	وَأَخْشَعُ فِي نَفْسِي وَأَخْفِضُ نَاطِرِي
وَكَيْفَ وَقَوْلِي لَا يُصَدِّقُهُ فِعْلِي	وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ لَا مِنْ تَقْيَّةٍ
وَنَعْلَايَ فِي كَفْيٍّ مِنْ آلَةِ الْخُثْلِ ¹	وَمَحْبَرَتِي رَأْسُ الرِّيَاءِ وَدَفْتَرِي

فهو دليل قدرته على أن يبدي للناس خلاف ما يخفيه في داخله ، وأن يسدل على نفسه ثياب الهدى والنسك حتى ترتسم على وجهه آثار السجود فيتجنب عدلهم² ، ولكن ما فائدة تسبيحه بسمت أبي ذر إذا كان مذهبه مذهب أبي جهل ؟!

وربما كان مجون النواصي المتمثل بالمجاهرة باللذة والاجتراء على الخطيئة ، والنيل من المقدسات في إطار السخرية والرفض دعوة للصدق الفني والواقعي ، أو هو غطاء لحركة فكرية ألبست ستار المجون ليتمكن روادها من قول ما يمنع قوله³ ، وربما هو بديل عن التسامي بالفضائل والأخلاق وطلب الوجاهة من وراء الشهرة المخالفة ، وتحدي المجتمع بالاجتراء عليه⁴ . وقد أفرط أبو نواس بذاك التحدي ، وغالى في المجون مغلاة أخرجته عن جادة الدين ، وبلغ من تماديه أن اتخذ ورفاقه المسجد بستاناً يتعاونون فيه على اللهو والعبث ، إذ يقول :

{ الهزج }

لَنَا بِالْبَصْنَةِ الْبَيْضَا	ءِ أَلْفٍ وَإِخْوانُ
بِهَالِيهِمْ ، مَسَامِيحُ	لَهُمْ فَضْلٌ وَإِخْسانُ
كَأَنَّ الْمَسْجِدَ الْجَامِ	عَ عِنْدَ اللَّيْلِ بَسْنَتَانُ
فَمَنْ يَسْأَلُ عَنْ قَلْبِي	فَقَلْبِي حَيْثَمَا كَانُوا ... ⁵

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 316 .

² ينظر : خليل ، ياسين عايش : قراءات في تمرد الشعراء العباسيين على السلطة ، ص 81 - ص 8 .

³ ينظر : عيسى ، حكمت : شعر المجون في القرن الثاني الهجري بين الإبداع والزندقة والشعوبية ، ص 210 ، ص 222 .

⁴ ينظر : العقاد ، عباس محمود : أبو نواس ، ص 161 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 711 .

استطاع أبو نواس بظرفه أن يحوّل مجلس العلم إلى ميدان للسخرية من الدين ، والاستهزاء بروّاده ، فقد روى عنه أبو هفّان قصّة تعرّضه لـ غلام في مجلس منصور بن عمّار الذي كان يحدث النّاس عن النفخة والصور ، ويصف الجنّة والحر ، ويحذرهم من العذاب والعقاب ، حيث رأى أبو نواس ذاك الغلام يبكي فرّق لحاله وبكى لبكائه دون أن يعبأ بهول الحديث ¹ ، يقول :

{ السريع }

لم أبك في مجلس منصور	شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْخُورِ
لكن بكائي لبكاي شادِن	تَقِيهِ نَفْسِي كُلَّ مَخْذُورِ
تتسبّب الألسن من وصفه	إِلَى مَدَى عَجَزٍ وَتَقْصِيرِ
فات لسان الوصف لكنّ ذا	- تَفْدِيهِ نَفْسِي - جَهْدُ مَعْذُورِ
أحسن من مجلس منصور	ضَرْبٌ بَعْدُ ، وَبَطْنُ بَورِ ²

وقد تناقل النّاس أشعار أبي نواس التي تجاوزت الحدود وخرجت عن العرف والمألوف، ولعل بعضهم حمّل تلك الأشعار صفة التّطرف والتّندر ، إلّا أنّ بعضهم الآخر امتنعها وسعى بها عند أهل السياسة فأوقع قائلها غير مرّة في شرك السجن بتهمة الزّندقة والمروق عن الدين ³، وكان أبو نواس يدفع عن نفسه تلك التهمة بأشعار تظهر إيمانًا عميقًا وقدرة على التخلص من مثل ذاك الموقف ⁴ ، مما أوقع الباحثين والنّقّاد في لبس تفسير مجونه وزندقته ، وسيناقش القسم التالي زندقة أبي نواس بسماتها ومظاهرها وأبرز جوانبها .

ثانيًا - الزندقة

ظلّ البحث عن ماهية الدّين والتّعرف إلى كنهه الخلق هاجساً يؤرّق شعوب الحضارة الإنسانية ، ومثاراً للجدل على مرّ العصور ؛ لا سيّما أنّ القوة التي تدير الكون قوة غيبية خفي

¹ أبو هفّان : أخبار أبي نواس ، ص 104 - 105 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 392 .

³ ينظر : المرزباني : الموشّح ، ص 318 .

⁴ ينظر : ابن منظور : أبو نواس ، ص 200 - 201 . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، م 8 ، ص 440 - ص 441 .

فاعلمها ، وظهر فعلها ، ما أدى إلى ظهور كثير من الديانات التي اختلفت باختلاف أفكار الناس وآرائهم ، وتمايزت بتمايز طبقاتهم ، وارتقت بارتقاء أفكارهم ، ولكنها كانت تسعى إلى عبادة خالقٍ قادر على كل شيء وبيده ملكوت كل شيء . فتقيد الناس بفروض العبادات ، وتبعوا نزعتهم الروحية¹ التي دفعتهم إلى الإيمان بالغيب واليقين بحياة آخرة سيخلد فيها الإنسان بعد موته .

وقد وجدت تلك النزعة نفسها في صدام مع نزعة شك وإنكار لكل معتقد يقيني ، وكل واجب يلزم الإنسان ويحد من حرّيته وصبواتها الدّاعية إلى النّهم من الملذّات وإرضاء الشّهوات، فتعددت المذاهب التي كانت - على اختلاف مسمّياتها وأصولها ومبادئها - ترمي بشكلٍ أو بآخر إلى خلق متنفس من تلك القيود ، وإيجاد مخرج شرعيّ للخطيئة ، إضافة إلى الاستناد على أدلّة محسوسة من شأنها محاولة التّوصل إلى إجابات عن أسئلة كانت ولا تزال موضع شكٍ وارتياب كالدنيا والآخرة والحياة والنّشور .

ومثّل العصر العباسي الأول عصرًا ذهبيًا لتلك الأفكار والعقائد؛ بوصفها أثرًا من آثار تداخل المذاهب الفلسفيّة والنقاء الثقافيّ الأجنبيّة، والانفتاح الحضاري²، فتعددت دوافع الزندقة، وتنوعت أسباب امتدادها في المجتمع العباسيّ الذي شكل تربة خصبة لها؛ فلم تقتصر كلمة (زنديق) على المعنى اللغوي ، وإنّما حملت دلالات ذات طابع ديني وفكري واجتماعي وسياسي³، وانتسب كثيرٌ من شعراء ذلك العصر لتيار الزندقة، واتهم بها شعراء آخرون، ولذلك غدا تفسير زندقة أبي نواس موضع خلاف بين الدارسين ؛ ولا ريب ف شخصية الشاعر لم تكن واضحة المعالم ، وعصره كان بدعاً في العصور⁴ .

¹ ينظر : داود ، جرجس داود : الزندقة والزنادقة في الأدب العربي ، ط1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، 2004 م ، ص 16 .

² ينظر : المصدر السابق : ص 109 . وهذارة ، محمد مصطفى : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963 م ، ص 240 .

³ ينظر : أمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ص 146 . وهذارة ، محمد مصطفى : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ، ص 240 .

⁴ ينظر : عباس ، عبد الحليم : أبو نواس ، دار المعارف ، القاهرة ، ص 8 .

وقد عدّ بعض النقاد أبا نواس شاعراً ماجناً يتطّرف في شعره ، ويخرج به عن العقيدة الدينية لأجل العرض والإظهار الذي لا يصل بصاحبه إلى درجة الزندقة ، فكأنّ زندقته حالة نفسية دافعها لهوٌ فكريٌّ وعبثٌ وشكٌ أكثر من أي شيء آخر¹.

وذهب بعضهم إلى القول بأنّه زنديق بعقيدته وفكره وفلسفته وسلوكه ، وبنظرته إلى مجتمعه؛ لأنّ أبا نواس كان دائم التّهمك على الدّين مبيحاً لنفسه ارتكاب المعاصي متسائلاً عن الغاية من الفروض² ، ومشككاً بما وراء الموت من بعث وحساب وجنة ونار، حيث يقول :

{ السريع }

يا ناظرًا في الدّين ما الأمرُ لا قدرَ صحّ ولا جبرُ
ما صحّ عندي من جميع الذي يُذكرُ إلا الموتُ والقبرُ³

ويقول :

{ المنسرح }

باح لسانِي بمضمَرِ السّرِّ وذاك أنّي أقول بالدهرِ
وليس بعدَ المماتِ مُرتَجِعُ إنّما الموتُ بيضَةُ العقرِ⁴

فاقترب بذلك من الزّنادقة الذين كانوا يدينون بما دعا إليه ماني أو مزدك أو الديانات الفارسية عموماً ، ويرجح أحمد أمين هذا الرأي ؛ لاتصال أبي نواس بالنسب الفارسيّ رغم أنّ

¹ ينظر : العقاد ، عباس محمود : *نفسية أبي نواس* ، ص 148 . محمود ، حسن أحمد : *العالم الإسلامي في العصر العباسي* ، ط 1 ، دار الفكر العربي ، ص 81 . وهذارة ، محمد مصطفى : *اتجاهات الشعر العربي في العصر العباسي* ، ص 254 . و صدقي ، عبد الرحمن : *أبو نواس* ، ص 72 . و داود ، جرجس داود ، *الزندقة والزنادقة في الأدب العربي* ، ص 162 .

² ينظر : فروخ ، عمر : *أبو نواس شاعر هارون الرشيد ومحمد الأمين* ، ص 42 . وداود ، جرجس داود : *الزندقة والزنادقة في الأدب العربي* ، ص 163 . و المعريّ ، أبو العلاء : *رسالة الغفران* ، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن ، ط 6 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1977 م ، ص 420 . يقول أبو العلاء : " إنّ دعبلاً لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتّشيع ، وإنّما كان غرضه التّكسب ،.... ولا أرتاب في أنّ (دعبلاً) كان على رأي الحكمي وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ، وقد اختلف في " أبي نواس " ؛ ادّعي له التّأله وأنه كان يقضي صلوات نهاره في ليله ، والصّحيح أنّه كان على مذهب غيره من أهل زمانه .

³ أبو نواس : *الديوان* ، ص 218 .

⁴ ابن منظور : *ملحق الأغاني* ، ص 168 .

الزندقة كانت متفشية في عصره على العموم ¹ . وليس ذلك فحسب ؛ فقد جاهر أبو نواس بالعصيان ، وتحدى عظمة الخالق وجبروته في قوله :

{ الرجز }

يا أحمد المرتجى في كل نائبة² فم سيدي نعص جبار السماوات³

كما أنه قدس خمرته ، وخلع عليها من النعوت والشمائل ما يجعلها ترتقي لمنازل الآلهة، فتراه يدعو إلى التسبيح باسمها وتعظيم آلائها ³ ، فيقول :

{ السريع }

أثن على الخمر بالآلهة⁴ وسمها أحسن أسمائها⁵

بل لقد عبدها بإدمانه شربها ، فبات متعلقاً بالكأس لا يستطيع مفارقتها ، و لا يتوانى عن مقارعته في كل الأوقات ⁵ ، ضارباً عرض الحائط بكل ما جاء في تحريم الخمر من أحكام شرعية أو وضعية مُتمرداً على نهى القرآن الكريم عنها في قوله تعالى : " يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ " ⁶ . ومطيعاً لأوامر إبليس في قوله :

{ البسيط }

وحبذا حانة بالكرخ تجمعا⁷ نطيع فيها بشرب الخمر إبليسا⁷
إبليساً⁷

ويشهر إصراره عليها على الرغم من تحريمها، ويعترف بأن تحريمها هو سرّ لذتها، فيقول:

{ الوافر }

¹ ينظر : أمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ص 51 .

² المرجع السابق : ص 174 .

³ ينظر : حسين ، طه : حديث الأربعاء ، ج 2 ، ص 87 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 13 .

⁵ ينظر : حسين ، طه : حديث الأربعاء ، ج 2 ، ص 88 .

⁶ سورة المائدة : (الآية 90 ، 91) .

⁷ أبو نواس : الديوان ، ص 203 .

فَخُذْهَا إِنْ أَرَدْتَ لَذِيذَ عَيْشٍ وَلَا تَعْدِلْ خَلِيلِي بِالْمَدَامِ
وإنَّ قالوا : " حرامٌ " فُل : " حرامٌ ! " ولكنَّ اللَّذَاذَةَ فِي الْحَرَامِ¹

وأحال الشاعر أحكام تحريم الخمر إلى مواضع سخرية واستهزاء ، واستعان بغزارة الدُموع على اصطناع الحزن ، فقال :

{ الطويل }

بَكَيْتُ وَمَا أَبْكِي عَلَى دِمَنِ قَفَرٍ وَمَا بِي مِنْ عَشْقٍ فَأَبْكِي مِنَ الْهَجْرِ
ولكنْ حَدِيثٌ جَاءَنَا عَنْ نَبِيَّتِنَا فَذَاكَ الَّذِي أَجْرَى دُمُوعِي عَلَى النَّخْرِ
بِتَحْرِيمِ شُرْبِ الْخَمْرِ وَالنَّهْيِ جَاءَنَا فَلَمَّا نَهَى عَنْهَا بَكَيْتُ عَلَى الْخَمْرِ
فَأَشْرَبَهَا صِرْفًا ، وَأَغْلَمُ أَنَّنِي أَعَزُّ فِيهَا بِالثَّمَانِينَ فِي ظَهْرِي²

فهو يصرُّ على شرب الخمر الصَّافِيَةِ على الرَّغْمِ من استجوابه للحدِّ ، وهذا دليلٌ على قدرته الفائقة على المراوغة والمواجهة ، ولذلك تراه لا يخاف العقاب ، فيقول :

{ السريع }

رُدَّا عَلَيَّ الْكَأْسَ إِنَّكُمَا لَا تَذْرِيَانِ الْكَأْسَ مَا تُجْدِي
لَوْ نَلْتُمَا مَا نَلْتُ مَا مُزِجَتْ إِلَّا بِدُمْعِكُمَا مِنَ الْوَجْدِ
إِنْ كُنْتُمَا لَا تَشْرَبَانِ مَعِي خَوْفَ الْعِقَابِ شَرِبْتُهَا وَخُدي³

وكانت خمرة أبي نواس " عالماً مليئاً بالتصورات والألوان والرؤى الموحية ... وعالماً مليئاً بالرموز والدلالات"⁴، فقد أعادها لصورتها التي اختلقت في ذهن الإنسان البدائي⁵، حيث ارتبطت الخمر بطقوس الدِّين فغدت إلهاً أو شراباً للإله أو حتى دمه " الَّذِي دَابَّ عَلَى شَرْبِهِ عَابِدُوهُ لِتَحُلَ فِيهِمْ رُوحُهُ وَقَوَاهُ " ⁶ . وما كانت خمرياته - في مجموعها - كما يرى علي شلق إلا صلاةً لذلك

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 693 .

² المصدر السابق : ص 36 .

³ المصدر السابق : ص 182 .

⁴ الزعيم ، أحلام : أبو نواس بين العبث والاعترا ب والتَّمَرْد ، ص 175 .

⁵ ينظر : النويهي ، محمد : نفسية أبي نواس ، ص 35 .

⁶ البطل ، علي : الصورة في الشعر العربي ، ط 3 ، دار الأندلس ، بيروت - لبنان ، 1983 م ، ص 203 .

الوثن - الخمر - الذي لم يعبد زلفى ، وإنما عبد لذاته ¹ . وإذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا دعا أبو نواس إلى الثناء على الخمر ونعتها بأحسن أسمائها ؟! ولماذا بدت قصائده فيها ترانيم عشق وأناشيد دينية ترتل في محرابها ؟! ²

فما من شك إذن بأنه خلع عليها من الصفات الربانية ما يجعلها سرّاً للحياة ، فهي روحٌ قد تجسد أحياناً بروح الكرم أو روح " الدن " ، فتتسلل إلى شاربها لتهبه روحاً أخرى ، وتوصله إلى قمة النشوة ، ولكنها ليست كأية نشوة ؛ لأنها تصعد بروحه إلى آفاق تضاهي آفاق الانتشاء الديني الرفيع الذي تسمو لبلوغه كل نفس بشرية ³ . يقول :

{ البسيط }

ما زلتُ أَسْتَلُّ روحَ الدنِّ في لُطْفٍ وأستقي دمه من جوفٍ مجروحٍ
حتى انتثيتُ ، ولي رُحانٍ في جسدٍ والدنُّ منطرحٌ جسماً بلا روحٍ ⁴
ويقول :

{ السريع }

قلتُ لدنٍّ شَجَّ أوداجُهُ لیت دمي دونك مسفوحُ
وكنت منه بدلاً صالحاً في مهجتي تحيا بك الروحُ ⁵

كما يصفها بنار لا يخبو لهبها ، كنار المعبد المقدسة التي كان يستعظمها المجوس ويحبسون عنها أنفاسهم حتى لا يلوثوها ⁶ ، فيقول :

{ المنسرح }

تَلْتَهِبُ الكفُّ من تَلْهَبِها وتحسُرُ العينُ أنْ تَقْصَاها

¹ ينظر : شلق ، علي : أبو نواس بين التخطي والالتزام ، ص 66 .

² ينظر : النويهي ، محمد : نفسية أبي نواس ، ص 41 .

³ ينظر : المصدر السابق ، ص 35 ، ص 37 ، ص 38 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 92 .

⁵ المصدر السابق : ص 688 .

⁶ ينظر : الحوفي ، أحمد محمد : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ، ط 3 ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص 28 . و الشتيوي ، صالح علي سليم : ثنائية النار والنور في شعر أبي نواس ، المنارة ، م 9 ، ع 1 ، 2003 م ، ص 107 .

كَأَنَّ نَارًا بِهَا مُحَرَّشَةٌ نَهَايُهَا تَارَةً وَنَغَشَاهَا¹

ويذهب بعض المفسرين إلى القول بأن خمرة أبي نواس خمرة فلسفية ؛ إذ لا يعنى الشاعر بشربها بقدر ما يعنى بفهم معناها الذي دقّ حتى ليعجز الوهم عن تمثّله ، فهي خمرة لا تُدرك بالحواس ، وفيها من النّزعة الغيبية ما جعل الشاعر ورعاً متأملاً يتحرّى أسرارها كما يتحرّى الصّوفي روح الله² ، فيقول :

{ مجزوء الرمل }

هُوَ فِي رَجْمِ الظَّنُونِ	دَقَّ مَعْنَى الْخَمْرِ حَتَّى
ظَرَّ مِنْ طَرْفِ الْجَفُونِ	كَلَّمَا حَاوَلَهَا النَّاسُ
عَنْ خِيَالِ " الزَّرْجُونِ" ³	رَجَعَ الطَّرْفُ حَسِيرًا
كَدَبَتْ عَيْنَ الْيَقِينِ	لَمْ تُقَمِّ فِي الْوَهْمِ إِلَّا
يُتَحَرَّى بِـ الْعَيُونِ ⁴	فَمَتَى تَدْرِكُ مَا لَا

وقد خصّ النّواسي خمرته بطقوس عبادة زادت من إجلالها وتعظيمها ، كما زادت من تطرفه وإسرافه⁵ ، فتأمل خلوته مع خمرته منفرداً بها يناجيها، ويتغزل بها، ويرتفع بها عن الندماء، بل ويرقيها بشعوزات من شأنها أن تدفع عنها الحسد ، فيقول :

{ المتقارب }

أَخَذُ مِنْهَا ، وَأُعَاطِيهَا	خَلَوْتُ بِالرَّاحِ أُنَاجِيَهَا
أَرْضَاهُ أَنْ يَشْرِكَنِي فِيهَا	نَادِمْتُهَا إِذْ لَمْ أَجِدْ مُسْعِدًا
فَكُنْتُ سَاقِيَهَا وَحَاسِيَهَا	شَرِبْتُهَا صِرْفًا عَلَى وَجْهِهَا
فِي الْحَسَنِ وَالظَّرْفِ يُدَانِيهَا	لَمْ تَنْظُرِ الْعَيْنُ إِلَى مَنْظَرِ

¹ أبو نواس: الديوان، ص 8 .

² مجموعة من المؤلفين: المفيد في الأدب العربي، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، 1964م، ج2، ص515.

³ الزرجون هو: الشراب الذهبي .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 47 .

⁵ ينظر : عبد العال، محمد جابر: حركات الشيعة المتطرفين ، ص 293 .

مازلتُ خوفَ العين لما بدت أنفثُ من كأسِي وأرقِيها !¹

فيما رأى آخرون أنّ زندقة أبي نواس بعيدة تماماً عن المعنى الحقيقيّ للزندقة القائمة على تعاليم ماني ، وفسروها بالخروج عن الأعراف والتقاليد وعقيدة الجماعة المتبّعة ، فهو في نظرهم متمردٌ متجاوز لقوانين المجتمع ، يحضُّ على الحياة ويذمّ التقشف والعزوف عن المتع ، ويدعو إلى نبذ البكاء على الطلل والإقبال على الخمر بما تبعثه من فرح وسرور ، دفعهم إلى اتهام النَّوَاسِيّ بالشَّعوبيّة التي تعلي من شأن الفرس وتحط من شأن العرب² .

وسيناقش هذا البحث شعوبية أبي نواس في مواضع لاحقة . فيما يناقش القسم الآتي الجوانب اللافتة في زندقة أبي نواس ، فالصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ والحساب والثواب والعقاب كلّها مفاهيم وألفاظ كان لها حضورٌ شديدٌ في شعر أبي نواس إنّما على نحو مقلوب ، ولم يفرط الشّاعر في استعمال تلك الألفاظ غفراناً بل عصيانياً ، ولا أمراً بالمعروف ونهيّاً عن المنكر ، بل أمراً بالمنكر ونهيّاً عن المعروف ، ولا توبة ولا زهداً بل تهتكاً وانتهاباً³ ، وقد وضحت الباحثة لبيان من خلال تحليل نماذج من شعر أبي نواس تتعرض لموقفه من العبادات والشرائع والأخلاق .

الجوانب اللافتة في زندقة أبي نواس

تظهر زندقة أبي نواس في أشعاره بشكل واضح، وتتمثل هذه الزندقة من خلال حديثه عن موضوعات محدّدة ذات علاقة مباشرة بالإيمان والكفر، وأهمّ تلك الموضوعات هي :

1- موقف أبي نواس من الصلاة والزكاة

الصلاة ثاني أركان الإسلام ، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، وبها يتقرب المؤمن لربه ويكفر عن سيئاته ، ولم يكن أبو نواس بغافلٍ عن ضرورة الصلاة وأهميتها في صلة المسلم بربه إلا أنّه أبغض كل ما يقيد متعه ويمنعه عن خمرته ، ولو كان فرضاً لا يصح إسلام

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 114 .

² عيسى، حكمت: شعر المجون في القرن الثاني الهجري بين الإبداع والمجون والزندقة والشَّعوبيّة، ص212- ص213.

³ حسن ، عبد الكريم : انتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، مجلة العلوم الإنسانية ، البحرين، ع 5 ، 2002 ، ص 72 .

المرء إلا به ، ولذلك تراه يتهاون في ترك الصلاة ، معرضاً عن كل من يحثه على أدائها في سبيل شرب الخمر ، فيقول :

{ مجزوء الرمل }
عَاذِلِي فِيهَا أَطْغِي وَأَقْلَلِ الْآنَ لَوْمِي
وَأَشْرَبِ الرِّاحَ وَدَغْنِي مِنْ صَلَاةٍ كُلَّ يَوْمٍ¹

وشغلت فتنة الحياة أبا نواس عن واجباته الدينية ؛ فهم في أجواء اللذة ، وطابت نفسه بصحبة رفقاء السوء ، فشاركهم خمرتهم التي كانت تقدم لهم وقت الصلاة فيحثونها حتى تفوتهم²، وفي هذا يقول:

{ الطويل }
خَرَجْنَا عَلَى أَنَّ الْمَقَامَ ثَلَاثَةٌ فَطَابَتْ لَنَا حَتَّى أَقْمَنَا بِهَا شَهْرًا
عَصَابَةٌ سُوءٍ لَا يَرَى الدَّهْرُ مِثْلَهُمْ وَإِنْ كُنْتُ مِنْهُمْ لَابْرِيئًا وَلَا صِفْرًا
إِذَا مَا دَنَا وَقْتُ الصَّلَاةِ رَأَيْتَهُمْ يَحْتُونَهَا حَتَّى تَفُوتَهُمْ سَكْرًا³

ولعل الشاعر قد سار في قوله على مذهب (المعمرية)⁴ الذي يُقدِّم أصحابه على الإثم والفحشاء ويعتبرون ترك الفرائض تديناً ، فيزهون باللذة ويتفخرون بالمعصية⁵ . ولم يعبأ أبو نواس بنعت أصحابه بعصاة السوء ، بل تباهى بذكر أفعالهم ؛ فهو مثلهم يلهو ، ويغالي في طلب اللذة معهم مخالفاً الفرائض ومتحدياً الشرائع ، فيقول في وصف مجلس لهو:

{ الرجز }
فَلَمْ نَزَلْ يَوْمَنَا ، وَلَيْلَتَنَا نَقَرًا عَلَى السَّطْحِ بِالْظَّنَابِيرِ
حَتَّى رَأَيْنَا السَّوَادَ مُنْحَسِرًا وَدَارَتِ الشَّمْسُ فِي الْمَقَاصِيرِ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 205 .

² ينظر : عبد العال ، محمد جابر : حركات الشيعة المتطرفين ، ص 283 ، ص 284 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 61 .

⁴ المعمرية هي : فرقة من الشيعة الغلاة ، وينتسبون لمعمر بن خيثم ، وضع معمر عن أصحابه غسل الجنابة ، وزعم أن كل شيء أحله الله في القرآن وحرمه ليس على الحقيقة ، ودانوا بترك الصلاة والفرائض . ينظر : الحنفي ، عبد المنعم : موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية ، ص 600 .

⁵ ينظر : عبد العال ، محمد جابر : حركات الشيعة المتطرفين ، ص 285 .

وَحِينَ حَانَتْ صَلَاتُنَا لِضُحَى قُمْنَا نُصَلِّي بِغَيْرِ تَكْبِيرٍ¹

وكيف لا يضيع أبو نواس صلاته ويقضيها من غير تكبير إذا كان قد أخذ فتواه من شيخه إبليس الذي قضى له بقضاء ما فاتته من صلاة ليله في نهاره حتى لا يحرم نفسه لذة العقار، فيقول:

{ الكامل }

قلت: الصَّلَاةُ؟ فقال: فرضٌ واجبٌ صَلَّ الصَّلَاةَ، وَبِتْ خَلِيفَ عِقَارِ
اجْمَعْ عَلَيْكَ صَلَاةَ حَوْلٍ كَامِلٍ مِنْ فَرَضٍ لَيْلٍ فَاقْضِهِ بِنَهَارٍ²

فالشاعر لا ينكر وجوب الصلاة ولكنه يريد أن يؤديها على هواه ، ويؤكد ذلك قوله:

{ الكامل }

وافرضْ لِنَفْسِكَ كُلَّ يَوْمٍ رَمْعَةً لَا تُكْثِرَنَّ فَتُجِبَّ الْأَجْرَ³

فليس غريباً إذن أن يحيل الشاعر المسجد وما يعقد فيه من مجالس للعلم إلى مستقر لإبليس، ومكان للعبث بالغلماں المرد، وموضعا لتصيدهم والإيقاع بهم، مستهتراً بحرمة بيت الله ومتجاهلاً قدسيته، فيقول :

{ مجزوء الوافر }

رَأَيْتَ الْمَسْجِدَ الْجَامِـ
بَنَاهُ اللَّهُ وَالطَّالِـ
بِهِ خِلْتُ ظِبَاءَ الْإِنـ
عَ فُقَاعَةً إِبْلِيسِـ
عُ بَرْجٌ غَيْرَ مَنْحُوسِـ
سِ فِي أَقْبَحِ مَأْنُوسِ⁴

وفي قوله:

{ مجزوء الوافر }

عروضي إذا ما افْتَرَّ (م) مُبْتَسِرٍ مَا بَدَا بَرْدُ
إذا قمنا نصلي لَمْ يَفَرِّقُ بَيْنَنَا أَحَدُ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 146 .

² المصدر السابق : ص 200 .

³ أبو نواس : الفكاهة والإتناس في مجون أبي نواس ، ص 109 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 723 . والْفُقَاعَةُ : العريشة .

أَحْرَكُهُ إِذَا قَامَا وَالْمُسْـُٔةَ إِذَا قَعَدَا¹

يظهر الشاعر وقد فقد خشوعه في صلاته بسبب الغلام الذي صلى برفقته ؛ فضعف أمام حسنه وعبث به في حركات الصلاة وسكناتها .

وترك الصلاة عند الشاعر أمرٌ سهل إذا ما قورن بنيل حاجته من ظبيٍّ أمرد وكأسٍ تدور ، فخوفه من فرار مَطلبه أكبرُ عنده من كبيرة ترك الصلاة فيقول مخاطباً ناصحيه :

{ مجزوء الكامل }

قَالُوا : اغْتَسِلْ أَتَتْ الظُّهُـُٔ	رُ وَالْكـُـؤُوسُ تَدُورُ
فَقُلْتُ : سَـوْفَ ...! فَقَالُوا	تَرْكُ الصَّلَاةِ كَبِيرُ
فَقُلْتُ : أَكْبَرُ مِنْهُ	ظَبْيِي يُنَالُ غَرِيرُ
إِنْ قُمْتُ لَمْ يَنْتَظِرْنِي	وَعَابَ عَنِّي السُّرُورُ
وَمَا لِمَثَلِي صَلَاةٌ	لَأَنَّ فِسْنِي قِي شَهِيرُ
فَأَقْصِرُوا عَن مَلَامِي	فَإِنِّي مَعْدُورُ ²

فهو يستمخح لنفسه العذر في ترك شرط أساسي من شروط الصلَاة وهو الطَّهارة ؛ ويعمل ذلك بطهر معاشره من الغلمان !! وليس هذا إلا دليلاً على فسقه الذي دفعه إلى قلب القيم الدّينية والروحية والعبث بمفهومها .

وقد تمادى أبو نواس في المجاهرة بفحشه ورذائله ؛ فحطّ من صوت المؤذن الذي يدعو للصلَاة ، وأقبل على مجونه مقنعاً ذاته بصواب ما تفعل ، فلم يمثل له صوت الأذان أية قيمة روحية تحثّه على الخشوع والإذعان لنداء الخالق ، والصلَاة له ، " لأنه يؤمن بأن الفجور ينبغي أن يكون التصرف الإيجابي للتصرف الإنساني " ³ ، يقول :

{ مجزوء الخفيف }

يَا سَلِيمَانُ غَنَّنِي	وَمِنْ الرِّاحِ فَاسْنُقْنِي
عَاطِنِي كَأَسْ سَلُوءِ	عَنْ أَذَانِ الْمُؤَذِّنِ ⁴

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 358 .

² المصدر السابق : ص 335 .

³ حاوي ، إيليا : فن الشعر الخمري ، ص 263 .

⁴ أبونواس : الديوان ، ص 33 .

وحاول النواصيّ انتهاز كل فرصة تمكّنه من السّخريّة من الصّلاة وأحكامها ومن يؤديها،
فيقول واصفًا صلاة أحد السّكاري:

{ الوافر }

إذا ما أدركتُهُ الظُّهرَ صَلَّى	ولا عَصَرَ عَلَيْهِ ولا عِشاءَ
يُصَلِّي هذه في وقتِ هذي	فَكُلُّ صَلَاتِهِ أَبَدًا قِضاءَ
وذاكَ محمدٌ تفديهِ نَفسي	وَحُقَّ لَهُ وقُلَّ لَهُ الفِداءُ ¹

فمحمد هذا لا يلتزم بأوقات الصلاة ، ويؤدي كلّ صلواته قضاءً في وقتٍ واحد ، مغفلاً
قوله تعالى: " إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا " ² ، ولكنّه بنظر الشاعر شخص
يستحقّ الفداء؛ إذ يعبر عن رأيه الساخط على الدين، والمتجرئ على أحكامه.

وغالى أبو نواس في بغضه للصّلاة، واستهان بأركانها، ومضى إلى خمرته وغلمانه غير
مكرثٍ بعقوبة تاركها التي تجعله في منزلة الكافر الخارج عن الملة، أو الفاسق الذي يجب أن
يتوب³، فودّع المسجد الذي شهد مراتع فتوته مع رفقاءه المحبين وداعاً بلا عودة، وتفرّغ لحانات
قطربل والكرخ ؛ يستعين بخمرته وندمائته على تناسي حنينه - المقيّد بلحظات صدقه مع ذاته -
لذلك العهد الذي لن يكرره الزمان⁴، فيقول:

{ المنسرح }

عفا المصَلَّى وأقوتِ الكُثْبُ	مَنْي فَاَلْمَرْبِدَانِ فَاَللَّبَبُ
فالمسجدُ الجامعُ المروعة والـ	دَيْنِ عفا ، فَاَلصَّحَّانُ ، فَاَلرَّحَبُ
منازلٌ قد عَمَرَتْهَا يَفْعَا	حَتَّى بَدَا فِي عِذَارِي الشَّهْبُ
في فتيةٍ كالسيوفِ ، هَزَهُمُ	شَرَحُ الشَّبابِ ، وَزَانَهُمُ أَدَبُ
ثُمَّ أَرَابَ الزَّمَانُ ، فَاَفْتَسَمُوا	أَيْدِي سَبَا فِي الْبِلَادِ ، فَاَنْشَعَبُوا
لَنْ يُخْلَفَ الدَّهْرُ مِثْلَهُمْ أَبَدًا	عَلَيَّ هَيْهَاتَ شَأْنُهُمْ عَجَبُ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 23 .

² سورة النساء : الآية 103 .

³ ينظر : الطّيار ، عبد الله بن محمد : خلاصة الكلام في أركان الإسلام ، ط 4 ، مكتبة الملك فهد الوطنيّة ، الرياض ،
2008 م ، ص 80 .

⁴ النوبي : نفسية أبي نواس ، ص 152 .

فُطْرُبْلٌ مَرَبَعِي ، وَلِي بُقْرَى الـ كَرِخَ مَصِيفٌ وَأُمِّي الْعَنْبُ¹

وجعل الشاعر من خمرته قبله ، ويمم وجهه شطر أباريقها مصليا ، فقال :

{ سريع }

صَارَ مُصَلِّلَانَا أَبَارِيقَنَا وَنَحْرُنَا بُنْتُ الْعَنَاقِيدِ²

وتجتاحه مشاعر المهابة والرَّهبة لدى اقترابها مشعة نحوه فلا يملك إلا أن يسجد لها³،

فيقول :

{ الطويل }

فَجَاءَ بِهَا زَيْتِيَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ فَلَمْ نَسْتَطِعْ دُونَ السُّجُودِ لَهَا صَبْرًا⁴

فو يرى أنها الأحقُّ بالصلاة والأولى بالسُّجود ، فيقول :

{ الطويل }

يَخِرُّ لِصَرْفِ الْكَأْسِ فِي السُّكْرِ سَاجِدًا وَإِنْ مُزِجَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَسَلَّمًا⁵

وأصرَّ الشاعر على ضلاله فعدَّ من الزنادقة الذين لا يدركون سرَّ الكون ولا يؤمنون بالدين⁶، ولا يتورعون عن المجاهرة بغيهم وفسقهم ، فتحرر من أي قيد يحدُّ من رغباته المعلنة عن نفسها بسخط وعناد ، وعلى الرغم من كون ذلك القيد سبيلاً للنجاة يوم القيامة .

فاعترض على الزَّكاة ، ورفض الالتزام بها وعدّها مذهبا (للشُّطَّار)⁷ الذين حادوا عن الطريق السَّوي ، معارضا قوله تعالى : "وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ"⁸ ، فقال على لسان إبليس:

¹ أبو نواس : الديوان ، ص3 ، ص4 .

² المصدر السابق : ص 344 .

³ ينظر : النويهي ، محمد : نفسية أبي نواس ، ص 41 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 61 .

⁵ المصدر السابق : ص 683 .

⁶ إيليا حاوي : فن الشعر الخمري ، ص262 .

⁷ الشُّطَّار : " شطر شطورا شطارة ، وهو الذي أعيا أهله ومؤدبه خبثا ... ، وقول النَّاسِ فلانٌ شاطر معناه أنه أخذ في نحو غير الاستواء ، ولذلك قيل شاطر لأنَّه تباعد عن الاستواء " . ابن منظور : لسان العرب ، مادة (شَطَرَ) .

⁸ سورة المؤمنون : الآية 4 .

{ الكامل }

قلت : التَّصَدَّقْ وَالزَّكَاةَ ؟ فقال لي : شَيْءٌ يُعَدُّ لِآلَةِ الشُّطَّارِ¹

2- موقفه من الصوم

فرض الخالق سبحانه صيام شهر رمضان لحكم عظيمة ، منها تعويد النفس الصبر على الشهوات ، واستشعار مراقبة الله والخوف من الإقدام على المعاصي ، فتتجلي صورة المؤمن القادر على الثبات ، المتمسك بعرى الدين ، المتغلب على ذاته بكبح جماح شهواتها فيرتقي بنفسه ويستحق رضوان الله وغفرانه ، فيما تظهر صورة أخرى مغايرة تقصح عن إيمان ضعيف ، وسلوك متخاذل ، وروح متناقلة عن تلبية أحكام الدين ، بل وتبرم شديد من فرائضه ، مما جعل الإغراق في المعصية أمراً هيناً على فاعلها ؛ وهذا ما دفع أبا نواس إلى كره شهر رمضان ورفض صيامه ؛ لأنه يكلفه مجانية سكره واحتباس شهوته ، إذ اعتاد النواصي ألا يكون أسيراً لغلٍ يمنعه عقاره ، ويعكّر عليه صفو متعته ، فضاق بالصوم ، وهاجمه في أشعاره ، فقال:

{ مجزوء الرّمل }

منع الصَّوْمُ الْعَقَارَا وَذَوَى اللَّهِ وَفَغَارَا
وَبَقِينَا فِي سُجُونِ الْـ صَوْمٍ لِلَّهِمْ أَسَارَى²

وأعلن الشاعر استعداده للإفطار في شهر الصوم لأجل خمرته ، بل ودعا إلى ذلك فقال:

{ مجزوء الرمل }

فَارْفَعِ الصَّوْمَ بِشُرْبِ وَأَمْزِجِ الْخَمْرَ بِنَوْمِ³

فأبو نواس لا يستطيع تمالك نفسه إذا اشتاقت إلى كؤوس الخمر ، وربما حاول تعويض ما يمتنع عن شربه نهارا في الليل ، حيث يقول:

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 200 .

² المصدر السابق : ص 204 .

³ المصدر السابق : ص 205 .

{ مجزوء الرمل }

غِيرَ أَنَا سَنَدَارِي فِيهِ مَا لَيْسَ يُدَارِي
نَشْرَبُ اللَّيْلَ إِلَى الصَّبِّ حِصَا غَارًا وَكِبَارًا¹

وحتى في النهار ، لم يكن للصيام أن يمنعه من مدامه إذا وجد شريكًا ينادمه² ، يقول :

{ البسيط }

لَوْ كَانَ لِي سَكَنٌ فِي الرَّاحِ يُسْعِدُنِي لَمَّا انْتَهَزْتُ بِشُرْبِ الرَّاحِ إِفْطَارًا
الرَّاحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارِبُهُ فَاشْرَبْ وَإِنْ حَمَلَتْكَ الرَّاحُ أَوْزَارًا³

وقد نقّب الشاعر عن الأعذار التي تجعل إفطاره في رمضان أمرًا مباحًا كتذمره من طول هذا الشهر ، مع تعلقه بالخمير التي تستحيل الحياة دونها ، وتعلقه برفقائه وندمائهم ممن كانوا في شغف دائم لمجالس اللهو والسمر ، وخضوعه لإغراء إبليس الذي كان يحثه على الإفطار دائمًا، إذ يقول :

{ الكامل }

قُلْتُ : الصَّيَامُ ؟ فَقَالَ لِي : لَا تَنْوِهِ وَاشْدُدْ عُرَى الْإِفْطَارِ بِالْإِفْطَارِ⁴

ويقول :

{ الكامل }

إِذَا طَالَ شَهْرُ الصَّوْمِ قَصُرَتْ طَوْلُهُ بِحَمْرَاءَ يَحْكِي الْجُلْنَارَ احْمِرَارُهَا⁵

وكما بحث أبو نواس عن أعذار تمكّنه من الإفطار فقد حاول اختلاق وسائل توصله إلى غايته ، حيث يقول :

{ الطويل }

فِدَاؤُكَ نَفْسِي قَدْ طَرِبْتُ إِلَى الْكَاسِ وَتَقْتُ إِلَى شَمِّ الْبَنْفَسِجِ وَالْآسِ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 204 .

² ينظر : حاوي ، إيليا : ألحان ألحان ، ص 121 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 111 .

⁴ المصدر السابق : ص 200 .

⁵ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ط1 ، القاهرة ، 1361هـ ، ص 112 ، ص 113 .

فَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَجْعَلَ الْيَوْمَ نُسْكَانَا وَنَشْرِبَهَا فِي الْبَيْتِ سِرًّا مِنَ النَّاسِ¹

إنَّ الأبيات السابقة تعرض استهانة النَّوَاسِي المعلنة بشعيرة الصيام، وذكاءه في الدفاع عن نفسه وتسويغ أفعاله، فهو يريد ستر إفطاره بادعاء النصرانية ، والتزام أعيادها وطقوسها، ليداري تخلفه عن الصيام بشرب الخمر، وهو لا يمانع بإعادة أي يوم يفطر فيه ساخرًا من عدّاله الذين يكبرون الإفطار ويعدونه جريرةً عظيمة ، إذ عدّ أبو نواس شهر رمضان حملًا ثقیلاً يرهق كاهله ويجلب له المرض ، والملل وضيق النفس ، فيشخصه برجل يريد قتله والتخلص منه فيقول:

{ الهزج }

أَلَا يَا شَهْرُ كَمْ تَبْقَى	عَرَضْنَا وَمَلْنَاكَ
إِذَا مَا ذُكِرَ الْحَمْدُ	لِشَوَّالٍ دَمَمْنَاكَ
فِيالْيَتِّكَ قَدْ بَنَيْتَ	وَمَا نَطْمَعُ فِي ذَاكَ
وَلَوْ أَمْكَنَ أَنْ يُقْتَلَ	لشَهْرٍ لَقَتْنَاكَ ²

ويقول أيضًا :

{ مجزوء الكامل }

وَإِذَا أَتَى شَهْرُ الصَّيَامِ ففِيهِ بِالْمَرَضِ اغْتَلِلْ³

ولذلك يستبشر النَّوَاسِي بانتهاء شهر رمضان استبشارًا عظيمًا ، فيهزأ بهلاله الذي بدا في غاية النحول كجسده المتلهف على خابيات الخمر ، ويعلن عداءه لرمضان ، ويولي شوال صداقته ومودته فيقول:

{ الطويل }

لَقَدْ سَرَّنِي أَنَّ الْهِلَالَ غُدِيَّةً	بَدَا وَهُوَ مَمْشُوقُ الْخِيَالِ دَقِيقُ
وَإِنِّي بِشَهْرِ الصَّوْمِ إِذْ بَانَ شَامِتٌ	وَإِنَّكَ يَا شَوَّالُ لِي لَصَدِيقُ
فَقَدْ عَاوَدْتُ نَفْسِي الصَّبَابَةَ وَالْهَوَى	وَحَانَ صَبُوحٌ بَاكِرٌ وَغُبُوقُ ⁴

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 212 .

² المصدر السابق: ص 203 .

³ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 105 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 205 .

ورأى الشاعر شهر شوال منقذاً يخلّصه من صراع ذاته مع الخمر ؛ فيسارع إلى النّهم من الدّنان وتعويض ما فاتته من قصف ولهو ، فما شوال في نظر الشّاعر إلا قصاصٌ من رمضان ، وما حرمه من لذّات ومتع ، يقول :

{ الوافر }

تَأْهَبُ يَوْمَ فِطْرِكَ لِلْمَعَاصِي وَخُذْ شَوَالَ وَيْحَكَ بِالْقَصَاصِ
وَصِلْ أَيَّامَهُ بِاللَّيْلِ حَتَّى تَرَى السَّتِينَ لَيْسَ بِذِي انْتِقَاصٍ¹

ويقول:

{ مجزوء الرمل }

اسْتَعِذْ مِنْ رَمَضَانَ بِسُلالاتِ الدّنان²

ولشوال فرحة لدى كل الصائمين، إلا أنّ فرحة أبي نواس تهتز لأجلها ألوية السّكر، وتتراقص فيها كؤوس المدام، فتطرب نفسه بسعادة تنسيه ما قاساه من حرمان، حيث يقول:

{ البسيط }

وَلَى الصَّيَامِ وَجَاءَ الْفِطْرِ بِالْفَرَحِ وَأَبَدَتِ الْكَأْسُ أَلْوَانًا مِنَ الْمُلْحِ³

ويقول:

{ السريع }

قَدْ سَلَّمَ الصَّوْمُ عَلَى الْفِطْرِ وَاخْتَفَقَتِ أَلْوِيَةُ السُّكْرِ⁴

فبدا النّواسيّ حريصاً على أن يكون مختلفاً في كل شيء ؛ فاختص نفسه بفلسفة حققت له ما يبغي من متع حسيّة ولذّة روحية⁵ ، وسنّ لنفسه شريعة حادت به عن شرائع دينه ، وتحرر من قيود الحياة بخروجه عن المألوف⁶ ، ووجد في مخالفة الدّين ومعاداة أوامره ما يحقق لذاته الرّضا ،

¹ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 106 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 194 .

³ المصدر السابق : ص 104 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، : ص 363 . وينظر : أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 114 .

⁵ التّطاوي ، عبد الله : القصيدة العربية قضايا واتجاهات ، ص 139 .

⁶ الزعيم ، أحلام : أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد ، ص 118 ، ص 123 .

، ولروحه السّلام والدّعة ، فضاق ذرعاً بشهر الصّوم ، ولم يعدم حيلةً في تقصير أيّامه بالنّشاط إلى الشّراب ، والاستغناء بالحرام . فإن كان الصوم حرماناً يسمو بالمؤمن إلى رضا الخالق سبحانه فيستحقّ عليه الجزاء ، فهو في عرف أبي نواس عذابٌ يقضّ مضجعه ، ويقلق راحته ، فيقول :

{ المنسرح }

أبا العباس كفّ عن الملام	ودعْ عنك التّعقّق في الكلام
فقد وحيّة من أهوى وتهوى	أقام قِيامتي شهر الصّيام
أمات مُجانتي وأباد لهوى	وعطّل راحتي من المدام
ولو أبصرتني عند السّواري	أطوفُ عند تأذين الإمام
علّمت بأنني عدّبت نفساً	لها عادٌ ورسمٌ في الحرام ¹

3- موقفه من الحج

لم يكن موقف أبي نواس من الحج موقفاً مختلفاً عن غيره من أركان الإسلام، ولربّما يقع القارئ لأبيات الشاعر التي تحدث فيها عن الحج في حيرة من أمره ؛ فليس يخفى على أحد ما لهذه الشعيرة المعظّمة من أثر على النفس الإنسانية التي تستلزم الخشوع استشعاراً للرّبة والأمان في آن واحد ، ولا يستطيع مسلم إخفاء شوقه ومدارة ارتجاف جوانحه إذا ذكرت أمامه الكعبة والبلد الحرام؛ فالحجّ فرضٌ تتوق له النفوس المحبّة لخالقها المتطلعة إلى غفرانه ، أوّلاً يعود من ذهب إلى الحج طاهراً نقياً كيوم ولدته أمّه ؟ كما أنّ الحجّ فرضٌ يتطلب مقدرة قد يعجز عنها بعض من تاق إليها فتراهم يلهبون بالدّعاء لبلوغها ، فهي قد تكون حلاً صعب المنال . قال تعالى : " وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا "².

ولكن الأمر يبدو مغايراً عند أبي نواس الذي كان يرفض فرض الذهاب إلى الحج متعللاً بانتظار نفاد لذّات بغداد ، وكيف تفنى لذاتها، وقد أحيطت بمواضع الخمر وحوانيتها وأديرتها؟! وكيف سيملك النّواسيّ القدرة على فراقها وقد استأثرت بقلبه وشغلت عقله؟! فإذا به يذكر كرومها

¹ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 114 .

² سورة آل عمران : آية 97 .

وخماراتها ابتداءً من (قطرل) وانتهاءً (بطيرناباذ) التي خشيتها خشية أبعدت عنه التمسك ، وجعلته لا يقوى الفراق ، فيقول :

{ البسيط }

وقائلٍ هل تريدُ الحجَّ قلتُ له	نعم إذا فنيْتُ لَذَاتُ بَغْدَادِ
أما وقطربُبلٍ منها بحيثُ أرى	فقبلةُ الفِرْكِ من أَكْنَافِ كِلْوَادِ
فالصَّالِحِيةِ ، فالكَزْخُ التي جَمَعْتُ	شُدَّادَ بَغْدَادَ ما هُمْ لي بِشُدَّادِ
فكيف بالحجِّ لي ما دمتُ مُنْعَمَسًا	في بيتِ قِوَادَةٍ أَوْ بَيْتِ نَبَّادِ
وهبك من قَصَفِ بَغْدَادِ تَخَلَّصُنِي	كيف التَّخَلُّصُ لي من طيرناباذٍ؟ ¹

ويسخر النواصي في مقطوعة شعرية أخرى ممن يعابثه فينعته بالتمسك مقرأً أنه لم يذهب إلى الحجِّ إلَّا لزيارة خَمَّارة (طيرناباذ) الواقعة بين الكوفة والقادسية ، فيقول :

{ البسيط }

قالوا تَسَّكَ بعدَ الحجِّ ، قلتُ لهم	أرجو الإله ، وأخشى طيرناباذًا
أخشى قُضَيْبَ كَرَمٍ أَنْ يُنَازِعَنِي	فَضَلَ الخطام وإن أَسْرَعْتُ إِغْدَاذًا ²

وقد زادته إقامته في تلك الحوانيت فتنة وضياعا فخاطب الناس محرّضاً بقوله :

{ مجزوء الكامل }

لا تَقْرَبِ البَيْتَ الحَرَامَ	وَحَلَّاهُ حَتَّى يَحِلَّ
وَإِذَا رَأَيْتَ رَكَائِبًا	نَحْوَ الحَجَّاجِ حَدَّتْ فَقُلْ
مَالِي يُطَوَّفُ بِي وَمَا	أَنَا بِالْأَسِيرِ عَلَى جَمَلٍ ³

وقوله :

{ الكامل }

لا تَأْتِيَنَّ بِلَادَ مَكَّةَ مُحَرَّمًا	وَلَوْ أَنَّ مَكَّةَ عِنْدَ بَابِ الدَّارِ ⁴
---	---

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 167 .

² المصدر السابق: ص 26 .

³ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 105

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 201 .

ويروي ابن منظور أنَّ أبا نواس قصد الحجَّ مرّةً عندما علم أنَّ جنان خرجت إلى البيت الحرام واستطاع بظرفه وقلة ورعه تحويل سنة لثم الحجر الأسود إلى فرصة للقاء الحبيبة؛ فتبعها محاولاً أن يتقرَّب إليها ، فهو لم يحجَّ إلَّا لأجلها¹ ، يقول :

{ السريع }

وعاشِقَيْنِ التَّفَّ خَدَاهُمَا عِنْدَ التَّامِ الحَجَرِ الأسودِ
نَفَعُلُ فِي المَسْجِدِ مَا لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ الأَبْرَارُ فِي المَسْجِدِ²

ولم تنه مشاعر الحجَّ الشاعر عن عبثه وغزله فيصرح بذلك قائلاً :

{ السريع }

لَمْ يُنْسِنِي السَّعْيُ والطَّوْفُ وَلَا الـ دَاعُونَ لِمَا ابْتَهَلْنَ وَابْتَهَلُوا
قَضِيْبُ بَانَ إِنْ قَامَ يَنْخَزِلُ وَإِنْ تَوَلَّى فَكُلُّهُ كَفَلُ³

وعلى الرغم من تعريضه الجريء بتلك المقدسات والمناسك فإنه لم يستطع تجاهل ما اعتراه من نفحات إيمانية فرضها عليه الموقف المستلزم للطهر والتوبة ؛ فإذا به يناقض ذاته ويعادي أفعاله فيولي وجهه شطر المسجد الحرام مليئاً ، ويقول :

{ مجزوء الرجز }

إِهْنَا مَا أَغْدَاكَ مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَاكَ
لَبَّيْكَ قَدْ لَبَّيْتُ لَكَ
لَبَّيْكَ إِنَّ الحَمْدَ لَكَ والمُلْكُ لَا شَرِيكَ لَكَ⁴

وما زالت هذه الأبيات تحمل طابعاً مميّزاً ؛ حيث يتلوها المنشدون ، ويتعبد بها المتعبدون فكأنها غدت تسبيحة ذات أصداء لحنية ، فيها من الجدة والتأثير ما يجعلها إبتهاً⁵ .

¹ ينظر : ابن منظور : أبو نواس ، ص 169 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 233 .

³ المصدر السابق : ص 375 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، : ص 622 ، وينظر في مناسبة هذه الأبيات : أبو هفان : أخبار أبي نواس ، ص 126 .

⁵ ينظر : خريس ، حسين : حركة الشعر العباسي في مجال التجديد ، ج 2 ، ص 181 .

4- موقفه من الأخلاق

نظّمت الشريعة السّمة علاقات الأفراد في المجتمع الإسلاميّ بطائفة من العبادات التّعاملية التي ترتقي بسلوكهم فتقودهم إلى الفلاح وسمو المكانة ؛ فلا تصلح المجتمعات إلّا بصلاح الأخلاق ولا تنتشر الرذيلة والانحلال إلّا بفسادها . ويربط بعض الفلاسفة الأخلاق بطبيعة البشرية ؛ إذ إنها تتبع من الفطرة النّقية وجوهر الإنسانية ، وإن التقت مع مبادئ الدّين وتعاليمه ¹ ، فلا بدّ للإنسان من تحقيق توازن بين رغباته الماديّة وسلوكياته الأخلاقيّة ممّا يصرفه عن الوقوع في الرذائل ، ويضمن له حياة تسودها السّكينة والأمان لينعكس هذا على المجتمع بكلّ طبقاته .

ولم يكن المجتمع العباسيّ بمنأى عن هذا الأمر إلّا أنّه احتضن مفاهيم مغايرة للواقع الأخلاقي الذي فرضه الإسلام فغدت الفضيلة هي المصلحة الدّاتية التي تحرم الفرد وتوجه سلوكه²، فأخذ النّاس يفرطون في اللذائذ ويتحرّونها ويتفنّون في الاستمتاع بها ، ويبتكرون أنواعاً جديدة منها³، مما عزز الدّعوة إلى التحلل الأخلاقيّ والدينيّ ، فغلب الفساد على طبقات المجتمع، وغدا سمة عامة عبّر عنها شعراء ذلك العصر وتحديداً الماكنين منهم .

وقد حمل أبو نواس رؤية خاصة للأخلاق نهضت على أسس تمردية مفادها الاستخفاف بكل ما تملّيه القيم والعادات والوصول بنفسه إلى ما تريد ، فمضى يذلل كلّ ما يواجه ثورته من صعوبات ؛ ممهّداً لأفكاره بمصطلحات انقلابية حشدها في أشعاره ، فلم يدع أبو نواس خلّفاً إلّا واحتج عليه ، وانحدر به إلى طريق التساقط ، فحرّض على قطيعة الرّحم ، وسفّه بر الوالدين ، حيث يقول :

{ مجزوء الكامل }

وَأَبَاكَ فَاغْصِ وَلَا تُطِغِ وَأَخَاكَ فَاجْفُ وَلَا تَصِلْ⁴

¹ ينظر : مغنيّة ، محمد جواد : فلسفة الأخلاق في الإسلام ، ط1 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1997 م ، ص 15 .

² ينظر : مغنيّة ، جواد : فلسفة الأخلاق في الإسلام ، ص 14 .

³ ينظر : أمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ج1 ، ص 103 .

⁴ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 104 .

بل ودعا إلى إيذاء الجار وانتهاك حرمة ، واستحلال ماله ، فليس النواصي ممن يرشد للصالح ويدعو للفضيلة ، يقول :

{ مجزوء الكامل }

والجارَ خَلَّ سَبِيلَهُ	واقْدِفْهُ مِنْ أَعْلَى جَبَلٍ
والجارَ إِنْ تَخَفَظْ لَهُ	حَقًّا فَجَهْلُكَ قَدْ كَمَلْ
وحرِّم جَارِكَ فانتَهَيْكَ	والمالَ مِنْهُ فاستَحِلْ
وإذا دَعَيْتَ إِلَى التَّقَى	والمصالحاتِ مِنَ الْعَمَلِ
فَأَجِبْ بِأَنْ لَا نَاقَةَ	لِي فِي الصَّلَاحِ وَلَا جَمْلٌ ¹

ولا يمكن إغفال ما تضمنته كلمات الشاعر من بغض وانتقاص لقيم تعاملية تعزز تماسك المجتمع وتنمي أواصر المحبة بين أفرادهِ ؛ فهو يرى أن إضرار الشرِّ للناس واجب وإن كانوا أصدقاء مقربين ، فعدوه وصديقه عنده سيان ، يقول :

{ مجزوء الكامل }

لَا تَخَفَنَّ بِمَنْ لَحَا	كَ عَلَى هَوَاكَ وَلَا تُبَلِّ
لَا تُضْمِرَنَّ إِلَى الَّذِي	صَاحِبَتُهُ إِلَّا الدَّخْلُ
وَأَجِبْ إِذَا عَطَسَ النَّـ	ـدِيمُ بِذَنْبِهِ وَإِذَا سَعَلَ
سَيَّانَ عَنْدَكَ فَلْيَكُنْ	مَنْ لَمْ يَصْلُكَ وَمَنْ وَصَلَ ²

ويظهر في الأبيات السابقة تعريض أبي نواس بالحديث الشريف الذي يدعو إلى تسميت العاطس ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمَّتْهُ " ³ ، إلا أن أبا نواس يوصي بخلاف ذلك ؛ فهو يريد أن يُذبح النديم إذا عطس أو سعل ، لأنَّ في ذلك إفسادٌ لجلسة الخمر ، وهذه قيمٌ لم تكن حتى عند الجاهليين .

لقد واجه أبو نواس مجتمعه بسلبية مطلقة ، غصت بمعاني الشرِّ والخبث والغدر ، والحثُّ على قبح التعامل فأشهر سيفه في وجه الحق ، فبات صعلوكًا يظهر للناس خلاف ما يبطن ، ويقدم لهم أمانًا يقودهم للوقوع في شركه ، فيقول :

¹ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 104 .

² المصدر السابق ، ص 105 .

³ النووي ، محي الدين بن يحيى بن شرف : منهل الواردين شرح رياض الصالحين ، ضبطه ووضع شرحه وصنع فهرسه : صبحي الصالح ، ط 5 ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، 1977 م ، ص 545 .

{ مجزوء الكامل }

وَإِذَا أَبْـأَكَّ غَشَشْتُـهُ
فَمِنْ الْغَرِيبِ فَلَا تَسَلْ
وَاشْهَرْ بِسَيْفِكَ مَصَلَاتَا
وَاقْطَعْ عَلَى النَّاسِ السُّبُلْ
وَاضْمَرْ لَهُمْ سُومًا وَهَبْ
لَهُمْ مِنَ الْقَوْلِ الْعَسَلْ
حَتَّى إِذَا أَمْنُوكَ مِنْ
جَهْلٍ وَمِثْلَهُمْ جَهْلْ
فَاقْتُلْهُمْ وَاصْلُحْ لَهُمْ
جَمْعًا عَلَى أَعْلَى دُقْل¹

بنى النواصي لنفسه عالمًا أخلاقيًا خاصًا احتلت فيه مفرداته بعدًا مغايرًا لما هي عليه في الواقع ؛ ذاك أن الشاعر أخضع تفاصيل حياته لسطوة الخمر ، وأراد إيجاد مسوِّغ لتصرفاته مع ندماء المدام وبائعيه فاجتهد في وصفهم ، والحديث عنهم ، ومدح خلائهم ، وخلع عليهم أفضل الصفات فلن يأتي الدهر بمثلهم .

وقد يصل المطلع على شعر النواصي إلى نقطة تدعو للدهشة من كون الشاعر قادرًا على عرض صورة مناقضة للصورة الحقيقية الماثلة في أذهان الناس لأصدقاء السوء و أصحاب الحانات ورفقاء الدساكر وسقاة الخمر ، فهم في نظره فتیان صدق ، ولهم و لشرابهم حقوق على معاشريهم ومنادميهم فالنديم هو الأحق بالبر كما يظهر في قوله :

{ الوافر }

وَلَسْتُ بِقَائِلٍ لِنَدِيمِ صَدَقِ
وَقَدْ أَخَذَ الشَّرَابُ بِمُقَلَّتِيهِ
تَنَاوَلُهَا ، وَإِلَّا لَمْ أَدْفُهَا
فَيَأْخُذْهَا وَقَدْ ثَقُلْتُ عَلَيْهِ²

وصاحب الخمارة هو الأولى أن تُردَّ أمانته ويُوفى دينه ، وهذا ما نصَّ عليه إبليس في فتواه التي أوردها أبو نواس في قوله :

{ الكامل }

قُلْتُ : الْأَمَانَةُ هَلْ تُرَدُّ ؟ فَقَالَ لِي :
لَا هُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُضْمَمًا
لَا تَرُدُّ الْقِطْمِيرَ مِنْ قِنْطَارِ
دَيْنًا لِصَاحِبِ حَانَةِ خَمَارِ

¹ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 104 ، 105 .

² ابن منظور : أبو نواس ، ص 184 .

فَارْزُدْ أَمَانَتَهُ عَلَيْهِ ، وَدَيْنَهُ وَاحْتَلْ لِدَاكَ ، وَلَوْ بَيْعِ إِزَارٍ¹

وَلَكَّ أَنْ تَتَخِيلَ اجْتِمَاعَ الشَّاعِرِ وَصَحْبِهِ فِي مَجْلِسٍ لِلشَّرَابِ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَأَيِّ مَجْلِسٍ ، لِأَنْ سَمَّاهُ أَلْزَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِآدَابٍ اسْتَقَوْهَا مِنْ مَعْشُوقَتِهِمُ الَّتِي تَحْمِلُ الطَّيِّبَ وَالسَّرُورَ ، فَيَقُولُ وَاصِفًا بَعْضَ تِلْكَ الْآدَابِ :

{ الكامل }

نَفْسُ الْمُدَامَةِ أَطْيَبُ الْأَنْفَاسِ	أَهْلًا بِمَنْ يَحْمِيهِ مِنْ أَنْجَاسِ
فَإِذَا خَلَوْتَ بِشُرْبِهَا فِي مَجْلِسِ	فَاكْخُفْ لِسَانَكَ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ
فِي الْكَأْسِ مِشْغَلَةٌ وَفِي لَذَائِهَا	فَاَجْعَلْ حَدِيثَكَ كُلَّهُ فِي الْكَاسِ
صَفْوُ التَّعَاشُرِ فِي مُجَانِبَةِ الْأَذَى	وَعَلَى اللَّبِيبِ تَخْيِيرُ الْجُلَاسِ ²

وَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ قَدْ اخْتَارَ رَفَقَاءَ مَجْلِسِهِ بَعْنَايَةً فَقَدْ اسْتَطَاعَ بِحَذَقِهِ وَبِرَاعَتِهِ الشَّعْرِيَّةِ تَلْخِصَ حَقُوقِهِمْ بِقَوْلِهِ :

{ الوافر }

حَقُوقُ الْكَأْسِ وَالنَّدَمَانِ خَمْسُ:	فَأَوَّلُهَا التَّزْيِينُ بِالْوَقَارِ
وِثَانِيهَا مُسَامَحَةُ النَّدَامِ	وَكَمْ حَمَتِ السَّمَاحَةَ مِنْ ذِمَارِ
وِثَالِثُهَا وَإِنْ كُنْتَ ابْنُ خَيْرِ الْـ	بَرِيَّةٍ مَخْتَدًا ، تَرْكُ الْفَخَارِ
وَرَابِعُهَا فَلِلنَّدَمَانِ حَقٌّ	سِوَى حَقِّ الْقَرَابَةِ وَالْجَوَارِ
إِذَا حَدَّثْتَهُ فَأكْسُ الْحَدِيثِ الْـ	الَّذِي حَدَّثْتَهُ ثُوبَ اخْتِصَارِ
وْخَامِسُهَا يَدِلُّ بِهِ أَخُوهُ	عَلَى كَرَمِ الطَّبِيعَةِ وَالنَّجَارِ
كَلَامُ اللَّيْلِ يَنْسَاهُ نَهَارًا	فَإِنَّ الذَّنْبَ فِيهِ لِلْعَفَّارِ
فَإِنْ حَكَمْتَ كَأْسَكَ فِيهِ فَاحْكُمْ	لَهُ بِأَقَالَةٍ عِنْدَ الْعِثَارِ ³

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 201 .

² المصدر السابق : ص 221 .

³ ابن منظور : أبو نواس ، ص 185 .

فانظر كيف دعا أبو نواس ندماء العقار إلى التزيّن بالوقار والمسامحة والتواضع ، بل والتزام حق القرابة والجوار إضافة إلى التغاضي عن هفوات النديم وزلاته التي أظهرها المدام ، في صورة مختلفة كلّ الاختلاف عمّا كان قد صرّح به في قوله :

{ مجزوء الكامل }

وَإِذَا أَخْ يَوْمًا بِهِ	عَثَرَ الزَّمانُ فَلَا تُقْل
وَاجْعَلْ يَدَاكَ عَلَى التِّي	مَلَكَتْ يَدَاَهُ بِالْحِيَلِ
لَا تُضْمِرَنَّ إِلَى الَّذِي	صَاحِبَتُهُ إِلَّا الدَّخْلُ ¹

فهذا عالمُ الشّاعر ، وليس عالمُ النَّاسِ ، ولذلك وضع فيه ما كان يرفض وضّعه في عالم النَّاسِ لأنّه وندماءه أولى من غيرهم بالفضيلة .

وقد بلغ به الأمر أن يطلب الاعتداء على حرمة الموت ، فيقول متمردًا على القيم الإنسانية التي تدعو إلى إكرام الميت بدفنه :

{ المتقارب }

أَخْوِكَ أَخْوِكَ دَاوُعُ الْغِيُونِ	فَإِنْ غَابَ فَاغْدُزْ لَهُ واقْنَعِ
وَإِنْ مَاتَ فَانْبُشْهُ مِنْ قَبْرِهِ	وَأَكْفَأْنِهُ جَعْدًا فَاَنْتَرَعِ
وَصَلِّ عَلَيْهِ بِلُغْنٍ عَلَيْهِ	وَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ فَلَا تَرْجِعْ ²

ولكنّه في المقابل ألقى على ندمائه حلية زانها بأنبل الأخلاق فهم أصحاب أنفة وعزّة وشجاعة ومروءة ، يقهرون الظّلام بضوء وجوههم ، ولا يعبؤون بدورانية الزّمان ، ويفرضون سطوتهم عليه فيخشاهم ويحقق رغباتهم ، لأنّ حبّهم موصول بلهوهم الذي بعد عن التّشتت والانكسار³ ، وفيهم يقول أبو نواس :

{ البسيط }

وَفَتِيَّةٌ كَمَصَابِيحِ الدُّجَا غُرِرِ شُمُّ الْأُنُوفِ ، مِنْ الصَّيْدِ الْمَصَالِي

¹ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 104 – ص 105 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 109 .

³ ينظر : الخلايلة ، محمد خليل : قراءة في قصيدة أبي نواس ، ص 505 . نافع ، عبد الفتاح : الشعر العباسي قضايا وظواهر ، ص 168 ، ص 169 .

صَالُوا عَلَى الدَّهْرِ بِاللَّهِ الَّذِي وَصَلُوا فَلَيْسَ حَافِظُهُمْ مِنْهُ بِمَبْتُوتٍ
دَارَ الزَّمَانِ بِأَفْلَاكِ السُّعُودِ لَهُمْ وَعَاجَ يَحْنُو عَلَيْهِمْ عَاطِفَ اللَّيْلِ¹
ويقول :

{ البسيط }

دَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءُوا²
كما وفي وجوههم من السَّماحة ما يَفْرَجُ الهم ويزيل الغم ، يقول :

{ البسيط }

وَفِتْيَةٍ كَنُجُومِ اللَّيْلِ أَوْجُهُهُمْ مِنْ كُلِّ أَغْيَدٍ لِلْغَمِّاءِ فَرَّاجُ³
وهم بعيدون على المرء ، أصحاب طهر وصدق ورأي سديد ، يقول :

{ المنسرح }

وَفِتْيَةٍ لَا الْمَرَاءَ يَشْمَلُهُمْ زَكُوا فَعَالًا مَعًا وَمُنْتَسِبًا⁴
ويقول :

{ الطويل }

وَالْقَوْمُ إِخْوَانُ صِدْقٍ بَيْنَهُمْ نَسَبٌ مِنَ الْمَوَدَّةِ مَا يَرْقَى لَهُ نَسَبٌ
تَرَضُّعُوا دُرَّةَ الصَّهْبَاءِ بَيْنَهُمْ وَأَوْجَبُوا لِنَدِيمِ الْكَاسِ مَا يَجِبُ
لَا يَحْفَظُونَ عَلَى السَّكْرَانِ زَلَّتْهُ وَلَا يَرِيْبُكَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ رَيْبُ⁵

فكان لزامًا على الشاعر أن يزهو بندمائه لالتقائه معهم في نسب واحد ، فهم جميعًا من صنع الصَّهْبَاءِ التي غرست فيهم قيمًا وأخلاقًا ارتقت بهم ، وميزتهم عن أبناء زمانهم⁶ ، ولذا ترى صاحبة الخمارة ترحب بهم ، فليس بينهم ناقص عقلٍ أو صغير سن ، ويثبت ذلك قول الشاعر :

{ البسيط }

وَالْقَوْمُ إِخْوَانُ صِدْقٍ بَيْنَهُمْ نَسَبٌ مِنَ الْمَوَدَّةِ مَا يَرْقَى لَهُ نَسَبٌ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 38 .

² المصدر السابق : ص 6 .

³ المصدر السابق : ص 48 .

⁴ المصدر السابق : ص 50 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 49. والأقن : ضعف العقل أو الزَّاي .

⁶ ينظر : الخلايلة ، محمد خليل : قراءة في قصيدة أبي نواس التي مطلعها " وفتية كمصابيح الدجى غرر " ، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، م 34 ، ع 3 ، عمادة البحث العلمي ، الجامعة الأردنية ، 2007 م ، ص 505 .

تراضَعُوا دُرَّةَ الصَّهْبَاءِ بَيْنَهُمْ وَأَوْجَبُوا لِنَدِيمِ الْكَأْسِ مَا يَجِبُ
لا يحفظون على السَّكران زَلَّتْهُ ولا يريُّكَ من أخلاقهم ريب¹

واتصل رفقاء الشَّراب بأسباب المعالي فغدوا شرفاء في قومهم كرامًا في فعالهم، ويقول:

{ الوافر }

ومتَّصِلٍ بِأسباب المعالي له في كلِّ مَكْرَمَةٍ قَدِيمٌ²
واختصَّ أبو نواس خلَّانه بالسَّخاء والجود، فلا يستحقُّ لَذَّةَ الخمر إلَّا من انتمى إليها،
وأخلص لرفقائها، فيقول:

{ المجتث }

اخترتُ إخوة صدق من خَيْرِ هذي العبادِ
شريفٌ ابن شريفٍ جوادٌ بن جوادِ
فقلت لـذوا ، بنفسِي أفديكم وفـؤادي
والهـوا نهـارًا وليـلاً إلى نداء المنادي³

ولا تقدم الخمر للبخیل لنعيم الطَّبع ، ولا للسفيه دنس الأخلاق ، وفي هذا يقول الشَّاعر :

{ الوافر }

ولا تَسْقِ المدام فتًى لنيِّمًا فليستُ أَجِلُ هذي للنَّعيمِ
لأنَّ الكَرَمَ مِنْ كَرَمٍ وَجودِ وماءُ الكَرَمِ لِلرَّجُلِ الْكَرِيمِ
ونادِمٍ إن شَرِبْتَ أَخا مَعَالٍ فإنَّ الشُّرْبَ يَجْمُلُ بِالْقُرُومِ
وإنَّ المَرَّةَ يَصْحَبُ كُلَّ جِيلٍ ويُنسَبُ في المدام إلى النَّدِيمِ⁴

ولا يشربها إلَّا أصيل أتلِف ماله لأجلها فحرمت على غيره ، فيقول :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 192 .

² المصدر السابق : ص 55 . وينظر : ص 75 .

³ المصدر السابق : ص 154 .

⁴ المصدر السابق : ص 144 .

{ البسيط }

يَا قَهْوَةً حُرِّمَتْ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ أَثَرَى ، فَأَتْلَفَ فِيهَا الْمَالَ وَالنَّشَابَ¹

وتترفع الصهباء عن المجوس واليهود وعبد الصلبان ، وتترزه نفسها عن الأراذل الذين لا يلتزمون أدب المنادمة ، فيقول :

{ البسيط }

لَا تُمَكِّنَنِّي مِنَ الْعَزِيدِ يَشْرِبُنِي وَلَا اللَّئِيمَ الَّذِي إِنَّ شَمَنِي قَطَبَا
وَلَا الْمَجُوسَ ، فَإِنَّ النَّارَ رُبُّهُمْ وَلَا الْيَهُودَ ، وَلَا مَنْ يَعْبُدُ الصُّلْبَا
وَلَا السَّفَالَ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ ، وَلَا غِرَّ الشَّبَابِ ، وَلَا مَنْ يَجْهَلُ الْأَدْبَا
وَلَا الْأَرَاذِلَ ، إِلَّا مَنْ يُوَفِّرُنِي مِنَ السُّقَاةِ .. وَلَكِنْ اسْقِنِي الْعَرَبَا²

لقد حطّم أبو نواس كثيراً من القيم والأخلاق في سبيل إثبات تفوقه وصحبه على مجتمهم وثوابته، وانتهت صورة عصابة السوء إلى صورة مضادة لما عرف عنها في أي عرف أو تقليد، فهم صادقون في نواياهم ، مخلصون لمعشوقتهم³، ولهم من دماثة الخلق ما يظهرهم كبقعة مضيئة تبدد ظلم هواجس حاكت في نفس أبي نواس يعود السبب في وجودها إلى الدهر وتقلباته⁴
فكان حقاً على الشاعر أن يفخر بهم ، ويعلي من أخلاقهم ويحطّ من أخلاق غيرهم ، مقاوماً السّخط والإنكار ، ومواجهاً مجتمعه بحجج دامغة ، معلناً حاجة الجميع إلى سلوك سبيل التجديد ؛ التجديد في كلّ شيء⁵، فليس لفضاء الشاعر حدود ، ولا تخضع ثورته لقيود ، وهذا ما جعله يدعو معاصريه إلى الاعتراف بحياتهم ، وبما يعالج صدورهم ، وحملهم على الاستجابة لدواعي الحاضر وتلبية أحكامه ومقتضياته⁶ .

فثورة أبي نواس في مجملها ثورة على التقليد الذي يحدّ من طاقات الإبداع ويهدف لردم الذات الخلاقة الحرّة ، فلم يبال الشاعر في كون ذاك التقليد من الثوابت الدينية التي يعدّ الخروج

¹ أبو نواس: الديوان، ص 92 .

² المصدر السابق : ص 92 .

³ ينظر : التطاوي ، عبد الله : القصيدة العربية قضايا واتجاهات ، دار المعارف، القاهرة، ص 139 .

⁴ ينظر : الخلايلة ، محمد خليل : قراءة في قصيدة أبي نواس ، ص 505 .

⁵ ينظر : حسين ، طه : حديث الأريعاء ، ص 97 .

⁶ ينظر : خريس ، حسين : حركة الشعر العباسي في مجال التجديد ، ج 2 ، ص 17 .

عنها كفرةً ، فكأنه يقترب من ذهب الوجوديين الذين ينادون بالحرية المطلقة ، والسّماح للإنسان بالاسترسال في أهوائه ¹ ، ولعل مرد ذلك إلى الزّمن الخاص بالشاعر حيث تستباح الخطيئة للتخلص من ثقل الموروث ، وعبء الحياة ، فيراوح الشّاعر بين الرّغبات العليا للنفس ، ويتوصل إليها بالخطيئة التي تغدو رمزاً للحرية والتّمرد والخلّاص ² ، وهذا ما جعل أبا نواس يتباهى بارتكاب خطيئته ، لأن نفسه تأبى أن تقنع إلاّ بكلّ شيء حرام ، ويحقق ذاته بهتك السّتر عن الخطيئة التي تكشف عن المكبوت وتحقق مافي أعماقه ، فهو يعترف بالخطيئة لتغدو حرّيته أكثر اكتمالاً ³ ، وإن كان قادرا على المراوغة - أحياناً - بمزاجته بين مجونه وطيب خلقه حيث يقول :

{ المنسرح }

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ مَاجِنًا خَرَقًا لَا يَخْطُرُ النَّسْكَ لِي عَلَى بَالٍ
لَسْتُ حَيَاءً ، وَذُو مَحَافِظَةٍ مُبْتَاعِ حَمْدِ الرِّجَالِ بِالْغَالِي
فَإِنْ دَنَسَ الْمَالُ عَرَضَ ذِي شَرَفٍ فَإِنَّ عَرَضِي يُصَانُ بِالْمَالِ ⁴

إنّ " الإنسان النّوّاسي هو الإنسان العائش مع ذاته ، المتّخذ من العالم كله مجالاً لتوكيد ذاته ، السّاخر من القيم العامة النّهائية ، ومن القائلين بها والمقيمين عليها ، إنّه الإنسان الذي لا يواجه الله بدين الجماعة ، وإنّما يواجهه بدينه هو ، وببراءته هو ، وخطيئته هو ... ، فهو أكمل نموذج للحدثاة " ⁵ .

ثالثاً - زهد أبي نواس

لا غرو أن يكون الحديث عن زهد أبي نواس مناط تشكيك عند الباحثين والنّقاد ⁶ ؛ فقد أضاع الشاعر نفسه في سراديب اللذات والمجون ، وخاض بحور المنكر ، وقرع أبواب المحرّمات فأخذ منها أوفر حظّ ونصيب ، وكان لا يرعوي عن تحدي الشّرائع والأعراف فبات شاعراً للخطيئة ،

¹ ينظر : مغنية ، محمد جواد : فلسفة الأخلاق في الإسلام ، ص 40 .

² ينظر : الزّعيم ، أحلام : أبو نواس بين العبث والاعتراّب والتّمرد ، ص 123 ، ص 132 . و أدونيس : مقدّمة للشعر العربي ، ط3 ، دار العودة ، بيروت ، ص 53 .

³ ينظر : العشماوي ، محمد زكي : موقف الشعر من الفن والحياة في الأدب العباسي ، ص 202 - ص 203 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 142 .

⁵ أدونيس : مقدّمة للشعر العربي ، ص 53 .

⁶ ينظر : الباجوري ، محمد عبد الدايم : عرضيّة الزهد واتجاهاته في شعر أبي نواس ، فكر وإبداع ، ص 237 .

موسومًا بها وهي موسومة به ، كأنهما وجهان لعملة واحدة ، فكيف للمتأمل في صفحات ديوانه أن يقنع بأن شاعر الخطيئة نفسه قد غدا باحثًا عن الغفران ، يغذّ الخطأ إلى التوبة بالزهد في طيبات الحياة ، وإظهار زفريات حزى من الندم ولوم النفس على ما كان ؟؟

ولعل تساؤلات كثيرة تتبادر إلى الذهن لدى مقارنة باب زهد أبي نواس بأبواب ديوانه الأخرى ؛ فهل كان شعره الزاهد نوبة طارئة ، أم إذعانًا يائسًا تجرّعه عندما تقدمت به السنون¹ ؟ أم هو تيقظ للضمير وصحوة متأخرة تسببت عن مرضه الذي أقعده عما كان يرتكبه من إثم ورجس² ؟ أم أنّ زهدياته ليست إلّا أنغامًا بات يرددّها من حين لآخر ، يدعو فيها إلى الإنصراف عن الشهوات ومتاع الدنيا الزائل ، والإعداد للآخرة بالتقى والعمل الصالح³ ، كردّة فعل طبيعية لأيّ إنسان أشبع نفسه فسقًا وخلاعة وزندقة في أيام فتوته وشبابه ، وما لبث أن رأى نفسه وحيدًا يعاني الوحشة بانصراف رفقاءه ، فلا يجد حيلة سوى التضرّع إلى السماء بأهات خاشعة ، وتوبة خالصة⁴ ؟

يقول :

{ الوافر }

فإني قد شَبِعْتُ مِنَ الْمَعَاصِي وَمِنْ لَذَاتِهَا وَشَبِعَنْ مَنِي
وَمَنْ أَسْأَوْا ، وَأَفْبَحُ مِنْ لَبِيبٍ يُرَى مُتَطَرِّبًا فِي مِثْلِ سِنِّي⁵

ترى هل أناب أبو نواس في توبته وصدق في توسله للرحمة ورجائه للمغفرة ، أم أنّه أراد أن يغدو نموذجًا فريدًا بتقاطعاته المختلفة ؟ فقد استعصت شخصيّة أبي نواس على الالتزام بالحدود الدينية والأخلاقية ، ولربما استعصت عليها الحدود الدينية والأخلاقية فوجدت نفسها فريسة للشكّ والمجون⁶ بما هيئ لها من فساد وانحلال خلقي، فلم يعد بوسعها التراجع عن طريق الضلال

¹ ينظر : الموافي ، محمد عبد العزيز : أبو نواس الزاهد ، مجلة جذور ، م 8 ، ج 5 ، 2003 م ، ص 171 .

² ينظر : الشكعة ، مصطفى : الشعر والشعراء في العصر العباسي الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1975 م ، ص 210 .

³ ينظر : ضيف ، شوقي : العصر العباسي الأول ، ص 237 .

⁴ ينظر : هدّارة ، مصطفى : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ، ص 315 - 316 . و شرف الدين ، خليل : أبو نواس ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، 1984 م ، ص 63 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 617 .

⁶ ينظر : حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 55 .

والعودة إلى جادة الحق فلجأ إلى التفاف ؛ وقد يعزز هذا الرأي ماذرته الشاعر من عبرات ، وما لفظه من زفرات زالت بزوال الموقف الذي ابتدرت فيه ، فعاد بعدها إلى ضلاله الذي لم يستطع عنه صبراً¹ .

ولكنّ الشاعر لم يلجأ إلى الرّياء ليخفي موبقاته وآثامه بل جاهر مجتمعه بها بافتضاح ، فلماذا يلجأ إليه عند زهده وتبتله ؟! فهو لم يحمل نفسه يوماً مشقة لوم أو عيب عتاب .

ولقد بدا النّواسي في نظر عبد الرحمن صدقي صاحب خيال مريض يدفعه إلى الاستغراق في نزعاته الغريزية ، فيتصور أموراً لا يقدر عليها ويخلط بين الوهم والحقيقة² ؛ ولذلك قيل بأنّ أكثر مجونه كان من باب اللغو الذي لم يصل إلى درجة التّحقق ، ولم يتجاوز حدود الخيال³ ، وأنّ للشاعر وجداناً رقيقاً كان يسوقه إلى الاعتراف بسوء عمله ، والنّدم على ما فات ، فليس له من دون الله مفر ، فيقول مستجيراً :

{ الوافر }

وَأَنْتَ السَّيِّدُ الْمَوْلَى الْغَفُورُ	أَنَا الْعَبْدُ الْمُقَرُّ بِكُلِّ ذَنْبٍ
وَأَنْ تَغْفِرَ فَأَنْتَ بِهِ جَدِيرُ	فَإِنْ عَذَّبْتَنِي فَبِسُوءِ فِعْلِي
إِلَيْكَ يَفِرُّ مِنْكَ الْمُسْتَجِيرُ ⁴	أَفِرُّ إِلَيْكَ مِنْكَ .. وَأَيْنَ إِلَّا

وقد يعود زهد أبي نواس إلى فلسفته الخاصة مع الحياة ، وهي " أنّ الحياة شيء ليس بذی خطر ، لم ينشأ من خير ، ولن ينتهي إلى خير ، فلنقض في لعب ولهو ، أو فلنقض في حكمة وزهد " ⁵ ، وهذا ما يفسّر ازدراء أبي نواس للحياة ، وسخريته منها باقتحام اللذات والنّهم من المتع دون مبالاة بالخطايا⁶ ، فالشاعر ازدرى أصول الإسلام وقواعده ، وتمادى في تجاوز حدوده ،

¹ ينظر : صدقي ، عبد الرحمن : أبو نواس ، ص 255 .

² ينظر : المرجع السابق : ص 254 .

³ ينظر : الباجوري ، محمد عبد الدّائم : عرضة الزّهد واتجاهاته في شعر أبي نواس ، ص 254 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 610 .

⁵ حسين ، طه : حديث الأربعاء ، ج 2 ، ص 138 .

⁶ المرجع السابق : ص 137 - 138 .

ولم يكن من الذين عملوا السوء بجهالة ، بل فعله عن سابق إصرار وترصد ، وولغ في الحرام حتى أذنيه ¹ ، ولكنه كان يقرّ به ويعترف بقبحه فيقول :

{ الرجز }

يَارَبِّ إِنِّ عَظُمْتُ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنِّ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يَلُودُ ، وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ²

واعتقد بعض الدارسين أنّ زهد أبي نواس ليس سوى شعر منحول نسبته إليه زهّاد ذلك العصر حتّى على العظة والاعتبار ، فكأنّهم يدعون إلى تأمل الحال الذي آل إليه الشاعر بعد إغراقه في الغيِّ والمجون ، حيث لم يكن سوى النّدم ، ولم يحصد غير الحسرة ، فإذا به يعضّ على يديه لما فرط في جنب ربه عندما لم يجد أمامه غير باب التّوبة فاستغفر وأتاب ³ .

وقد ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك حين نسبوا زهديات النّوادي إلى أبي العتاهية زعماً منهم بأنّها تحاكيها في أنغامها ومعانيها وحسّها الشعري ⁴ ، في محاولة لإبعاد النّسك عن شاعر برع برع في المجون والخمر ، وغالى بالاستخفاف بالشرع والفقهاء والعلماء ⁵ ، وأياً كانت محاولاتهم ومهما اختلفت آراؤهم فهم ليسوا قادرين على نفي زهد أبي نواس نفياً مطلقاً ؛ فكما كان مجون الشاعر حقيقة واقعة فإنّ زهده كان كذلك ⁶ ، فالمجون والزّهد تياران متضادّان ، ولكنّ أحدهما يزداد يزداد بازدياد الآخر ؛ فكلّما زاد التّماذي في المجون زاد اليقين بحتمية التّوبة ، والعكس صحيح ، إضافة إلى أنّ الظروف المؤدية للانحراف قد تكون عينها المؤدية للتّوبة والإنابة ⁷ .

¹ ينظر : الساريسي ، عبد الرحمن : توبة أبي نواس ، مجلة هدي الإسلام ، م 54 ، ع 3 ، 2010 م ، ص 103 - ص 104 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 618 .

³ ينظر : الموافي ، عبد العزيز : أبو نواس الزّاهد ، ص 172 . و الزبيدي ، علي أحمد : زهد أبي نواس ، مطبعة كوستانتسوماس وشركاه ، القاهرة ، 1959 م ، ص 24 - ص 25 .

⁴ ينظر : إسماعيل ، عز الدين : في الأدب العباسي الرؤية والفن ، ص 309 .

⁵ ينظر : الزبيدي ، علي أحمد : زهديات أبي نواس ، ص 25 .

⁶ ينظر : الموافي ، عبد العزيز : أبو نواس الزّاهد ، ص 174 .

⁷ ينظر : إسماعيل ، عز الدين : في الأدب العباسي الرؤية والفن ، ص 209 . و الباجوري ، محمد عبد الدايم : عرضيّة الزّهد ، ص 251 .

وقد يميل المتأمل في زهديات أبي نواس إلى القول بأنها تشكل جزءاً من انقلابه وتمرده الذي أضى سمة لا تفارقه ، لكنّه في هذه المرّة منقلب على ذاته ، رافض لما بدر منها من فحش معترضٌ على ما أباحته له من رذائل ، فإذا به يقف وقفات طويلة أمام قضية الفناء ، ويضجّ بقضية المصير الإنساني ، ويمحصّ النظر بالموت والقبر¹ ، فيقول :

{ مجزوء الخفيف }

تَسْبِقُ اللَّمَحُ بِالْبَصَرِ	إِنَّ لِلْمَوْتِ أَخْذَةً
فِي ثِيَابٍ مِنْ " الْمَدَرِ "	فَكَأَنِّي بِكُمْ غَدًا
رِإْسِي ظِلْمَةٌ الْخَفَرِ	قَدْ نُقِلْتُ مِنْ الْقُصُوفِ
عَلَى يَدَيْكُمْ ، وَلَا الْحَبَرِ	حَيْثُ لَا تُضَرُّ الْقَبَابِ
لَهَا لِلَّهِ وَلَا سَمَرُ ²	حَيْثُ لَا تَطْهَرُونَ فِيهِ

وتراه في مقطوعة أخرى يتذكر ذنوبه فيعاتب نفسه عتاباً قاسياً مذكراً إياها بالقيامة وأهوالها وأشراتها ، حيث يقول :

{ المتقارب }

وَلَمْ تَأَلْ جُهْدًا لِمَرْضَاتِهَا	رَضِيتَ لِنَفْسِكَ سَوَاتِهَا
وَصَغُرَتْ أَكْبَرُ زَلَّاتِهَا	وَحَسَنْتَ أَقْبَحَ أَعْمَالِهَا
سَلَكْتَ سَبِيلَ غَوَايَاتِهَا	وَكَمْ مِنْ طَرِيقٍ لِأَهْلِ الصَّبَا
وَلَمْ تَجِرْ فِي طُرُقِ لَذَاتِهَا	فَأَيُّ دَوَاعِي الْهَوَى عَفَّتْهَا
وَأَيُّ الْفَضَائِحِ لَمْ تَأْتِهَا	وَأَيُّ الْمَحَارِمِ لَمْ تَنْتَهِكْ
تَرِيكَ مَخَاوِفَ فُرْعَاتِهَا	وَهَذِي الْقِيَامَةُ قَدْ أَشْرَفَتْ
وَأَهْوَالِهَا فَازَعَ لَوَاعَاتِهَا ³	وَقَدْ أَقْبَلَتْ بِمَوَاعِيدِهَا

وليس ذلك فحسب ؛ فالشاعر يتحسّر على الأيام التي أفناها بالذنوب والمعاصي ، ويتخوّف من شدة الحساب عليها عندما يؤوب إلى ربّه ، فيقول :

¹ ينظر : الموافي ، عبد العزيز : أبو نواس الزاهد ، ص 171 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 612 .

³ المصدر السابق: ص 611 .

{ الكامل }

وَأَفْنَيْتَ عُمْرَكَ وَالذُّنُوبُ تَزِيدُ	وَالكَاتِبُ الْمُخْصِي عَلَيْكَ شَهِيدُ
كَمْ قُلْتُ لَسْتُ بِعَائِدٍ فِي سَوْءَةٍ	وَنَذَرْتُ فِيهَا ثُمَّ صَرْتُ تَعُودُ
حَتَّى مَتَى لَا تَرْعَوِي عَنْ لَذَّةٍ	وَحِسَابُهَا يَوْمَ الْحِسَابِ شَدِيدُ
وَكَأَنَّنِي بِكَ قَدْ أَتَيْتُكَ مِنْيَّةً	لَا شَكَّ أَنَّ سَبِيلَهَا مَوْرُودُ ¹

وارتدى أبو نواس ثياب الواعظين ، وتحول من محرّض للغيّ والفجور إلى أمر بالمعروف ونهيه عن المنكر ، ومحدّر من مكر الدنيا وسوء عاقبتها ، فيقول :

{ البسيط }

لَا تَفْرُغِ النَّفْسُ مِنْ شُغْلٍ بِدُنْيَاهَا	رَأَيْتُهَا لَمْ يَنْلُهَا مَنْ تَمَنَّاها
إِنَّا لَنَنْفُسُ مِنْ دُنْيَا مُؤَلِّيَةٍ	وَنَحْنُ قَدْ نَكْتَفِي مِنْهَا بِأَذْنَاهَا
يَا رَاكِبَ الذَّنْبِ قَدْ شَابَتْ مَفَارِقُهُ	أَمَا تَخَافُ مِنَ الْأَيَّامِ عُقْبَاهَا ²

ولقد حاول الشاعر فيما مضى ثني نفسه عن المعاصي وتقريعها عن الزلات ، ولكن شيطانه كان يزيّن له الانغماس فيها ، فتراه يلوم نفسه خائفاً من مباغتة الموت قبل التوبة ، وتراه يدعو إلى التماس الفضائل والعودة إلى طريق الله لأنه طريق النجاة من أهوال العذاب ، يقول :

{ مجزوء الوافر }

سَهْوْتُ وَغَرَّنِي أَمَلِي	وَقَدْ قَصَّصْتُ فِي عَمَلِي
وَمَنْزِلَةٍ خُلِفْتُ لَهَا	جَعَلْتُ لِغَيْرِهَا شُغْلِي
يَظْلُ الدَّهْرُ يَطْلُبُنِي	وَيُنَحِّنُونِي عَلَى عَجَلِ
فَأَيَّامِي تَقْرُبُنِي	وَتَذْنِينِي إِلَى أَجَلِي ³

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 619 .

² المصدر السابق : ص 613 .

³ المصدر السابق : ص 614 .

وقد يقع القارئ لشعر أبي نواس في حيرة مردّها إلى تصدع ذات الشاعر وانشقاقها عن نفسها وعن العالم المحيط بها ¹ ؛ حيث بدا النّواسي في زهدياته إنساناً مختلفاً بفكره وسلوكه وعاطفته ، وغدا صاحب حكمة مشفوعة بالتّجريب والموعظة ² ، فانظر إلى قوله :

{ الطويل }

أرى كلّ حيٍّ هالِكًا وابنَ هالِكٍ	وذا نسبٍ في الهالكين عريق
فقلّ لقريب الدّار إنَّكَ ظاعِنٌ	إلى منزلٍ نائي المحلّ سَحِيق
إذا امتحن الدُّنيا لبيب تكشّفت	له عن عدوٍ في ثيابِ صديق ³

إذ يؤكد الشاعر على أنّ الهلاك هو مصير كلّ حيٍّ، فلا راحة في الدُّنيا، ولا نجاة من الموت، ولا عاصم من أمر الله ، ولذلك أكثر النّواسي من زجر نفسه على ما فرطت في جنب الله، وحثّها على التّوقر والتّجمل فإنّ كانت ذنوبها عظيمة فإنّ عفو الله أكبر وأعظم، وما عليها سوى التّصبر والامتنال لما قضى الله وقدر، يقول:

{ مجزوء الرمل }

يا نواسي تَوَقَّرْ	وتجمَّـلْ وتَصَبَّرْ
سَاءَ لَكَ الدَّهْرُ بِشَيْءٍ	وبمّا سَرَّكَ أَكْثَرُ
يا كبيرَ الذَّنْبِ ، عَفُوا	لِلَّهِ مِنْ ذُنُوبِكَ أَكْبَرُ
أَكْبَرُ الْأَشْيَاءِ عَنْ أَصْـ	غَرِّ عَفْوِ اللَّهِ أَصْغَرُ
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا	مَا قَضَى اللَّهُ وَقَدَّرَ
لَيْسَ لِلْمُخْلِوقِ تَدْبِيرُ	يُرِّبُ بِلِ اللَّهِ الْمُدَبِّرُ ⁴

واعتمد أبو نواس على عفو الله وكرمه ، واستشهد بما حفظه من كتاب الله في قوله تعالى : " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا

¹ ينظر : نافع ، عبد الفتاح : الشعر العربي قضايا وظواهر ، ص 79 . و الزّعيم ، أحلام : أبو نواس بين العبث والاعتراب والتمرد ، ص 67 .

² ينظر : الباجوري ، محمد عبد الدايم : عرضيّة الزهد واتجاهاته في شعر أبي نواس ، ص 277 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 621 .

⁴ المصدر السابق : ص 630 .

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " 1 ، فرجا المغفرة على التفريط والإساءة ، فقد تساقطت ورققات عمره ، وأخذ الشَّيب بالشباب ، فاقتربت ساعة الموت ، ولم يعد هناك طريق للخلاص ، يقول :

{ الخفيف }

انْقَضَتْ شِرَّتِي فَعِفْتُ الْمَلاَهِي	إِذْ رَمَى الشَّيْبُ مَفْرَقِي بِالِدَوَاهِي
وَنَهْتَنِي النَّهْيَ فَمِلْتُ إِلَى الْعَدُوِّ	ل ، وَأَشْفَقْتُ مِنْ مَقَالَةٍ نَاهِ
أَيُّهَا الْغَافِلُ الْمُقِيمُ عَلَى السَّهْوِ	وِ وَلَا عُذْرَ فِي الْمَقَامِ لِسَاهِ
لَا بِأَعْمَالِنَا نُطِيقُ خَلَاصًا	يَوْمَ تَبْدُو السَّمَاءُ فَوْقَ الْجَبَاهِ
غَيْرَ أَنِّي عَلَى الْإِسَاءَةِ وَالنَّفْثِ	رِيطِ رَاجٍ لِحُسْنِ عَفْوِ اللَّهِ ²

فلماذا لا يستحق أبو نواس العفو إذا لم تكن لديه حيلة إلا الرجاء ؟! وكيف لا يلتبس الصفح إذا كان مستنداً على قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " 3 ؟! وهو لم يشرك بالله ، وإن سعى إلى كل ما يبغض الله ، أوليس هو القائل :

{ الطويل }

تَرَى عِنْدَنَا مَا يَسْخَطُ اللَّهَ كُلَّهُ مِنْ الْعَمَلِ الْمُرْدِي الْقَتَى مَا خَلَا الشُّرَكَ⁴

ولماذا لا تقبل توبته إذا كان ممن اعترفوا بذنوبهم ، وخططوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وقد توجه إلى الله بقلب سليم ، وتضرع إليه قائلاً :

{ الكامل }

أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا	فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحُمُ
مَالِ إِلَيْكَ وَسِيلَةً إِلَّا الرَّجَا	وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ؟؟ ⁵

لا شك في أنَّ أبا نواس شاعرٌ عشق الحياة النَّاعمة فأبحر في لذاتها ، ولكن تقاذفته أمواج الزَّمن وقسوة المحن ، وهده الصِّراع النَّفسيِّ والسَّرف على الجسد ، فأثر حرق مراكبه ، واستشعر

¹ سورة الزُّمَر : الآية 53 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 621 .

³ سورة النساء : الآية 48 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 705 .

⁵ المصدر السابق : ص 681 .

هوانه على القوة المحببة التي تدير الكون وتضع نواميسه ¹ ، فإذا به يقرع أبواب التوبة عاجزاً عن إحصاء ذنوبه ، فيقول :

{ المنسرح }

مَنْ أَنَا فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِذَا	نُودِي بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ
ذَلِكَ يَوْمٌ يَجِلُّ عَنْ خَطَرِي	فَمَا لِمِثْلِي هُنَاكَ مِنْ أَمَلٍ
هُنْتُ عَلَى الْخَالِقِ الْجَلِيلِ فَمَا	يَنْظُرُ فِي قِصَّتِي وَلَا عَمَلِي ²

" وتزداد انتفاضة اليقين والخوف من الله عند الشاعر فيرى أنَّ خير التَّجَارَةِ مع الله ، ومن يتبع هواه يخسر خسرانا مبينا ، أما من اتبع طريق الحق فسوف يربح الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ " ³ ، وهذا ما يستشعر من قوله :

{ السريع }

يَأْبَى الْفَتَى إِلَّا اتِّبَاعَ الْهَوَى	وَمِنْهُجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحٌ ⁴
--	---

وفي قوله :

{ السريع }

فَأَسْمُ بَعِينَيْكَ إِلَى نِسْوَةٍ	مُهورُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ
لَا يَجْتَلِي الْحَوْرَاءُ مِنْ خَذَرِهَا	إِلَّا أَمْرُ مِيزَانِهِ رَاجِحُ
مَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَذَلِكَ الَّذِي	سَيَقِي إِلَيْهِ الْمُنْجَرُ الرَّابِحُ ⁵

حيث أضحى الظفر بالجثة وما فيها من حور عين مطلب للشاعر الذي غرته الدنيا فأعمت بصيرته، وأثقلت عليه ذنوبه، فتراه يروض نفسه على الاستغفار، ويلجم لذاتها بالتقوى، فيقول :

¹ ينظر : عيد ، رجاء : أبو نواس شاعر ظلّمه قومه ، مجلة العربي ، ع 269 ، 1981 م ، ص 134 . و بزيغ ، شوقي : البطولة المضادة في شعر أبي نواس ، مجلة العربي ، ع 472 ، 1998 ، ص 101 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 723 .

³ الباجوري ، محمد عبد الدايم : عرضية الزهد واتجاهاته في شعر أبي نواس ، ص 281 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 618 .

⁵ المصدر السابق : ص 618 .

{ مجزوء الرجز }

تَرَيْنَ بِالْأَمَلِ الْكَذُوبِ	حَتَّى مَتَى يَأْنَفُسُ تَغْـ
لَا تَسْنُ تَطِيعِي أَنْ تَتَّـوِي	يَا نَفْسُ تَوِي قَبْلَ أَنْ
حِ عَلَيْكَ دَائِمَةُ الْهُبُوبِ	إِنَّ الْحَوَادِثَ كَالرَّيَا
وَالْخُلُقُ مُخْتَلِفُ الضُّرُوبِ	وَالْمَوْتُ شَرْعٌ وَاحِدٌ
بِتَقَاهُ مِنْ لَطَخِ الْعِيُوبِ ¹	وَلَقَلَّمَا يَنْجُو الْفَتَى

لقد كان أبو نواس صاحب عبقرية شعرية أعييت الدارسين ، وجعلتهم يجتهدون في تفسير ما ورد في تضاعيف شعره من تناقضات فهو العابث اللاهي ، وهو الزاهد العابد ، وهو الذي أحال حياته من: خمر ، ومجون ، وقيان ، وغلمان إلى حياة نسك يستشعر فيها رقابة الله فيقول :

{ الطويل }

خَلَوْتُ ، وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ	إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ
وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْكَ يَغِيبُ	وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً
ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ ذُنُوبٌ ²	لَهُنَا بَعْمَرٌ طَالَ حَتَّى تَرَادَفَتْ

فأين ذلك من قوله :

{ المنسرح }

فَانْظُرْ بِمَا يَنْقُضِي مَجِيءَ غَدِهِ	إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ - فَاغْلَمَنَّ - غَدًا
إِلَّا وَشْيَاءَ يَمُوتُ مِنْ جَسَدِهِ ³	مَا اِزْتَدَّ طَرْفُ امْرِئٍ بِلَذِّهِ

وانتقل الشاعر من قاع الوله الحسي إلى قمة السمو الروحي واستطاع أن يذيب التناقض الحاد بين هذين القطبين المتنافرين ، وأن يعزف أنغاماً بديعيةً خاصة بكل قطب⁴ ، فلا ريب إذن أن يتحول العاكف على المعصية إلى سائل لله ، راغب إليه وحده خائف من عذاب سقر التي أنكرها في الماضي ، فيقول :

¹ أبو نواس: الديوان، ص 616 .

² المصدر السابق : ص 615 .

³ المصدر السابق : ص 619 .

⁴ ينظر : الباجوري ، محمد عبد الدائم : عرضة الزهد واتجاهاته في شعر أبي نواس ، ص 281 ، ص 282 .

{ المنسرح }

يا سائلَ الله فُزْتُ بِالظَّفَرِ وبالنَّوَالِ الهَنِي لا الكَدَرِ
 فازغَبْ إلى الله لا إلى بَشَرٍ منتَقِلٍ في البَلَى ، وفي الغَيْرِ
 وازغَبْ إلى الله لا إلى جَسَدٍ منتَقِلٍ من صَبَا إلى كِبَرِ
 إنَّ الذي لا يخيَّبُ سائلُهُ جوهرُهُ غيرُ جَوهرِ البَشَرِ
 مالك بالتُّرْهَاتِ مشْتَغلاً أفي يَدَيْكَ الأمان من سَقَرٍ¹

آبَ أبو نواس إلى رحاب الله بعد رحلة العصيان الطويلة ، واستجاب لنداء عقله بعد أن كان لا يستجيب إلا لنداء نزواته ، ووقع في وقار الشَّيْب الذي رَدَّه عن مجونه وفسقه² ، يقول :

{ الطويل }

يا رَاكِبَ الذَّنْبِ قد شَابَتْ مَفَارِقُهُ أما تخافُ من الأَيَّامِ عُقْبَاهَا³
 لقد صاغ أبو نواس أبياته الزَّهْدِيَّة في قوالبٍ حكيمية مشفوعة بمجموعةٍ من التَّجارب الإنسانية، ظهر فيها الشاعر عالماً، يفحص ويجرَّب بنفسه، ثم يصدر حكمه الذي غلب عليه طابع الانكسار، والإصرار على طلب العفو، على ما اقترفه من منكرات، ملتصقاً من الله الصفح والغفران⁴، فهو فنان مبدع في جميع الميادين، وأظهر قدرةً انقلابية؛ فالشاعر الذي بحث عن السعادة في اللذة هو نفسه الذي أدرك بأنَّ السعادة الحقيقية تكمن في عفو الله ورضاه، ويندم أشدَّ الندم، وتطارده أشباح المصير، فيرثي نفسه بقطع من روحه، ويحثها على التَّأهّب ليوم الحساب والوقوف على الصِّراط⁵، فيقول:

{ الكامل }

يا نَفْسُ مَوْرِدِكَ الصِّراطُ غَدًا فتَأْهَبِي من قَبْلِ أنْ تَرْدِي
 ما حُجَّتِي يَوْمَ الحسابِ إذا شَهِدَتْ عَلَيَّ بما جَنَيْتُ يَدِي⁶

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 622 .

² ينظر : الأميوني ، نضال دكاش : ظاهرة الزَّمن في الشعر العربي القديم ، ص 272 ، 273 .

³ المرجع السابق : ص 613 .

⁴ ينظر : الأميوني ، نضال دكاش : ظاهرة الزَّمن في الشعر العربي القديم ، ص 276 ، 275 .

⁵ ينظر : المرجع السابق ، ص 272 ، 276 .

⁶ ابن منظور : ملحقات الأغاني ، ج 25 ، ص 307 .

الفصل الثاني

مظاهر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في الموضوعين السياسي والاجتماعي

المبحث الأول - الانقلاب المعرفي والمواجهة السياسية في شعر أبي نواس

أولاً - في عهد هارون الرشيد

ثانياً - في عهد الأمين بن هارون الرشيد

المبحث الثاني - الانقلاب المعرفي والمواجهة الاجتماعية في شعر أبي نواس

أولاً - شعوبية أبي نواس

1- موقفه من الأنساب العربية

2- موقفه من الأطلال

3- موقفه من العادات ، والظواهر الاجتماعية

ثانياً - موقف أبي نواس من المرأة

المبحث الأول - الانقلاب المعرفي والمواجهة السياسية في شعر أبي نواس

يتناول هذا المبحث دراسة الانقلاب المعرفي عند أبي نواس ، ومفارقته الأوضاع السياسية في عهد الخليفة هارون الرشيد ، وابنه الأمين.

أولاً: الانقلاب المعرفي والمواجهة السياسية في عهد هارون الرشيد

عاشت بغداد عصرها الذهبي في عهد هارون الرشيد؛ فكانت مدينة اللذائذ المعقدة¹، التي كان ينشدها كل شاعر، ويتطلع إليها كل قاصدٍ لغنى أو ترف، وكل باحثٍ عن التمرّد الخلفي والاجتماعي، و إليها مضى أبو نواس، بعد أن " أتمّ علمه واستوفى فنه وبدأ راغباً بصلة الرشيد وينل العطايا والهبات التي فانتته زمن المهدي "²، ولكنّه حمل إلى جانب شاعريته ذاته المتمرّدة التي قادتته إلى مواجهة المتاعب في بلاط الخليفة، ومع حاشيته ومقربيه، يقول:

{ الطويل }

سأبغِي الغنى إمّا جَلِيسَ خَلِيفَةٍ	يقومُ سَواءً، أو مُخِيفَ سَبِيلِ
بِكُلِّ فَتًى لا يُسْتَطَارُ جَنائِهِ	إذا نَوّه الزَّحْفان باسمِ قَتِيلِ
لِنُخْمِ مَالِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ	وذي بَطْنَةٍ لِلطَّيِّبَاتِ أَكُولِ ³

حيث يظهر أبو نواس طامعاً في الغنى، ساعياً وراء المال يريد الحصول عليه بأي طريقة، فإمّا أن يكون جليس الخليفة، وإمّا أن يكون قاطع طريق يعترض طرق بغداد ليأخذ مالا هو في نظره حق له، فهو وإن كان غريباً عن مجتمع بغداد لقادرٌ على مجاراته ومستعد لإثبات نفسه في كلّ زواياه، ولعلّ هذا ما دفع بعض الباحثين إلى تقسيم حياة أبي نواس في عهد الرشيد إلى قسمين: حياة رسمية عاشها في بلاط الخلافة نديماً مادحاً يستعين بما يناله من جوائز وعطايا ليستمتع بها في حياته الثانية التي عاشها مع المجان والخلاء والمارقين⁴. ولكن هل استطاع أبو نواس أن

¹ ينظر: عساف ، سيمون ساسين ، الصورة الشعرية ونماذجها في شعر أبي نواس ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1982 ، ص 81.

² ينظر: صدقي، عبد الرحمن: أبو نواس، ص 135.

³ أبو نواس: الديوان، ص 17.

⁴ ينظر: عساف، ساسين سيمون: الصورة الشعرية، ص 80.

يفصل بين هاتين الحياتين، وأن يعيش كلاً منها بشخصية مستقلة عن الأخرى، أم أنه أثر إخفاء ذاته الثائرة المتمردة خلف ستار الطاعة والاذعان؟! ولا سيما أنه أتى بغداد طامعاً في وصل الرشيد صاحب المهابة، والصفحات المشرقة في تاريخ المسلمين في حربه مع الروم ودفاعه عن الثغور، وقد اشتهر بتقواه وورعه، ومتابعته بين الحج والجهاد¹، ومحبه للشعر والشعراء، وإكباره للأدب والأدباء، وكان يصغي إلى المدح ويحبه ويجزل عليه العطاء، وقد جرى على سنته كبار وزرائه، وشيوخ دولته، وقواده، حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم²، فتزاحم الشعراء على أبوابهم مادحين متكسبين، وربما لجأوا إلى التصنع، والتكلف، بغية نيل رضا ممدوحهم والحصول على جوائزهم.

ولم يكن لطموح أبي نواس حدود؛ ولذلك كان دائم التطلع لآفاق جديدة تعلي شأنه وتقريه من أصحاب السلطة والنفوذ³، فأتى قصور البرامكة ومدحم، ولعله اتخذ منهم سُلماً للوصول إلى غايات وأهداف كان ينبغي تحقيقها في بغداد؛ فالمال والشهرة ومنادمة الخليفة أمور راودت مخيلته واحتلت أفكاره، ودفعته - في بعض المواقف - إلى تقصص شخصية مختلفة عن شخصيته المنقلبة الراضية. فترى أن مدح أبي نواس لتلك الشخصيات ذات الحضور الأبرز في عصره مدح لجودهم وتعداداً لمكارمهم وعطاياهم، وقد يتطرق إلى وصف قوتهم وشجاعتهم وإرهابهم أعداءهم، ولكن مقصده واحد؛ فهم لم يؤثر أحدهم على الآخر إلا لفيض كرمه وسخاء عطائه، ولذا فهو يقول في الفضل بن يحيى⁴:

{ الطويل }

رَأَيْتُ لِفَضْلٍ فِي السَّمَاحَةِ هِمَّةً أَطَالَتْ لِعَمْرِي غَيْظَ كُلِّ جَوَادٍ

¹ ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م 6، ص 217. والشتيوي، صالح علي: صورة هارون الرشيد الجادة في شعر العصر العباسي الأول، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، م 29، ع 3، 2002 م، ص 745.

² ينظر: أبو النصر، عمر: هارون الرشيد، ص 86. والخليل البغدادي: تاريخ بغداد، ج 14، ص 7. و ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م 6، ص 217.

³ ينظر: سلام، محمد زغلول: الأدب في عصر العباسيين، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995، ص 363.

⁴ الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي: (147 هـ - 193 هـ) وزير الرشيد العباسي وأخوه من الرضاع، كان أجود الناس، ولأه الرشيد خراسان سنة 178 هـ فحسنت فيها سيرته، وأقام بها إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة سنة 187 هـ، سجن مع أبيه يحيى حتى توفي في سجنه، ينظر: الزركلي: الأعلام، م 5، ص 151، 152.

تَرى النَّاسَ أَفْوَاجًا إِلَى بَابِ دَارِهِ كَأَنَّهُمْ رِجَالًا دَبَى وَجَرَادٍ¹

فالفضل بن يحيى أميرٌ لا يعرف قاصده فقرًا، فهو أكثر البرامكة عطاءً حتى لكأنه يدعو إلى ماله كما يدعو المؤذن للصلاة، فمن لبَّى نداءه جنى من قطوف جنته².
يقول أبو نواس:

{ الطويل }

أَمِيرٌ رَأَيْتُ الْمَالَ فِي نِعْمَاتِهِ	ذَلِيلًا مَهِينَ النَّفْسِ بِالضَّيْمِ مُوقِفًا
إِذَا ضَنَّ رَبُّ الْمَالِ أَغْلَنَ جُودُهُ	بَحْيًى عَلَى مَالِ الْأَمِيرِ وَأَذْنًا
وَلِلْفُضْلِ صَوَلَاتٌ عَلَى صُلْبِ مَالِهِ	تَرَى الْمَالَ فِيهَا بِالْمَهَانَةِ مُذْعَنًا
كَأَنَّ لَدَيْهِ جَنَّةَ بَابِلِيَّةَ	دَعَا يَنْفُحُهَا الْجُنَّاءَ مِنْهَا إِلَى الْجَنَى
أَغْرُرُ لَهُ دِيْبَاجَةً سَابِرِيَّةً	تَرَى الْعِثْقَ فِيهَا جَارِيًا مُتَبَيَّنًا ³

وقد ضرب أبو نواس المثل بجود البرامكة حيث قال:

{ البسيط }

وَفَضَّلُهُ عِنْدَ أَهْلِ الظَّرْفِ كُلِّهِمْ فَضْلُ الْبِرَامِكِ إِنْ عَلَاهُمْ الْجُودُ⁴

وكان للبرامكة سلطة لا حدود لها ، وقد ساسوا الرعية بسياسةٍ ليّنةٍ سليمةٍ اتّسمت بالسماحة والإحسان، وعمدوا إلى تأليف القلوب ونبذ الفرقة والشقاق، وعملوا على تقريب الناس وانصاف المظلوم بتركهم أسلوب البطش والعنف والتعذيب والإذلال، الأمر الذي ساهم في دعم الحضارة العباسيّة وثبتت دعائمها⁵.

ولدى اتصال أبي نواس بالبرامكة توصّل إلى قصر الرّشيد، وفي هذا يروي ابن منظور حادثة اتصاله بالخليفة فيقول: " قال أبو نواس: أول اتصالي بالخلفاء أن الرشيد قال ذات ليلة

¹ أبو نواس: الديوان، ص 472.

² ينظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994، ج 1، ص 151.

³ أبو نواس: الديوان، ص 474، 475.

⁴ المصدر السابق: ص 81.

⁵ ينظر: عباس، عبد الحليم: مراجعة لكتاب البرامكة في التاريخ، المجلة الثقافية، ع 12، 13، عمان - الأردن، 1987 م، ص 290. و أبو النصر، عمر: الهوى والشباب والحضارة في عهد الرشيد، منشورات مكتب عمر أبو النصر، ط2، بيروت، 1970 م، ص 98، 99.

لهرثمة بن أعين * : اطلب لي رجلاً فسأل..... فدلّ علي، فأدخلني عليه، فسألني الرشيد عن اسمي

واسم أبي فأخبرته. ثم قال لي: يا حسن، أرقّت في هذه الليلة فخطر ببالي هذان البيتان، وهما:

وقهْوَة كالعقيق، صافية يطيرُ من حَسَنِها لها شَرَرُ

زَوَّجْتُها الماءَ كي تَدُلَّ لهُ فامْتَنَعْتُ حين مَسَّها ذَكَرُ

قال: فقلت بديهاً:

كَذلك البِكْرُ حين خلوتِها يَظْهَرُ منها الحياءُ والخَفَرُ

حتّى إذا ساسَها مُملَكُها فما لها فيه ثَمَّ مُزْدَجَرُ

عادتْ لهُ ثِيْبًا تُفَاكِهُهُ قَدْ غابَ عنها بالرَّقَةِ الأَشْرُ

ترضِغُهُ تارَةً وتُتْبِغُهُ صَرِيْعَ كَرَمٍ بَعِيْنِهِ حَوْرُ

قال: أحسنت والله ! وأمر لي بمال، وكان سبب اتصالي به " 1.

ولكنّ علاقة أبي نواس بالرشيد لم تكن واضحة المعالم، لاسيّما في القصص والنوادر

الشعبية - كآلف ليلة وليلة - حيث جُعِلَ أبو نواس في مقام مُضحك البلاط، أو مقام النديم، أو

الصديق الحميم الذي يطلعه الرشيد على أدقّ تفاصيل قصره، ويختصّه بأسرار مجالس أنسه²،

الأمر الذي يوجب التّشكيك ويدعو إلى الدهشة؛ فشخصية أبي نواس لا تحاكي شخصية الرشيد

الرّصينة الحريصة على وقار الخلافة ووزانة الحكم³، والمنشغلة بقيادة الدولة الإسلامية، وتوسيع

¹ ابن منظور: أبو نواس، ص 190، 191. ولم ترد كلّ هذه الأبيات في ديوان أبي نواس، وإنّما ورد قوله:

{ المنسرح }

وقهْوَة كالعقيق صافية يطيرُ من كأسها لها شَرَرُ

زَوَّجْتُها الماءَ كي تَدُلَّ لهُ فامْتَنَعْتُ حين مَسَّها الذَّكَرُ

كَذلك البِكْرُ عند خلوتِها يَظْهَرُ منها الحياءُ والخَفَرُ

أبو نواس: الديوان، ص 673.

* هرثمة بن أعين: أمير من قادة الرشيد الشّجّان، ولّاه الرشيد مصر سنة 178 هـ، ثمّ ولّاه خراسان سنة 192 هـ،

ينظر: الزركلي: الأعلام، م 8، ص 81.

² ينظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994، ج 1، ص

616. و سلّام، محمد زغلول: الأدب في عصر العباسيين، ص 363.

* يقول ابن منظور: " قال بعض المترجمين ممن يحيط علماً بأحوال أبي نواس: أنّ هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد من

الموضوعات، وأنّ أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه وإنّما دخل على محمد الأمين ". ابن منظور: أبو نواس، ص

194.

³ ينظر: عسّاف، ساسين سيمون: الصورة الشعرية، ص 80.

رقعتها ودفع خطر أعدائها. إضافة إلى أنَّ أماديح أبي نواس في الرشيد لا تتجاوز الثمانين بيتاً من الشعر توزعت على مدى حقبة اتصاله به، وهذه الأماديح ضئيلة إذا ما قورنت بمكانة الرشيد وشهرته، وطول مدة خلافته، ثم إنها لا تكشف عن علاقة متميزة جمعت بين الشاعر الماجن عاشق الخمر والخليفة النقي المجاهد¹.

ولم تتمكن هذه الشكوك من نفي علاقة أبي نواس بالرشيد نفياً مطلقاً، فقد ثبتت أماديح الشاعر بالرشيد في ديوانه وفيها حشد لصفات الخليفة ومآثره، وإشادة بأخلاقه وانتصاراته، وقدرته على الدفاع عن ثغور المسلمين إلى حدٍّ يغالي فيه أبو نواس ليتخطى حدود المألوف؛ فهو يرى أنَّ الله سبحانه يفضّل الرشيد على الخلفاء كافة، وفي ذلك يقول:

{ الطويل }

تَبَارَكَ مِنْ سَاسِ الْأُمُورِ بِغَلْمِهِ وَفَضَّلَ هَارُونَاً عَلَى الْخُلَفَاءِ²

ويقول:

{ الكامل }

هَارُونَ يَا خَيْرَ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ مِمَّنْ مَضَى فِيهِمْ، وَهَذَا الْغَايِرُ³

فلا عجب أن يتصارع الناس على رؤية وضاعة وجه الخليفة، ويتزاحموا على أبوابه كالضرائر، فإذا تبدى لهم بهيبته وعظمته نكست عنه أبصارهم، لأنّه خير الخلائق، يقول أبو نواس:

{ الكامل }

إِنَّ الْعَيُونَ حُجِبْنَ عَنْكَ بِهَيْبَةٍ فَإِذَا بَدَأَتْ بِهِنَّ نُكُوسَ نَاطِرٍ⁴

ولا شكَّ أنَّ شعر أبي نواس في هارون الرشيد قد اكتسى ثياب الرّهبة والمهابة، وغلف بطابع الخوف من سطوة الرشيد وقوته، ولعل هذا ما يفسر لجوء أبي نواس إلى صور غريبة عن تفكير عصره ومذهبه⁵، حيث يقول:

¹ ينظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج1، ص 116.

² أبو نواس: الديوان، ص 402.

³ المصدر السابق: ص 401.

⁴ المصدر السابق: ص 401.

⁵ ينظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج1، ص 119، 122.

{ الكامل }

وَأَخْفَتِ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ التِّي لَمْ تُخْلَقِ¹

ويضفي الشاعر على الخليفة هالة من القداسة حيث يقول:

{ الكامل }

وَالِىَ أَبِي الْأَمْنَاءِ هَارُونَ الَّذِي يَحْيَا بِصَوْبِ سَمَائِهِ الْحَيَوَانُ
مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالُهُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَخُلْ مِنْهُ مَكَانُ
مَا تَنْطَوِي عَنْهُ الْقُلُوبُ بِفَجْرَةٍ إِلَّا يُكَلِّمُهُ بِهَا اللَّحْظَانُ
فِيظِلُّ لَأَسْتَنْبَائِهِ وَكَأَنََّّهُ عَيْنٌ عَلَى مَا غَيَّبَ الْكُتْمَانُ
هَارُونُ آفْنَا ائْتِلَافَ مَوَدَةٍ مَاتَتْ لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانُ²

فالشاعر يعلي من شأن الخليفة إلى حدٍّ يقوده إلى الشَّرِكِ، فهو يمنحه صفة الربوبية حين جعل الناس يحيون بِصَوْبِ سمائه، ويرقبونه في كل مكان، فلا يستطيع أحد خيانتته؛ لأنَّه مطلع على الغيب، عالمٌ بما يطويه الكتمان، كما يجعله قاتلاً للأحقاد والأضغان التي تسبب إفساد الألفة والمودة بين رعيته فكأنَّه يطبق عليه قوله تعالى³: "هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"⁴. إلا أنَّ الشاعر كان حريصاً على أن يقدم الخليفة في صورة تنثني على شجاعته وإقدامه المستمدة من تقواه وورعه، ذلك أنَّ التقوى محرِّك للتضحية ودافع يحفز القائد المجاهد على الاستهانة بالدنيا لهدف إعلاء لواء الإسلام وهدم لواء الكفر.

إنَّ الخليفة هارون الرشيد إمام يخشى ربَّه كأنَّه يراه صباح مساء، فهو يرتقي إلى منزلة الإحسان التي عناها الرسول صل الله عليه في قوله⁵: " الإحسانُ أنْ تعبدَ الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ⁶، وفيه يقول أبو نواس:

¹ أبو نواس: الديوان، ص 401.

² المصدر السابق: ص 404، 405.

³ ينظر: حمدان، ساهرة عبد الحفيظ محمد: الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2010، ص 94.

⁴ سورة الأنفال، الآية 63.

⁵ ينظر: الشنتوي، صالح علي: صورة هارون الرشيد الجادة في شعر العصر العباسي الأول، ص 750.

⁶ النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص 37.

{ الطويل }

نعيشُ بخيرٍ ما انطَوَيْنَا على التَّقَى وما ساسَ دُنْيَانَا أَبُو الْأَمْنَاءِ
إِمَامٌ يَخَافُ اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّهُ يَوْمِلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءٍ¹

لقد ارتدى أبو نواس ثياباً ليست له، وادّعى أنّه ممتلئٌ مخلصٌ لكل فعل أو قول يصدر عن الرشيد، وليس ذلك فحسب؛ فقد جعل الشاعر نفسه في موضع العبودية والاسترقاق على نحو يتنافى مع ذاتيته التي ترفض الذلّ وتأبى الخضوع، ولعله أرهب بسطوة الرشيد وجبروته الذي أخضعه غير مرة للسجن؛ فالشاعر كان متّهماً في عقيدته ومذهبه، متيماً بالخمير، متغنياً بها في جلّ أشعاره واقعاً في شرك عاذليه ولؤامه الذين كانوا في دأب للإيقاع بينه وبين الخليفة ومقربيه، محاطاً بالشكوك في أخلاقه وتصرفاته، لا يرعوي عن سلوكه الملتوي²، فاضطر إلى أن يدنو بنفسه إلى درجات الذلّ والهوان ليدرأ خطر الخليفة، ويدفع عنه سلطته المطلقة التي كانت تمتد إلى فضاءات الدولة العباسية كلها³، يقول:

{ الكامل }

هذا أمير المؤمنين انتأشني والنَّفْسُ بَيْنَ مُحَنَجَرٍ وَمُخَنَّقِ
فاقْذِفْ بِرَحْلِكَ فِي جَنَابِ خَلِيفَةٍ سَبَّاقِ غَايَاتٍ بِهَا لَمْ يُسَبِّقِ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ يَوْمَ وَابِقٍ مَنْعَمًا لَوْلَا عَوَاطِفُ حِلْمِهِ لَمْ أَطْلُقِ
حَرَمْتَ مِنْ لَحْمِي عَلَيْكَ مُحَلَّلًا وَجَمَعْتَ مِنْ شَتَى إِلَى مُتَفَرِّقٍ⁴

إذ يصور الشاعر نفسه جزوراً جاز ذبحه وحلّل لحمه إلّا أنّ الرشيد بصفاته الربوبية أطلقه فانتشله من الموت وحرّم لحمه، ولملم شعثه⁵، فلم يملك سوى اللجوء إلى حمى الخليفة، وإلقاء رحله في جنبابه، بل قدّم نفسه فداءً له مشعراً بإياه بعظيم امتنانه.

¹ أبو نواس: الديوان، ص 403.

² ينظر: ابن منظور: أبو نواس، ص 203 – 205. و خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج 1 ص 116. و عسّاف، ساسين سيمون: الصورة الشعرية، ص 80 – 81.

³ ينظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج 1، ص 123. و يونس، محمد عبد الرحمن: ملامح شخصية الخليفة هارون الرشيد في حكايات ألف ليلة وليلة، دورية كان التاريخية، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الكويت، س 1، ع 2، 2008 م، ص 49.

⁴ أبو نواس: الديوان، ص 400.

⁵ ينظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج 1، ص 123.

وربما تلاشى كبرياء الشاعر حين وزن بين عبوديته وعظمة هارون الرشيد المتمثلة بعفوه وجوده وفضله¹، فتراه يطلب شفاعته ويلوذ بجواره معترفاً بذنوبه التي تستوجب العفو، ومقرراً بعدم خيانتة للخليفة، أو التفكير في خيانتة، فيقول:

{ الوافر }

بِعَفْوِكَ بَلْ بِجُودِكَ عُذْتُ لَا بَلْ بِفَضْلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
فَلَا يَتَعَذَّرَنَّ عَلَيْكَ عَفْوٌ وَسِغَتْ بِهِ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ
فَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ بِظَهْرِ غَيْبٍ وَلَا حَدَّثْتُ نَفْسِي أَنَّ أَخَوْنَا
فَشَقَّ حُسْنُ وَجْهِكَ فِي أَسِيرٍ يُدِينُ بِحُبِّكَ الْإِسْلَامَ دِينَا
إِذَا مَا الْهُونُ حَلَّ بِدَارِ قَوْمٍ فَلَيْسَ لِجَارٍ مِثْلُكَ أَنَّ يَهُونَا²

إنَّ دراسة الجوانب الانقلابية لشعر أبي نواس في هارون الرشيد لتستدعي وقفة تأملية دقيقة؛ ذاك أنَّ أبا نواس علم من أعلام الثورة في عصره، وفي العصور الأدبية جميعاً، بما تعمقت به شخصيته من نزوع نحو الحرية³، ورفض للانسياق لأيٍّ أمر لا يصدر عن ذاته الواعية لما تريد، المدركة لمبادئ التمرد الذي رفع لواءه في وجه السَّاسة ومجتمعهم، فكيف لأبي نواس أن يستسلم لأوامر الخليفة التي تتأى به عن مبدئه ومذهبه ؟ ففي قوله:

{ الكامل }

حَيِّ الدِّيَارِ؛ إِذَا الزَّمَانُ زَمَانُ وَإِذَا الشَّبَاكُ لَنَا حَرَى وَمَعَانُ
يَا حَبِّذَا سَفَوَانُ مِنْ مُتَرَبِّعٍ وَلَرَبِّمَا جَمَعَ الْهُوى سَفَوَانُ
وَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الدِّيَارِ مَسْلَمًا فَلَغَيْرِ دَارٍ أَمِيمَةَ الْهَجْرَانُ⁴

يقف الشاعر على الأطلال التي طالما استخف بها، وبالواقفين عليها، وما ذاك إلاً لفوده على الخليفة الذي أخذ عليه موثقاً أن يستبدل ذكر الأطلال بالخمير⁵، فهو يقول:

¹ ينظر: المصري، عباس: تجربة السجن عند شعراء العصر العباسي، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، 2007م، ص 62.

² أبو نواس: الديوان، ص 403.

³ ينظر: الزعيم، أحلام: أبو نواس بين العبث والاعترا ب والتمرد، ص 13.

⁴ أبو نواس: الديوان، ص 404.

⁵ ينظر: الفيرواني، ابن رشيق: العمدة، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط 1، مطبعة حجازي، القاهرة، ج 1، 1934، ص 204.

{ الكامل }

لَمَّا نَزَعْتُ عَنِ الْغَوَايَةِ وَالصَّبَا وَخَدْتُ بِي الشَّدْنِيَّةَ الْمِذْعَانَ
سَبَطْتُ مَشَافِرَهَا، دَقِيقُ خَطْمِهَا وَكَأَنَّ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ
وَاحْتَارَهَا لَوْ أَنَّ جَرَى فِي جِلْدِهَا يَقُقُّ كَقَرْطَاسِ الْوَلِيدِ، هَجَانُ¹

و(الشَّدْنِيَّة) ² ناقة من اليمن استحضرها الشاعر لتحمله إلى الرشيد، فأنته طائعة مستكرهة، وهذا ما يعكس صراعاً داخلياً في نفس أبي نواس، إذ كيف لشاعر افتتن برقّي الحضارة واستظل بترفها أن يستعين بدبياجة الحياة الجاهلية ليمدح خليفة يقيم على ضفاف دجلة بين الغنى، والقصور والرياض؟! ³ وكيف له أن يتنازل عن مذهبه التجديدي وصدقه الفني، وأن ينعته بالغواية والصبا ليرضي أولي الامر؟؟ لا بدّ وأنه فعل ذلك مكرهاً مذعناً تماماً كناقته، وهذا ما يعززه قوله:

{ الطويل }

أَعَزُّ شِعْرُكَ الْأَطْلَالَ وَالْدَمْنَ الْقَفْرَا فَقَدْ طَالَ مَا أَرَى بِهِ نَعْتَكَ الْخَمْرَا
دَعَانِي إِلَى نَعْتِ الطُّلُولِ مُسَلِّطُ تَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَجُوزَ لَهُ أَمْرَا
فَسَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَطَاعَةً وَإِنْ كُنْتُ قَدْ جَشَّمْتُ مَرْكَبًا وَغَرًّا⁴

فالأطلال والدمن فراغ وجهل ⁵، وطريق وعر قد تجشّمه النواصي لتقيده باستبداد المؤسسة النقدية التي تعتصرها سلطة الممدوح ⁶، الذي يضيق الشاعر ذرعاً في التخلص من بطشه، ومع ذلك فهو فهو يعرض لجبروته وينعته " بالمسلط " محاولاً فضح أساليبه في التبتيد بخصومه متظاهراً بالسمع والطاعة ⁷. غير أنّه لا يستطيع الإفلات من معجمه الخمري، وتجاهل طريقه الفني، وإن كان في

¹ أبو نواس: الديوان، ص 404. و يَقُقُّ: شديد البياض، والهجان: الخالص من كلّ شيء.

² (الشَّدْنِيَّة): من شَدَنَ: موضع باليمن، والإبل الشَّدْنِيَّة منسوبة إليه، ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (شَدَنَ) م 13، ص 235.

³ ينظر: إبراهيم، طه أحمد: تاريخ النقد الأدبي عند العرب في العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الحكمة، بيروت - لبنان، ص 95.

⁴ أبو نواس: الديوان، ص 21.

⁵ ينظر: القيرواني، ابن رشيق: العدة، ص 204.

⁶ ينظر: كرزاي، علي: استراتيجية الموقف السخري عند أبي نواس، مدونة إلكترونية، [www. atjabrxabed. net](http://www.atjabrxabed.net)

⁷ ينظر: الزعيم، أحلام: أبو نواس بين العرب والاعتراب والتمرد، ص 43.

حضرة الخليفة " أبو الأمان "، فإذا به يوظف كلمة "منادمة" في سياق وصفه للرّشيد بالتّقى والسداد¹، حيث يقول:

{ الكامل }

لَكُنَّه فِي اللَّهِ مُبْتَذَلٌ لَهَا إِنَّ التَّقِيَّ مُسَدَّدٌ وَمُعَانٍ
أَلَفْتُ مَنَادِمَةَ الدِّمَاءِ سَيُوفُهُ فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الْأَجْفَانُ²

وقد يحاول مرارًا الوقوف على الأطلال وبكاء الدّيار، ولكنّه على يقين بأنّه لن يظفر بمطلبه وبغيته، فكأنّه يلهث وراء طريدة تراوغه، فهي وراءه إن أقدم إلى الأمام، وأمامه أن التفت إلى الورا فإذا به يلوي زمام ناقته، ويتجه بها إلى حانة ألفته كلابها، واعتادت قدومه فلم تزعجه³ يقول:

{ الطويل }

لَقَدْ طَالَ فِي رَسْمِ الدِّيَارِ بَكَائِي وَقَدْ طَالَ تَرْدَادِي بِهَا وَعَنَائِي
كَأَنِّي مُرِيغٌ فِي الدِّيَارِ طَرِيدَةٌ أَرَاهَا أَمَامِي مَرَّةً وَوَرَائِي
فَلَمَّا بَدَأَ لِي الْيَأْسُ عَدَيْتُ نَاقَتِي عَنِ الدَّارِ، وَاسْتَوَلَى عَلَيَّ عَزَائِي
إِلَى بَيْتِ حَانَ لَا تَهْرُ كِلَابُهُ عَلَيَّ وَلَا يَنْكَرَنَّ طَوْلَ ثَوَائِي
فَإِنْ تَكُنُ الصَّهْبَاءُ أُوْدَتْ بِتَالِدِي فَلَمْ تُوقِنِي أَكْرَوْمَتِي وَحِيَائِي⁴

إنّ أبا نواس صاحب ديباجة حضرية لا تتّصل بسبب إلى التقليد والبداعة، ولا تجنّ لحبيب ولا تبكي على طلل، وهو مروج لفتنة شاعت في بغداد والحوضر العباسية كافة، ومراة لواقع أثار تحفظ أولي الأمر⁵، ودفعهم إلى فرض هيمنتهم، فأحسّ الشاعر أنّ أحلامه تُحاصر، وأنّ شخصيته ستختفي خلف حُجب الرّشيد، فارتحل إلى مصر طلبًا للذائد جديدة في أجواء جديدة باحثًا

¹ ينظر: خليل، ياسين عايش، هارون الرّشيد في أنظار شعراء عصره، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، م 32، ع 1، 2005 م، ص 146.

² أبو نواس: الديوان، ص 405، 406.

³ ينظر: خريس، حسين، حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج 1، ص 120. وأبو نواس: الديوان، ص 402.

⁴ أبو نواس: الديوان، ص 402.

⁵ ينظر: إبراهيم، طه أحمد: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص 96.

عن سعة العيش ونضارته في ظلّ (الخصيب) ¹، فحطّ رحاله ببابه بعد رحلة طويلة تكبدّ بها عناءً ومشقةً لا تقلّ عن قدر ممدوحه، وأنشده قصيدته الرائية التي جند فيها من الطاقات الفنية ما يمكنه من استدرار جود ممدوحه والتّنعّم بعطاياه التي تيسّر كلّ عسير، فتراه يصف تجاوزه حواجز الخوف والتعب التي سيطرت عليه في رحلته إلى ديار الخصيب؛ لأنّه كان يضع نصب عينيه هدف اللّقاء به وطلب جواره واللجوء إلى حماه، لا سيّما أنّه هجر بغداد طامعاً في صلته والدّنو منه ². فيقول:

{ الطويل }

أجَارَةَ بَيْتِنا أَبُوكَ غَيُورٌ وَمِيسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ
وَجَاوَزْتُ قَوْمًا لَا تَزَاوُرَ بَيْنَهُمْ وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُشُورٌ ³

إذ يوضح الشّاعر سبب قدومه إلى الخصيب معتمداً أسلوب المراوغة؛ ليثبت رفضه العلاقات الإنسانية وسط قوم تركهم، وآثر الابتعاد عنهم؛ لأنّ حبل ودّهم مقطوع، وأمر وصالهم أصبح مستحيلاً إلى يوم النشور، ولا بدّ أنّ الشّاعر رمى من إبهامه كلمة " قوم " في البيت السابق إلى التّدييد بممدوح سابق، وهو هارون الرّشيد الذي لم يعد يعجبه وصله، وباتت علاقته به علاقةً سلبيةً مقيدةً بمهابة الخليفة هارون الرّشيد.

ولم يكن لأبي نواس أن يتخلّى عن تمرّده في حضرة الخصيب، فتراه يوظف " أنا " الشّاعر المتعالي ليعلن أنّه لا يخضع لسلطان، ولا يرضخ لخليفة، وأنّه متبصّر بخفايا الضّمير، وممتلكٌ لحُدسٍ يسعفه في إقناع ممدوحه واستمالة جانبه، فيتدفق عليه بالعطايا والهبات ⁴. فيقول:

{ الطويل }

فَمَا أَنَا بِالْمَشْغُوفِ ضَرْبَةَ لَازِبٍ وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَيَّ قَدِيرٌ
وَإِنِّي لَطَرْفِ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاجِرٌ فَقَدْ كَذْتُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ ضَمِيرٌ ¹
ضَمِيرٌ ¹

¹ " الخصيب ": الخصيب بن عبد الحميد العجمي، أمير مصر على الخراج، ولّاه إياه هارون الرّشيد بعد نكبة البرامكة. ينظر: ابن خلّكان: وفیات الأعيان، م1، ص 188. و الجهيشاري: الوزراء والکتاب، ص 254. و عسّاف، ساسين سيمون: الصورة الشعرية، ص 81.

² ينظر: المرازيق، أحمد جمال: رائية أبي نواس قراءة في تأويل الأنساق الثقافية، المنارة، م 17، ع 7، 2011 م، ص 239، 243، 244.

³ أبو نواس: الديوان، ص 480.

⁴ ينظر: المرازيق: أحمد جمال: رائية أبي نواس قراءة في تأويل الأنساق الثقافية، ص 242، 243، 244.

اهتزَّ الخصب لمديح الشاعر الذي تخلَّى عن مجتمع بغداد بخليفته وندمائه، وأتى مصر خاطباً ودّه وهو صاحب الكرم والجود الذي يؤمن به الفقر، ويحتّمى به من صروف الزّمن، يقول أبو نواس:

{ الطويل }

تقولُ التي عن بَيْتِهَا خَفَّ مَزْكَبِي	عزيرُ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ
أما دونَ مصرٍ للغنى مُتَطَلِّبٌ	بلى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فقلتُ لها واستعجلتُها بِوَادِرٍ	جرتُ فَجَرَى فِي جَزِيهِنَّ عَبِيرُ
ذريني أَكْثَرَ حاسديكِ بِرُحْلةٍ	إلى بَلَدٍ فِيهَا الْخَصْبُ أَمِيرُ
إذا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصْبِ رِكَابُنَا	فأَيُّ فَتَى بَعْدَ الْخَصْبِ تَزُورُ
فما جازَه جُودٌ ولا حَلٌّ دُونَه	ولكنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي سَوْدَدًا مِثْلَ سَوْدِدِ	يَحِلُّ أَبُو نَصْرٍ بِهِ وَيَسِيرُ ²

ويقول:

{ الوافر }

متى أجمع أبو نصر ومصرًا فما للدهر بينهما مكان³

ولذا يتحدّى الشاعر من يلومه على سفره إلى مصر؛ بحجة بعدها عن موطنه، موضحاً أنّ البعد ليس بعائق للوصول إلى الغنى واليسر، فقد أضحى الخصب سوقاً رائجةً لمن كسرت عليه تجارة الشعر⁴، ولعل في هذا إشارة إلى الحال التي آلت إليها منزلة أبي نواس في بلاط الرشيد، وهذا ما يوضحه قوله:

{ الكامل }

لَمْ تَذُرْ جَارَتَنَا وَلَا تَدْرِي	أَنَّ الْمَلَامَةَ إِنَّمَا تُغْرِي
هَبَّتْ تَلَوْمُكَ غَيْرَ عَازِرَةٍ	وَلَقَدْ بَدَا لَكَ أَوْسَعُ الْغُذْرِ
وَاسْتَبَعَدْتَ مَصْرًا وَمَا بَعْدَتْ	أَرْضُ يَحُلُّ بِهَا أَبُو نَصْرٍ

¹ أبو نواس: الديوان، ص 480.

² أبو نواس: الديوان، ص 481.

³ المصدر السابق: ص 483. وينظر: ص 479.

⁴ ينظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج1، ص 175.

ولقد وَصَلْتُ بِكَ الرَّجَاءَ وَلِي مَدْوَحَةً لَوْ شِئْتُ عَنْ مَصْرِ
إِنِّي لَأَمْلُ يَا خَصِيبُ عَلَى يَدِكَ الْيَسَارَةَ آخِرَ الدَّهْرِ
وكذلك نِعَمَ السَّوْقُ أَنْتَ لِمَنْ كَسَدَتْ عَلَيْهِ تَجَارَةُ الشَّعْرِ¹

وقد يُهَيِّئُ للقارئ أنَّ أبا نواس أضحى في نعيمٍ مقيمٍ بتقيؤه ظلال منح الخصيب فهو في ذمته لا يخشى دواهي الليالي وأحداثها، وهذا ما يعززه قوة الخطاب في قوله:

{ الخفيف }

يَا بَنَّتِي أَبْشِرِي بِمِيرَةِ مَصْرِ وَتَمَنِّي وَأَسْرِفِي فِي الْأَمَانِي
أَنَا فِي ذِمَّةِ الْخَصِيبِ مُقِيمٌ حَيْثُ لَا تَعْتَدِي صُرُوفَ الزَّمَانِ
كَيْفَ أَخْشَى عَلَيَّ غَوْلَ اللَّيَالِي وَمَكَانِي مِنَ الْخَصِيبِ مَكَانِي
قَدْ عَلِقْنَا مِنَ الْخَصِيبِ جِبَالًا آمَنْتَنَا طَوَارِقَ الْجِدْثَانِ²

حيث ينعم الشاعر بمسرراتٍ لا تعرف الحزن، وسعادة لا تتال منها غوائل الدهر. فهل قَرَّرَ أبو نواس الخروج من بغداد بلا عودة، واستبدل بلادَ الخصيب ببلاد الرِّشيد ؟ وهل استطاع أن يتجاهل ما قد يعتريه من انفعالات عاطفية إذا نزع إلى الأوطان، واشتاق الديار أم أنه تغاضى عن سلطة الرشيد التي تمكَّنه من عزل الخصيب، وتتحيته عن ولايته فيزول ملكه وتزول معه أحلام أبي نواس بالثَّورة والجاه ؟؟

لا غرو أن الشاعر كان صاحب حنكةٍ تمكَّنه من تطويع كلماته لبلوغ غايته من ممدوحه، وإن اضطر إلى السير في طريق المحاباة والتزييف، والدليل على ذلك أنَّ أبا نواس الذي كان بالأمس مادحاً للرشيد مجدداً عرضه، خاضعاً لجبروته، أضحى معظماً للخصيب مثنياً على أصوله، مكبراً هيئته، مشيداً برأيه السديد³ وزاد على ذلك أنَّ جعل الخليفة عاجز الرأي يأخذ بنصح الخصيب و حكمته إذا ما اعترضه عائق أو واجهته مشكله⁴، فهو يقول:

{ الطويل }

¹ أبو نواس: الديوان، ص 484، 485.

² المصدر السابق: ص 477.

³ أبو نواس: الديوان، ص 477، 483، 484.

⁴ ينظر: المرازيق، أحمد إبراهيم: رائية أبي نواس قراءة في الأنساق الثقافية، ص 249، 250.

وما زلت تُؤليه النصيحة يافعاً إلى أن بدا في العارضين قتيّر
إذا غاله أمرٌ فإما كفّيته وإما عليه بالكفاء تُشير¹

وفي قوله:

{ الطويل }

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصبِ ركبنا فأَيُّ فتى بعدَ الخصبِ تَزورُ²
تأكيدٌ أنَّ الخصبَ وجهةٌ لكلِّ مَدَح، وأنَّ أحدًا بعده لا يستحقُّ الوقوفَ ببابه، وهذا كلامٌ لا يوافق طبعَ الشاعر الذي لم يعتد أن يُوثر أحدًا على ذاته، وأن يلقى كلَّ أوراقه دون أن يترك لنفسه بابًا للنجاح؛ فالخصبُ لم يكن رجلًا فريدًا في زمانه، فهو ليس إلا عاملاً من عمال الخليفة، مؤتمراً بأمره في كلِّ حال، وأبو نواس شاعرٌ ساحرٌ، قادرٌ على التلاعب بعقل ممدوحه، فيُدِّمه من خلال مدحِهِ³، ويسخرُ منه في عقر داره، فانظر إلى قوله:

{ الطويل }

رماكم أميرُ المؤمنينَ بحيةٍ أكلٍ لحياتِ البلادِ شروبُ⁴

وقوله:

{ الخفيف }

وإذا هزَّ الخليفةَ للجُلَى مضاًها كالصَّارِمِ الهُنْدُوَانِي⁵ (م)

فلم يزد الشاعر على أن جعل الخصب سلاحاً في يد الرّشيد، فتارةً يكون كعصا موسى يلقبها الرّشيد في ساحة أعدائه لتأكل شرهم وأذاهم، وتارةً أخرى يكون سيفاً مهنداً يُخرجه الخليفة من غمده ليواجه به عظام الأمور. وفي هذا استدراكٌ لموقف الشاعر السّابق من هارون الرّشيد، فلو لم يكن الخليفة صاحب خبرةٍ ودرايةٍ، وحكمةٍ وبلاغةٍ رأي، ما تقلدَ الخصب منصبه، ولا استحقَّ مقامه، يقول أبو نواس:

{ الطويل }

فَمَنْ يَكُ أَمْسى جاهلاً بمقاتلي فإنَّ أميرَ المؤمنينَ خبيرُ

¹ أبو نواس: الديوان، ص 482.

² المصدر السابق: ص 481.

³ ينظر: المرازيق، أحمد إبراهيم: رائية أبي نواس قراءة في الأنساق الثقافية، ص 249، 250.

⁴ أبو نواس: الديوان، ص 484.

⁵ المصدر السابق: ص 477.

ويقول:

{ الكامل }

عَلِمَ الْخَلِيفَةُ أَنَّ نِعْمَتَهُ حَلَّتْ بِسَاحَةِ طَيْبِ النَّثْرِ²

لا بدَّ أنَّ أبا نواس كان يبحث عن أمانٍ لم يجده، وعن صلاتٍ لم يخطبها وعن مرتبةٍ لم ينلها، ولعله لم يجدْ في مصرَ مَنْ يعينه على شوقه إلى وطنه ومrabع صباه، فأشفق على نفسه من طول المقام غريباً دون قريبٍ أو نديم، فاختر العودَ إلى دياره التي نزح عنها قهراً، يقول:

{ الخفيف }

ذَكَرَ الْكَرْخُ نَازِحَ الْأَوْطَانِ فَصَّاباً صَبُوءَ وَلَاتٍ أَوَانٍ
لَيْسَ لِي مَسْعَدٌ بِمِصْرَ عَلَى الشَّوْ قَ إِلَى أَوْجُهُ هُنَاكَ حَسَانِ
نَازِلَاتٍ مِنَ السَّرَاةِ فَكَرَخَا يَا إِلَى الشَّطِّ ذِي الْقُصُورِ الدَّوَانِي³

وربما شقَّ عليه ما وقع في مصر من شغب وخصام بسبب سياسة الخصيب⁴، فأثر التحول، وهجا الخصيب، وضمَّ صوته إلى أهل مصر، فنغته بالكلب الذي لا يجني من يجالسه إلاَّ الكرب. فيقول:

{ الكامل }

نَفْسُ الْخَصِيبِ جَمِيعُهُ كَذْبُ وَحْدَيْتُهُ لِحَلِيسِهِ كَرْبُ
تَبْكِي الثِّيَابُ عَلَيْهِ مُغُولَةً أَنْ قَدْ يَجُرُّ ذِيُولَهَا كَلْبُ⁵

ولم يكن هجاء أبي نواس للخصيب سوى هجاء للحياة التي أمل بها، ولكنَّه لم يلقَ ما كان يأمل⁶، فعاد إلى بغداد تسبقه أماديحه في الخصيب، وتترامى إلى أذن الرشيد الذي نكب البرامكة، وأزال ملكهم وأبدل آل الربيع بهم، فهل كان الشاعر مستعداً لمواجهة التغيرات التي طرأت على بلاط الرشيد ؟ أم أنه سيعود إلى خمرته ومجونه دون أن يعبأ برضى الرشيد أو سخطه ؟

¹ المصدر السابق: ص 481 .

² أبو نواس: الديوان، ص 485.

³ المصدر السابق: ص 476.

⁴ ينظر: صدقي، عبد الرحمن: أبو نواس، ص 199.

⁵ أبو نواس: الديوان، ص 534.

⁶ ينظر: عساف، ساسين سيمون: الصورة الشعرية، ص 81.

لا شك أنّ النواصي بات متهمًا لدى الرشيد؛ فقد استجدى عاملاً من عماله، ويمم وجهه شطر ولاية من ولاياته فيما كان الشعراء يتسابقون إلى مدحه ويغذون الخطأ إلى كسب وده. وما أن حطّ أبو نواس رحاله في بغداد حتى طلبه الرشيد وأخذ عليه استخفافه بنبي الله موسى عليه السلام في قوله في الخصيب¹:

{ الطويل }

فإن يك فيكم أفكُ فرعونَ باقياً فإن عصا موسى بكفّ خصيب²

وأمر الرشيد صاحب الشرطه بقتل أبي نواس في ليلته إلا أنّ الأمين أرسل تهديداً لصاحب الشرطه بالقتل إن مسّ شعرةً منه، وبقي أبو نواس عند صاحب الشرطه إلى أن توفي الرشيد، وتولى الأمين الخلافة عام (193هـ)³.

ثانياً- الانقلاب المعرفي والمواجهة السياسية في عهد الأمين بن هارون الرشيد

لم يظفر الشاعر ببغيته في بلاط الرشيد، ولم ينل الخطوة التي كان يصبو إليها، ويمكن القول إنّ مرحلة اتصال أبي نواس بالرشيد مرحلة أربكت الشاعر، وحاصرت ذاته الخلافة، وقولبتها في إطار قبضة الخليفة، ولا يعني هذا أنّ الشاعر توقف عن النظم في شعر الخمر، أو التزم حدود المألوف ولكّنه كان مقيداً بأغلال القيم والأسس التي سنّها أصحاب السلطة ليلزموا بها مجتمعاً غارقاً بالفتن والأهواء، وخائفاً من السجن الذي أطال الرشيد حبسه فيه، ولذلك فقد شكّل موت الرشيد نقطة تحول في حياة أبي نواس؛ حيث مضت تلك الحقبة التي اهتزّ فيها صوت الشاعر وضاعت فيها حدوده، وبدأت حقبة جديدة عنوانها التحرر والانفلات، والتماذي في التمرد؛ لا سيّما أنّ عوامل مختلفة أطلقت العنان لنفوذ الشاعر، وساهمت في تقريبه من الخليفة الجديد. كان أولها علاقة وثيقة جمعتهم وآل الربيع الذين كانوا حماة وشفعاءه، فقد عرفهم الشاعر قبل أن يصبحوا وزراء بزمان طويل⁴، وتعنى بهم أيام الرشيد، فقال محتقياً بتولي الفضل بن الربيع حجابة هارون الرشيد بعد نكبة البرامكة:

¹ ينظر: ابن منظور: أبو نواس، ص 223.

² أبو نواس: الديوان، ص 484.

³ ينظر: ابن منظور: أبو نواس، ص 223.

⁴ ينظر: شلق، علي: أبو نواس بين التخطي والالتزام، ص 53. و فروخ، عمر: أبو نواس، ص 61.

{ السريع }

قَوْلًا لِهَارُونَ إِمَامِ الْهُدَى عِنْدَ احْتِفَالِ الْمَجْلِسِ الْحَاشِدِ
نَصِيحَةِ الْفَضْلِ، وَاشْفَاقُهُ أَخْلَى لَهُ وَجْهَكَ مِنْ حَاسِدِ
بَصَادِقِ الطَّاعَةِ، دَيَانَتِهَا وَوَاحِدِ الْغَائِبِ وَالشَّاهِدِ
أَنْتَ عَلَى مَا بِكَ مِنْ قُدْرَةٍ فَلَسْتَ مِثْلَ الْفَضْلِ بِالْوَاجِدِ
أَوْحَدَهُ اللَّهُ فَمَا مِثْلُهُ لَطَالِبِ ذَاكَ وَلَا نَاشِدِ
وَلَيْسَ لِلَّهِ بِمُسْنَدٍ تَنْكِيرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ¹

فلن يجد الخليفة _ مهما بلغت قدرته _ من يخلص في صدق طاعته كالفضل بن الربيع؛ فهو له ناصح أمين، بل إنه عالم متكامل في رجل واحد، وفي هذا تمجيد للفضل، وتمييز له عن غيره من رجال الخليفة. ولذلك احتضن آل الربيع أبا نواس وآثروا صحبتته، فطال اتصاله بهم ووقوفه ببابهم، وغالى في تعداد مآثرهم ومناقبهم²، فقال فيهم:

{ مجزوء الكامل }

آلَ الرَّبِيعِ فَضْلُكُمْ فَضْلَ الْخَمِيسِ عَلَى الْعَشِيرِ
مَنْ قَاسَ غَيْرَكُمْ بِكُمْ قَاسَ الثَّمَادَ إِلَى الْبُحُورِ³

فمن يحاول مقارنة آل الربيع بغيرهم لا محالة خاسر؛ إذ كيف للماء القليل أن يغلب البحور بعظم مائها وتتابع أمواجها؟! فهم سادة يستحقون الملك بكرمهم ونبيلهم، وسماؤهم مدرارة بالجود وأيديهم ممتدة بالعطايا، ويقول:

{ الرجز }

سَادَ الْمُلُوكَ ثَلَاثَةٌ مَا مِنْهُمْ إِنْ حَصَّلُوا إِلَّا أَغْرُ قَرِيعُ
سَادَ الرَّبِيعِ، وَسَادَ فَضْلُ بَعْدِهِ وَعَلَتْ بَعْبَاسَ الْكَرِيمِ فُرُوعُ
عِبَاسُ عِبَاسٍ إِذَا احْتَدَمَ الْوَعْيُ وَالْفَضْلُ فَضْلٌ، وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ⁴

¹ أبو نواس: الديوان، ص 454

² ينظر: صدقي، عبد الرحمن: أبو نواس، ص 155.

³ أبو نواس: الديوان، ص 467.

⁴ المصدر السابق: ص 463. وينظر: ص 445، 446، 581.

ولم تكن علاقة أبي نواس بآل الربيع تحاكي علاقته بالبرامكة؛ فلم تقتصر أماديحه فيهم على وصف كرمهم، وتعداد هباتهم؛ ذاك أنهم لم يمثلوا له مصدرًا للعطايا فحسب، وإنما كانوا طوق نجاة يستعين به على ما رُزء به من مصائب، لا سيّما بحبسه المتكرر في السجن. فدارت أشعاره بهم حول الشكر، والرجاء، والتّودد، والتّشفع، والامتنان، والعتاب، وطلب العفو والغفران¹.

ويرجع ثاني تلك العوامل إلى شخصية الخليفة الأمين الذي أحبّ اللهو والطرب، فلدى توليه الخلافة " طلب الخِصيان وأبتاعهم، وغالى فيهم فصيرهم لخلوته ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه.... ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمي بهن..... ثم وجه إلى جميع البلدان في طلب الملّهيّن، وضمّهم إليه، وأجرى عليهم الأرزاق، واحتجب عن أخويه، وأهل بيته، واستخف بهم وبقواده، وقسم ما في بيوت الأموال، وما بحضرته من الجواهر في خصيانه، وجلسائه، ومحدثيه، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته، ومواضيع خلواته ولهوه ولعبه.... " ²، فكان ينأى بنفسه عن مسؤوليات الخلافة، وثقل الإمارة بشهادته بحق نفسه إذ قال للفضل بن الربيع: " يا فضل أتراني لا أحسن التدبير والسياسة، ولكنني وجدت شمّ الآس، وشرب الكاس، واستلقاءً من غير نعاس، أشهى إلي من ذلك " ³، إلّا أنّه كان شجاعاً ذا قوة مفرطة، وعلى قدر من الفصاحة والبلاغة والأدب يرقى إلى طيب نسبه، ونبل حسبه ⁴.

فقد انساق الأمين لموجة مجون كان من الصّعوبة إخمادها، أو التخفيف من اندفاعها، ولعله كان مؤيداً داعماً لكل ما أشاعه أهل زمانه من فتن وملذات، الأمر الذي جعله أثيراً لدى أبي نواس ومن شاكلة من الشعراء، إلّا أنّ هالة من الخصوصية والتّفرد قد أحاطت بالشاعر، وقربته من الأمين إلى حدّ تلاشت فيه الحواجز الرسمية، حيث أضحي الخليفة نديم الشاعر، وصاحبه الذي لا يطيق بعده ولا يصبر عنه ⁵، فانغمسا معاً في ضروب الفسق، وتشاركوا كؤوس الشراب في مجالس

¹ انظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج 1، ص 160.

² ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1982، ج 6، ص 293، 294.

³ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 8، ص 112.

⁴ ينظر: الكتبي: فوات الوفيات، ج 6، ص 46، وسالم، السيد عبد العزيز: العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1978، ص 71.

⁵ ينظر: سلام، محمد زغلول: الأدب في عصر العباسيين، ص 363.

حفتها الجواري، وطاف فيها الغلمان، وتأججت فيها نيران اللذات، فكانا في نعيم لا يكر صفوه شعور بالاثم¹، ولا ينفعه قانون أو تشريع.

ولكن علاقة النواصي بالأمين لم تكن وليدة لتعهد الأمين الخلافة؛ وإنما هي علاقة قديمة قد ترجع إلى طفولة الأمين، حيث يروي ابن منظور أن الرشيد عهد إلى الكسائي وأبي نواس تعليم ولده²، وإنشاده الشعر النادر الغريب، ثم توطدت العلاقة بينهما، لا سيما بعد أن أخرج الأمين الشاعر من السجن الذي زج فيه في عهد الرشيد، فقد نظم أبو نواس أبياتاً كانت سبباً إلى كسر قيوده، وفك أسر³، إذ يقول:

{ الوافر }

أرقت، وطار عن عيني النعاس	ونام السامرون، ولم يواسوا
أمين الله قد ملكت ملكا	عليك من التقى منه لباس
تسأس من السماء بكل صنع	وأنت به تسوس كما تسأس
وجّهك يستهل ندى فيخيا	به في كل ناحية أناس
كأن الخلق في تمثال روح	له جسد وأنت عليه رأس
فديتك إن ليل السجن باس	وقد أرسلت " ليس عليك باس" ⁴

حيث شكا الشاعر إلى الخليفة أرقه ووحشته في ليل السجن المظلم بعد أن وصفه بالنقوى والعدل والكرم، فهو بحق خليفة الله على الأرض يسوس رعيته بأحكام السماء، وهو رأس الرعية وأساسها فتراه يرقل بثوب من السرور، ويضفي على كلمات أشعاره أبهى الحل ويصور الخلافة تهتر طرباً للخليفة، وتسعى إليه بحنين دائم وشوق متأجج، وكأنها اختصت به فلا تليق لأحد غيره، يقول:

{ مجزوء الكامل }

إن الخلافة لم تزل	تزهو وتفقز بالأمين
وتحن من شوق إلي	ه حنين دائمة الحنين ⁵

¹ ينظر: عساف، ساسين سيمون: الصورة الشعرية، ص 81.

² ينظر: ابن منظور: أبو نواس، ص 209، 210.

³ ينظر: الطبري، ابن جرير محمد: تاريخ الأمم والملوك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 7، ص 106، 107.

⁴ أبو نواس: الديوان، ص 425.

⁵ المصدر السابق: ص 411.

وتملّق أبو نواس الخليفة الجديد، فهو في خلافته مستبشّر طلقُ النفس، لا يعتري قلبه هم أو أسى، ولذا فقد طغى إعجابه بشخصية الخليفة ومجالس أنسه على ما نظمه من شعرٍ في حضرته، وما قاله من مدح أو وصف في بلاطه؛ فالممدوح ليس الخليفة فقط، بل هو النديم المسامر، والصديق الحميم، " وإلا فأبي ممدوح عظيم يقبل على نفسه أن يخاطبه شاعره بما يتخاطب به المحبوب من وصل وهجران وصلح وعتاب ووفاء وغدر ؟! " ¹، يقول الشاعر:

{ البسيط }

يا مَنْ يبادلني عِشْقًا بِسُلْوانٍ	أَمْ مَنْ يَصَيِّرُ لي شُغْلًا بِإنسانٍ
كيما أَكونَ لَهُ عَبْدًا يَقَارِضُني	وَصَلًّا بِوَصْلِ وَهْجَرانًا بِهِجرانٍ
إذا التَّقَيْنَا بِصَلَحٍ بَعْدَ مَعْتَبَةٍ	لَمْ نَفْتَرِقْ بَعْدَ مَوْعودٍ لِلْقِيانِ ²

ويقول بلسان عاشقٍ محب:

{ الوافر }

أزورُ محمّداً فإذا التَّقَيْنَا	تكلّمتِ الضّمائرُ في الصُّدورِ
فأرجعُ لَمْ أَلْمُهُ وَلَمْ يَلْمَنِي	وَقَدْ رَضِيَ الضّميرُ عَنِ الضّميرِ
أُمورٌ لَيْسَ يَغْرِفُهَا سِوَانَا	يُحَيِّرُ لُطْفُهَا بَصَرَ البَصِيرِ ³

فالشاعر لا يتردد بالاعتراف بعشقه للخليفة والتغزل به، ووصف جمال وجهه ومحياه متجاوزاً المديح المحض، والمديح المشوب بالإعجاب، إلى مديح يغصّ بذكر الصفات الحسية أو ما يسمى بالمدح الوصفي والغزلي ⁴، وكثيرة هي الأشعار الدالة على ذلك ⁵. وهذا أمرٌ لم يكن يجرؤ على القيام به في عهد الرّشيد، إذ كيف له أن يتغزل بخليفة تحجّب هيبته عيون النّظار، فينكسون رؤوسهم، بل وتخافه النّطف التي لم تخلق بعد في أرحام أمهاتها ⁶؟؟ ولكن في المقابل

¹ خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج 1، ص 129.

² أبو نواس: الديوان، ص 420.

³ المصدر السابق: ص 363.

⁴ ينظر: فروخ، عمر: أبو نواس، ص 160. و خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج 1، ص 131، 132.

⁵ ينظر: أبو نواس: الديوان، ص 408، 418، 422، 423، 424.

⁶ ينظر: المصدر السابق ص 401.

كيف له أن يكتّم ما كان يجري بينه وبين الأمين في مجالس السمر من ودّ وألفة خرجت عن حدود المألوف وألغت الفوارق الطبقيّة والاجتماعيّة، وإلّا بماذا يفسّر قول الشاعر:

{ مجزوء الكامل }

نَبِيّه نَدِيمَك، قَدْ نَعَسَ	يَسْنَقِيكَ كَأَسَا فِي الْغَلَسِ
صِرْفًا كَأَنَّ شُعَاعَهَا	فِي كَفِّ شَارِبِهَا قَبَسِ
تَدْعُ الْفَتَى، وَكَأَنَّمَا	بِلِسَانِهِ مِنْهَا خَرَسِ
يُدْعَى؛ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ	فَإِذَا اسْتَقَلَّ بِهِ نَكَسِ
يَسْنَقِيهَا ذُو قُرْطُوقٍ	يُلْهِي، وَيُعْجِلُ مِنْ حَبَسِ ¹

وقوله:

{ الوافر }

وَنَدَمَانٍ يَرَى غَبْنًا عَلَيْهِ	بَأَن يُمَسِّي، وَلَيْسَ لَهُ انْتِشَاءُ
إِذَا نَبَّهَتْهُ مِنْ نَوْمٍ سُكْرِ	كَفَاهُ مَرَّةً مِنْكَ النَّدَاءُ
فَلَيْسَ بِقَائِلٍ لَكَ: إِيهِ دَعْنِي	وَلَا مُسْتَخْبِرٍ... لَكَ مَا تَشَاءُ
وَلَكِنْ: سَقَّتِي، وَيَقُولُ أَيْضًا	عَلَيْكَ الصَّرْفُ إِنْ أَعْيَاكَ مَاءُ
إِذَا مَا أَدْرَكَتْهُ الظُّهْرُ صَلَّى	وَلَا عَصَرَ عَلَيْهِ، وَلَا عِشَاءُ
يُصَلِّي هَذِهِ فِي وَقْتِ هَذِي	فَكُلُّ صَلَاتِهِ أَبَدًا قَضَاءُ
وَذَاكَ " مُحَمَّدٌ " تَفْدِيهِ نَفْسِي	وَحُقَّ لَهُ، وَقُلَّ لَهُ الْفِدَاءُ ²

إذ يصور الشاعر بلغة راقصة منتشية مجالس شراب نادم فيها الأمين فاصطحبا الخمر، وطربا لها كما يطرب العاشق المفتون إلى أن أطاحت بهما، وأفقدتهما القدرة على النطق³، بل لقد غالى أبو نواس في مجونه مع الأمين، وتمادى إلى حدود الزندقة، وبدا في غاية الاستهتار والتّمرّد، ولم يتوان عن دعوة (حبيبه) الأمين إلى فعل كلّ ما يعصى به الإله الجبار، فلم يعدو مجلسهما عن كونه مجلس فسق وفجور تتداول فيه المعاصي بشتى أشكالها دون خوفٍ من رقيب أو حسيب. يقول أبو نواس:

¹ ينظر: أبو نواس: الديوان، ص 417. ينظر في مناسبة هذه الأبيات: ابن المعتز: طبقات ابن المعتز، ص 210، 211.

² أبو نواس: الديوان، ص 23. و ينظر في مناسبة هذه الأبيات: ابن منظور: أبو نواس، ص 92، 93.

³ ينظر: العشماوي، محمد زكي: موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، ص 67.

{ البسيط }

وإن عَفُتْ عليه في الشكايات
بطول فترة ما بين الزيارات
الآن أكثر ما كانت صباباتي
وقد تطعمم فوه بالمواتاة
من مغشّر خلّقوا في الجود غيات
صاح الدجاج ببشرى الصبح مرّات
يجلّو التبسم عن غرّ الثّيات
قم سيدي نعص جبار السماوات
منسوبة لقرى هيت وعانات
باللّين طورا، وبالتشديد تارات
حلو الشّمايل، محمود السّجيات
أنّي أجالس لبنى بالعشّيات¹

لا استزيد حبيبي من مواتاتي
هو المواصل لي لكنّ ينغصني
قالوا ظفرت بمن تهوى فقلت لهم
لا عُذْر للصّب أن تهوى جوانحه
وداهريّ سّما في فرع مكرمة
ناديته بعد ما مال النجوم وقد
فقلت، واللّيل يجلّوه الصّباح كما
يا أحمد المرتجى في كلّ نائبة
وهاكها قهوة صهباء، صافية
ألزّه بحميّاها، وأزجّره
حتّى تغنى، وما تمّ الثلاث له
" ياليت حظّي من مالي ومن ولدي "

لقد رفض النّواصيّ التّلطي وراء السّواتر والأقنعة، وأراد أن يسمي الأشياء بمسمياتها دون أن يستخدم اللغة المضمرة أو المغلفة بسياج القيم المتداولة لقلب الحقائق²، فتراه يعرض فتن زمانه بصدقٍ وشفافية طالّت المجتمع والخليفة الذي يناط المجتمع بصلاحه أو فساداه ، والأمين كان مغناجّ الهوى، عاشقاً للخمر والسّم، مشغوقاً بالغلّمان³، لا يحول بينه وبين ما تشتهيه نفسه أو يصبو إليه هواه قرابةً أو حاشيةً أو بطانة⁴.

ولم تجرّ عليه صحبته لأبي نواس سوى زيادة في سوء السيرة يقول الطرطوشي: " وقد كانت صحبة محمد الأمين لذلك الرّجل الخليع والماجن الرّقيع أبي نواس الشّاعر، وصمةً عظيمةً عليه،

¹ أبو نواس: الديوان، ص 174.

² ينظر: بزيغ، شوقي: البطولة المضادة في شعر أبي نواس، ص 100.

³ ينظر: البيهقي: مشاكلة النّاس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، تح: محمد كمال الدين عزّ الدين، عالم الكتب، القاهرة، ص 38.

⁴ ينظر: رفاعي، أحمد فريد: عصر المأمون، ط 4، م 1، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1928 م، ص 197.

أوهنَ بها سُلطانَه، ووضعَ عند الخاص والعام قدرَه، وأطلقَ ألسنةَ الخلق بالشتم والتناء القبيح على نفسه¹.

فلا ريب إذن أن تستفحل نزعةُ المجون في عهد الأمين، وأن تغلب على المجتمع صفات اللهو والعبث، والغناء والطرب، والسكر والتشبيب بالقيان والغلمان، فكأنَّ المجتمع أخذ يتخلى شيئاً فشيئاً عن أساسيات المجتمع الإسلامي، وأخذ يتشرب صفات المجتمعات الدخيلة التي كانت تضع نصب أعينها هدف هزّ الأمة الإسلامية وزعزعة أركانها². فهل أَرْضَى ذاك الحال أبا نواس؟ وهل تحقق ما كان يطمح إليه من حرية اجتماعية وفنية - إن جاز التعبير -؟ وهل استطاع إقناع ساسة عصره بأفكاره التمردية، فرفعوا عنه القيود وأطلقوا له العنان؟؟ وكيف لشاعرٍ ثائر لا يقف عند حدود المألوف أن يسلم من ضغائن الغلِّ والأذى، وأن لا يسعى الوشاة بينه وبين معشوقه ولا سيما إن كان المعشوق الخليفة، عاشقَ الملذات؟

فمخطئٌ من يظنَّ أنَّ الحياة قد ابتسمت للنَّواسيِّ وهو في كنف الأمين؛ ومخطئٌ من يظن أنَّ أبا نواس كان مفتتنًا بسياسة عصره فينعم في أهوائه دون عقاب، وقد يغالي من يظن أنَّ روح الثورة خبت عند النَّواسيِّ، وأنَّه بات من خاصة رجال الخليفة فلن يرى بؤساً أو ظلماً أو حاجة؛ تارةً بتهمة الكفر والزندقة، وتارةً بسبب تغنيه بالخمير، وتارةً أخرى بسبب عشقه الممنوع³، وفي كلِّ مرة كان النَّواسيُّ يقاسي ظلمة الوحدة، ووحشة الاغتراب وخطر الموت. فكان لا يفتأ يستجدي ويستعطف ويتظاهر بالطاعة مضمراً التمرد، يبطن سخريته في سياق مدحه، رافضاً الرِّياء والنفاق والكذب؛ فالأمين نفسه كان متحلاً من الكثير من القيم والأحكام، وكان يقبل على الخمر ويشجع من يشربها⁴، أولاً يتضح ذلك في قول أبي نواس:

¹ الطرطوشي، محمد بن الوليد الفهري: سراج الملوك، تح: محمد فتحي أبو بكر، نق: شوقي ضيف، ط1، م2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994 م،

² ينظر: رشيد، مؤيد فاضل: شبهات حول العصر العباسي الأول، ط1، دار و الوفاء للطباعة و النشر، المنصورة، 1986، ص 18، 19.

³ ينظر: ابن منظور: أبو نواس، ص 126، 127. و ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 6، ص 295. والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 7، ص 107.

⁴ ينظر: الزعيم، أحلام: أبو نواس بين العبث والغتراب والتمرد، ص 163، 144.

{ الكامل }

مَلِكٌ أَغْرُ إِذَا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ لَمْ يَغْذُكَ التَّبْجِيلُ وَالْإِعْظَامُ¹

وقوله:

{ الطويل }

ولاحٍ لحاني كي يجيء ببدعةٍ وتلكَ لعمري خُطَّةٌ لا أُطيقُها
لحاني كي لا أشربَ الرّاحَ، إنّها تُورثُ وزراً فادحاً مَنْ يذوقُها
فما زادني الّلاخون إلا لجاجةً عليها، لأنّي ما حييتُ رفيقُها
أأرْفُضُها والله لم يَرْفُضِ اسمُها وهذا أمير المؤمنين صديقُها²

ولكنّه على الرّغم من ذلك منع عنها أبا نواس، وأمر بحبسها، فما كان من الشاعر إلا أن قال مستعطفاً:

{ الطويل }

تَحَسَّنْتَ الدُّنْيَا بِحُسْنِ خَلِيفَةٍ هُوَ الْبَذْرُ إِلَّا أَنَّهُ الدَّهْرُ مُقْمِرُ
إِمَامٍ يَسُوسُ النَّاسَ سَبْعِينَ حَجَّةً عَلَيْهِ لَهُ مِنْهَا لِبَاسٌ وَمِنْزَرُ
يُشِيرُ إِلَيْهِ الْجُودُ مِنْ وَجَنَاتِهِ وَيُنْظَرُ مَنْ أَعْطَاهُ حَيْثُ يُنْظَرُ
أَيَا خَيْرَ مَأْمُولٍ يُرْجَى أَنَا امْرُؤُ رَهِيْنٌ أَسِيرٌ فِي سَجُونِكَ مُقْفَرُ
مَضَى أَشْهَرُ لِي مَذْ حُبْسَتْ ثَلَاثَةٌ كَأَنِّي قَدْ أَذْنَبْتُ مَا لَيْسَ يُغْفَرُ
فَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَذْنَبْ فَفِيمَ تَعَقُّبِي إِنْ كُنْتُ ذَا ذَنْبٍ فَعَفْوُكَ أَكْثَرُ³

¹ أبو نواس: الديوان، ص 408.

² المصدر السابق: ص 9.

³ ينظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص 107، 108.

وقد وردت هذه الأبيات في رواية الديوان، ص 426، بقول أبي نواس :

{ الطويل }

تَحَسَّنْتَ الدُّنْيَا بِوَجْهِ خَلِيفَةٍ هُوَ الصُّبْحُ إِلَّا أَنَّهُ الدَّهْرُ مُسْفِرُ
إِمَامٍ يَسُوسُ الْمَلِكَ تَسْعِينَ حَجَّةً عَلَيْهِ لَهُ مِنْهُ رِداً وَمِنْزَرُ
يُشِيرُ إِلَيْهِ الْجُودُ مِنْ وَجَنَاتِهِ وَيُنْظَرُ فِي أَعْطَاهُ حِينَ يُنْظَرُ
مَضَتْ لِي شُهُورٌ مَذْ حُبْسْتُ ثَلَاثَةٌ كَأَنِّي قَدْ أَذْنَبْتُ مَا لَيْسَ يُغْفَرُ
فَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَذْنَبْ فَفِيمَ حَبْسَتِي وَإِنْ كُنْتُ ذَا ذَنْبٍ فَعَفْوُكَ أَكْبَرُ

لقد رفض الشاعر سياسة الخليفة تكميم الأفواه، فلجأ إلى السخرية المبطنّة ليواجه سلطان القمع والإرهاب الفكري المسلّط عليه¹، فانظر إلى قوله:

{ الخفيف }

أَيُّهَا الرَّاحِانُ بِاللُّومِ لُومَا	لا أذوق الـراح إلا شـميما
نَالَنِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَام	لا أرى لي خلافة مستقيما
فَاصْرِفَاها إِلَي سَوَايَ فَإِنِّي	لست إلا على الحديث نديما
كَبِرَ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ	أن أراها وأن أشمّ النسيما ²

وكَلَّما ضاق عليه الخناق علت وتيرة سخريته، وبات أقرب إلى فضح أساليب السّاسة والكشف عن أقنعتهم، فالشاعر يصرح بخوفه من حصار الأمين له إذ يقول:

{ الخفيف }

غَنَنا بِالطَّلُولِ كَيْفَ بَلِينَا	واسقنا نُعطِكَ الثَّناءَ الثَّمِينَا
مَنْ سُلَافٍ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ	يَتَمَنَّى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا
وَعَزَّالٌ يُدِيرُهَا بِنَبَّانٍ	ناعماتٍ يزيدها العَمَزُ لِينَا
كَلَّمَا شِئْتُ عَلَنِي بِرِضَابٍ	يَتَرَكُ الْقَلْبَ لِلسَّرورِ خَدِينَا
ذَاكَ عَيْشٌ لَوْ دَامَ غَيْرَ أَنِّي	عَفْتُهُ مُكْرَهًا وَخَفْتُ الْأَمِينَا ³

وبتهدم من حياة الدّعة والرّخاء التي نعم بها الخاصة في قصورهم، وأكره الشّاعر ومن شاكله على تركها ظلماً⁴، إذ يقول:

{ الهزج }

وَفِي الدِّيوانِ غُزْلان	رَمَتْ أَعْيَنَهَا مَرْضَى
رَبِيبَاتُ قُصُورِ الخُلْ	دِ مَا إِنَّ تَعْرِفُ العَمَضَا
وَلَا جَانِبَنَ مُذْ كُنَّ	نَعِيمَ العَيْشِ، والخَفَضَا
وَيَرْدُنَ غُرِيَّ الأَمْرِ	إِلَى أَخْوَِرَ مُسْتَقْضَى

¹ ينظر: الزعيم، أحلام: أبو نواس بين العبث والاعتراب والتمرد، ص 165.

² أبو نواس: الديوان، ص 29.

³ أبو نواس: الديوان، ص 30.

⁴ ينظر: الزعيم، أحلام: أبو نواس بين العبث والاعتراب والتمرد، ص 185.

إِمَامٍ، ظَالِمٍ فَظًّا فَمَا قَالَ بِهِ يُرْضَى
إِذَا مَا أُوتِرَ الْمَوْتُ رُمنَهم عَجَّلَ النَّبْضَا
وإنْ أَقْرَضَ ذَا هَذَا نَوَالًا عَجَّلَ النَّقْضَا¹

فانظر إلى انقلاب الشاعر على نديمه ونعته إياه بالظلم والفضاظة، وانظر إلى استهزائه من ميل الخليفة إلى الغلمان وتعلقه بهم بحيث غدا قدوة للناس، فيقول:

{ مجزوء الرمل }

احْمَدُوا اللَّهَ كَثِيرًا يَا جَمِيعَ الْمَسْلَمِينَ
ثُمَّ قُولُوا لَا تَمَلُّوا رَبَّنَا أَبْقِ الْأَمِينَ
صَبِّرِ الْخِصْيَانِ حَتَّى جَعَلَ النَّصِيبَ دِينًا
فَأَقْتَدَى النَّاسُ جَمِيعًا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ²

ولا غرو أن استهدف الأمين لأبي نواس، وسعيه لتقيد حريته، والحدّ من طلاقة الأفكار التمرّدية في أشعاره لم تكن سوى محاولة من الخليفة لإنقاذ ملكه، وإقناع من كان يسعى لعزله أن الخلافة تترفع عن الاقتران بالعابثين المتهنكين، وتتأى عن الشعراء الماجنين، ولذا سيطرت نبرة الحزن على قول أبي نواس:

{ الكامل }

يَا دَارُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْيَامَ ضَامِتُكَ وَالْيَامَ لَيْسَ تُضَامُ
عَرَمَ الزَّمَانِ عَلَى الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ بِكَ قَاطِنِينَ، وَلِلزَّمَانِ غَرَامُ
أَيَّامَ لَا أَغْشَى لِأَهْلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا مُرَاقِبَةً، عَلَيَّ ظِلَامُ
وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بَدْلُوهُمْ وَأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا
وَبُلُغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَاةَ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ³

فقد تغير حال الشاعر، وبات نزيلاً للسجون بعد أن كان نديم الخليفة الذي لا يطيق فراقه، وعانى ثقل الحديد ووهن الجسد، وضافت به الدنيا فلم يجد ملاذاً⁴.

¹ أبو نواس: الديوان، ص 717.

² المصدر السابق: ص 554.

³ أبو نواس: الديوان، ص 407، 408.

⁴ ينظر: المصدر السابق، ص 424، 517.

ما من شك أن علاقة أبي نواس بالأميين كانت في غاية التعقيد والتشابك؛ فقد أوصدت الأبواب في وجه النديم الحميم بعد أن كانت مفتوحة على مصراعيها، وغدا النواصي الذي كان يتغنى بالأمس قائلاً:

{ مجزوء الكامل }

اشرب - فديت - علانيه	أم التسيتر زانيه
اشرب فديتك، واسقني	حتى أنام مكانيه
لا تقننن بسكرة	حتى تعود بثانيه
ودع التسيتر والرييا	ء، فما هما من شانيه ¹

غدا مقموعاً مكبوتاً يؤرقه الخوف من السجن، ويضني نفسه في البحث عن وسائل يستعطف بها الخليفة ووزيره الفضل، فتارةً بعظم ذنبه قائلاً:

{ الوافر }

خلفت بربر يس وطه	وأم الآي والذكر الحكيم
لئن أصبخت ذا جرم عظيم	لقد أصبخت ذا عفو كريم ²

وتارة يدعي أنه انتعظ من سجنه فلن يقع في غلط أو سهو يدفع أصحاب السلطة إلى الريبة منه، إذ يقول:

{ الكامل }

يا فضل قد أودعتني عظة	ما بعدها غلط، ولا سهو
وبرئت مما تستريب به	فليهنني بك ذلك البرؤ
واقبل أبا العباس عذري من	لفظ الصبي مذاقه خلو
إن ضاق عفوك وهو ذو سعة	عني فليس بواسع عفو
أنت الذي ألف السامح فما	غير السامح لقلبه لهو
تغدو جميع العرض وأفره	والمال مقتصر النوى نضو ³

¹ أبو نواس: الديوان، ص 136.

² أبو نواس: الديوان، ص 458.

³ المصدر السابق: ص 458.

فانظر إلى اللغة الرقيقة التي اتكأ عليها أبو نواس ليبعد شكَّ الفضل عنه، ويشعره بصدق توبته، وبصفاء نيّته في طلب العفو، إنها لغة مغايرة لمبدأ الشاعر الذي اختار طريق المواجهة وقرّر الخروج على المألوف، ولكنها لغة مطواعة لمبتدعها توافق الحالة الشعورية التي تعتريه، وتخضع للسخرية المقتّعة التي يوردها في قصائده بقصد الكشف عن الوجه الآخر لبعض سياسي الدولة، وفي مقدمتهم الخليفة الذي كان يشرب الخمر ويقوم بالأحكام والسنن، يقول:

{ المديد }

تَضَحَّكَ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ	قَامَ بِالْأَحْكَامِ وَالسُّنَنِ
يَا أَمِينَ اللَّهِ عِشْ أَبَدًا	فَإِذَا أَنْتَ أَفْنَيْتَنَا فُكُنْ
كَيْفَ تَسْخُو النَّفْسُ عَنْكَ، وَقَدْ	قَمَتَ بِالْغَالِي مِنَ الثَّمَنِ ¹

ويقول:

{ مجزوء الكامل }

أَضْحَى الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ	لِلدَّيْنِ نُورًا يُفْتَبَسُ
وَرِثَ الْخُلَافَةَ خَمْسَةَ	وَبَخَيْرِ سَادِسِهِمْ سَدَسَ
تَبْكِي الْبَدْرُ لَضَحِكِهِ	السَّيْفُ يَضْحَكُ إِنْ عَبَسَ ²

فأي سيف هذا الذي قصده أبو نواس إن كان الأمين منهما في لهوه وعبثه، مغالياً في قصفه واستهتاره، ولم يخرج بغزوة ولم يحقق انتصاراً ؟ بل أي قنابل وقنا تلك التي عناها في قوله:

{ الطويل }

لَقَدْ أَلْبَسَ اللَّهُ السَّلَامَةَ أُمَّةً	يَكُونُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمِينَهَا
حَمَيْتَ رَحَاهَا بِالْقَتَابِلِ وَالْقَتَا	وَأَبْقَيْتَ دُنْيَاهَا عَلَيْهَا وَدِينَهَا
يَرَاكَ بَنُو الْمُنْصُورِ أَوْلَادُهُمْ بِهَا	وَمَا أَضْمَرُوا غَيْرَ التِّي يَظْهَرُونَهَا ³ ؟

لعلها أسلحة كانت تتصدى لكلمة الشاعر، وتسعى إلى كتم صوته الذي كان يحاول فضح ما تخفيه حُجُب القصور عن عيون الشعب، أولاً يعزز ذلك قول الشاعر:

¹ 1 أبو نواس: الديوان، ص 413.

² المصدر السابق : ص 417.

³ المصدر السابق : ص 414.

{ الكامل }

أَلَسْتُ أَمِينُ اللَّهِ سَيِّفُكَ نَقْمَةٌ إِذَا مَاقَ يَوْمًا فِي خِلَافِكَ مَانِقُ
فَكَيْفَ بِإِسْمَاعِيلَ يَسْلُمُ مِثْلَهُ عَلَيْكَ، وَلَمْ يَسْلَمْ عَلَيْكَ مَنَافِقُ
أَعْيَنَكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ شَرِّ كَاتِبٍ لَهُ قَلَمٌ زَانٍ، وَآخِرُ سَارِقٍ¹

فلا يعدو سيف الأمين عن كونه سلاحًا يُشهرُ في وجه كلِّ مخالفٍ للخليفة في القول أو الفعل، ولكنه مُعمى عن كاتب سرِّه (إسماعيل بن صبيح) الذي بدا وقلمه في غاية الفساد، فهو زانٍ لا يؤمِّنُ على نساء سيِّده، وسارقٌ يهوى اختلاس أموال الدولة²، وكان قد أنشأ مزرعة بخمسين ألف دينار من خزينة المسلمين، وأحسن سقايتها، فافتضح أبو نواس خيانتَه قائلاً:

{ الطويل }

بَيَّتَ بِمَا خُنْتُ الْأَمِيرَ سِقَايَةً فَلَا شَرِبُوا إِلَّا أَمْرًا مِنَ الصَّبْرِ³

فكيف يكون له هذا الموضع القريب من الخليفة، وكيف يتستر الأمين على فجراته على الرغم من علمه بها، يقول:

{ الطويل }

فَإِنْ يُسَّرَ إِسْمَاعِيلُ فِي فَجْرَاتِهِ فَلَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَائِمٍ⁴

إن النواصيَّ إذ يهجو (إسماعيل بن صبيح) لقاصد هجاء الخليفة نفسه، ففساد كاتبه مردود لفساده وسوء إدارته، وتروي بعض كتب التاريخ حادثة تبرز عبث الأمين بشؤون دولته ورعيته حين عزم النَّظَر في أمورهم في ليلة سكر اصطبح فيها الخمر مع ندمائه ومغنيه " فحضر كتاب الدواوين بأكثر ما في دواوينهم، وأقبل إسماعيل بن صبيح يقرأ عليهم، ومحمد يأمر وينهى بأحسن أمرٍ ونهيٍّ وأشدّه، وربما شاور من حوله بالشّيء بعد الشّيء، وكلّما وقّع في شيء وُضِعَ بالقرب من إسماعيل بن صبيح، ورُفِعَتِ المَوَائِدُ، ودَعَا بالنَّبِيذِ، وكان لا يشربُ في القدرِ أقلَّ من رطل واحد في تميم العمل، ثم دعا بخادم له، فناجاه بشيءٍ أسرَّهُ إليه فمضى ثم عاد، فلما رآه نهض واستنهض

¹ أبو نواس: الديوان، ص 513.

² ينظر: شلق، علي: أبو نواس بين التخطي والالتزام، ص 407، 409.

³ أبو نواس: الديوان، ص 514.

⁴ المصدر السابق: ص 514.

سليم بن علي وإبراهيم بن المهدي، فما مشوا عشرة أذرع حتى أقبل جماعة من النفاطين فضربوا تلك الكتب والأعمال بالنار، وكان الفضل بن الربيع حاضراً، فلحق محمداً وقد شق ثوبه وهو يقول: الله الله أعدل من أن يرضى أن يكون مُدبّر أمور أمة نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم من هذه أفعاله ! ومحمد يضحك ولا يُنكر على الفضل قوله " ¹.

فأيّ استهتارٍ بأمور الحكم وقضايا الشعب أعظم من ذاك الاستهتار ؟! فلا ريب إذن أن يستوحش الناس من الأميين وأن ينحرفوا عنه، وأن يميلوا إلى أخيه المأمون لحسن سيرته وطيب ذكره ².

وعلى الرغم مما تمتّع به أبو نواس من ذكاءٍ ودهاءٍ مكّناه من انتقاد سياسي عصره وكشف أستار الزيف والنفاق عنهم، فإنه كان سلاحاً في يد الفتنة التي اجتاحت أحداثها بغداد في أواخر عصر الأميين، إذ لم يعد باستطاعة الخليفة التغاضي عن زلات أبي نواس و أخطائه، ولم يعد قادراً على أن يصمّ أذنيه عما يسمعه من أذى لحق به لقربه منه، وربما ضاق ذرعاً بجرأته المعلنة التي تناول فيها على الخليفة ذاته وساواه بلثام الناس وسفهاءهم، إذ يقول:

{ الطويل }

وَمُسْتَعْبِدٍ إِخْوَانَهُ بِثَرَائِهِ	لَبِسْتُ لَهُ كِبَرًا أَبْرَ عَلَى الْكِبَرِ
إِذَا ضَمَّنِي يَوْمًا وَإِيَّاهُ مَخْفِلٌ	رَأَى جَانِبِي وَغَرًّا يَزِيدُ عَلَى الْوَعْرِ
أَخَالَفَهُ فِي شُكْلِهِ، وَأَجْرُهُ	عَلَى الْمُنْطِقِ الْمَنْزُورِ وَالنَّظَرِ الشَّزْرِ
فَوَالله لَا يَبْدِي لِسَانِي لَجَاجَةً	إِلَى أَحَدٍ حَتَّى أُغَيَّبَ فِي الْقَبْرِ
فَلَا تَطْمَعَنَّ فِي ذَاكَ مَنِّي سَوْقَةً	وَلَا مَلِكُ الدُّنْيَا الْمُحْجَبَ فِي الْقَصْرِ
فَلَوْ لَمْ أَرِثْ فَخْرًا لَكَانَتْ صَيَانَتِي	فَمَيَّ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ حَسْبِي مِنَ الْفَخْرِ ³

ورمى به في سياق غزله الإباحي فقال:

{ المنسرح }

إِنِّي لَصَبٌّ لَا أَقُولُ بِمَنْ أَخَافُ مِنْ لَا يَخَافُ مِنْ أَحَدٍ

¹ الجهشباري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب،تح: مصطفى السقط، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، ط1، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1938، ص 300.

² ينظر: أبو نواس: الديوان ، ، ص 292.

³ أبو نواس: الديوان، ص 597.

مَسَسْتُ رَأْسِي طَارَ عَنْ جَسَدِي؟!
لَأَمَلُّ أَنْ أَنَالَهُ بِيَدِي¹

إِذَا تَفَكَّرْتُ فِي هَوَايَ لَهُ
إِنِّي عَلَى مَا ذَكَرْتُ مِنْ فَرْقٍ

وقال:

{ مجزوء الكامل }

وَعَاصِبًا عِزُّ الْمُلُوكِ
لَفَتَيْكَ أَوْ تَقْبِيلِ فِيكَ
أَهْوَى هَوَاكَ وَأَشْتَهَيْكَ
تَقَعُ الظُّنُونُ عَلَيَّ فِيكَ
حَ بِمَا أَجُنُّ وَأَتَقِيكَ²

يَا قَاتِلَ الرَّجُلِ الْبَرِيِّ
كَيْفَ السَّبِيلُ لِلثَّمِّ سَا
اللَّهُ يَغْلِيهِ أَنْتَنِي
وَأَصْدُ عَنْكَ حَذَارٍ أَنْ
إِنِّي أَهَابُكَ أَنْ أَبُو

حيث يظهر النَّوَّاسِيُّ الخليفة في صورة جَبَّارٍ لا يرعوي عن البطش بأيِّ رجل بريء، وقد
بنت سطوته الرَّعْبَ في قلب الشَّاعر فلم يتمكن من البوحِ بعظم حبه له، ولربَّما ودَّ أبو نواس لو
كان الخليفة رجلًا عاديًّا يسامره ويشتهيه دون أن يتحسَّب لظنِّ أو جبروت.

لقد كان أبو نواس " يحاول بحيلته وذكائه أن يكسر دائرة الاستبداد عبر اختراقات مبتكرة³،
فامتطى صهوة خمرته ليوجه نقدًا لاذعًا لأرباب السلطة وليفصح من خلال الصور المتناقضة عن
الحقائق الخفية لفساد العصر وسادته، يقول:

{ مجزو الرمل }

يَا أَبَا الْحَرِّ سُلَافَةً
فِ عَلَيَّ يُمْنِ الْعِيَافَةِ
سَلِمْتُ مِنْ كُلِّ آفَةٍ
لِرَجَاءٍ أَوْ مَخَافَةٍ
مِنْ أَحَادِيثِ خُرَافَةٍ
فَ فِيهَا يَا ذُقَافَةٍ
بَعْدَ هَارُونَ الْخِلَافَةِ⁴

اسْنُقِي، واسْنُقِ ذِفَافَةً
واسْنُقِ رَأْسَ اللَّهْوِ وَالظُّرِّ
قَهْوَةً ذَاتَ اخْتِيَالِ
إِنْ غَيْرِي مِّنْ قَلَاهَا
هَاتِهَا جَهْرًا، ودَغْنِي
ضَاعَ بَلْ ذَلَّ الَّذِي عَنَّا
مَثَلَمَا ذَلَّتْ وَضَاعَتْ

¹ أبو نواس: الديوان، ص 425.

² ابن منظور: أبو نواس، ص 197.

³ بزيغ، شوقي: البطولة المضادة في شعر أبي نواس، ص 99.

⁴ أبو نواس: الديوان، ص 96.

فالشاعر يعلن حرباً لا مجال فيها للتراجع، وينسف ما كان بينه وبين الأمين، بل إنه يدعو عليه بالضّياع والدّل، أو ليس هو الذي أضاع خلافة أبيه وأفقداه عزّها؟! أو ليس هو الذي بدأ الحرب مع الشاعر إذ ضيّق الخناق عليه؟! أو ليس هو الذي حرّض رعيته على الزّيف والرّياء إذ حلّل لنفسه اللّهُو والملذات وحرّمها على غيره؟! ولكن هل كان حال الخلافة في عهد هارون بأصلح من حالها في عهد الأمين؟ وهل أتيح للشّاعر فيها حرية افتقدها في عهد ولده؟! وإن لم يكن ذلك، أولاً يدعو موقف الشاعر إلى تأملٍ قد يقود إلى الاستغراب؟!

فلم تكن سيرة الرّشيد على الرغم ممّا دسّ فيها من تشويه لصورة الخليفة العادل العابد مماثلةً لصورة الأمين التي تناقلتها كتب التاريخ التي أبدى بعضها تحفظاً على نقل أخباره بحُجّة سوءه وقلة ورعه¹. ولم تكن صلة النّوادي بالرّشيد مماثلةً لصلته بولده؛ إذ نال أبو نواس مكانة وقرباً من الأمين جعلته يرقى إلى مصافّ النخبة²، ولا سيّما أنّه كان مظهرًا للأمين محبة ومودة قادته إلى طاعة الخليفة في أوامره ونواهيه، يقول:

{ الكامل }

أَطْعُ الْخَلِيفَةَ، وَاغْصِ ذَا عَرْفِ	وَتَنْحَ عَنْ طَرْبٍ، وَعَنْ قَصْفِ
عَيْنُ الْخَلِيفَةِ بِي مُوَكَّلَةٌ	عَقْدَ الْحِذَارِ بِطَرْفِهِ طَرْفِي
صَحَّتْ عَلَانِيَتِي لَهُ، وَأَرَى	دِينَ الضَّمِيرِ لَهُ عَلَى حَرْفِ
فَلَنْنَ وَعَدْتُكَ تَرْكَهَا عِدَةً	إِنِّي عَلَيْكَ لَخَائِفٌ خُفِي
دَارَتْ فَوَاقِعُهَا فَنَظَرُهُ	مُتَصَنِّعٌ بِخِلَافٍ مَا يُخْفِي ³

ولكنها طاعة مشوبة بالحدّر، ومرهونة بالإجبار، فهل ساور أبو نواس شكٌّ بأنه سيغدّر يوماً ما؟! بل هل يطلق على تبدل الأحوال بين الأمين وشاعره غدر؟!!

لا شكَّ أنَّ النّوادي قد وقع فريسة للحرب الإعلامية المعلنة بين الأمين وأخيه المأمون، حيث بدا الشاعر سيفاً مسلطاً على الخليفة فكان لا بدّ من إبعاده وتقييده، وهذا أمر لم يكن يرمي إليه الأمير، ولكنَّ أوراق قوته بدأت تتساقط، وعُرى جبروته بدأت بالتمزق، وأضحت خلافته على شفير الهاوية، كما أضحي النّوادي خطراً لا سبيل للخلاص منه سوى بالسّجن، ولم يكن بيد الشّاعر

¹ ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص 295.

² ينظر: ابن منظور: أبو نواس، ص 102، 103.

³ أبو نواس: الديوان، ص 66.

سوى الصّراخ في وجه الظلم، فقد تمكّن اليأس منه، ولم تلح له بارقة أمل بالنجاة إلاّ بدخول المأمون بغداد¹، فإذا به يقول:

{ الكامل }

يا ربّ إنّ القومَ قد ظلموني	وبلا اقترافٍ مُعطّلٍ حبسوني
والى الجُودِ وما عليه طويّتي	ربّي إليك بكذبهم نسّوني
ما كان إلاّ الجزيّ في ميدانهم	في كلّ خزيّ، والمجانّة ديني
أما الأمينُ فلست أرجو دفعه	عني فمن لي اليوم بالمأمون؟! ²

ولكنّ قدر النّواصي ساقه إلى الحرّية قبل أن تدخل جيوش المأمون بغداد³، فتكثر فيها الهدم والتّحريق والتّخريب، وتدمّر البلاد، وتقوّض من شأن الخليفة الذي انفضّ عنه طلائب الجاه، وأرباب المراتب، وأصحاب الأموال والودائع والدّخائر، وحتىّ الشّعراء، وفي مقدمتهم أبو نواسي الذي بات منشغلاً عن كارثة عصره بلهوه ومُدامه، يعبّ كأساً ويسكب أخرى، ويقارع الأقداح بدلاً من السيّوف، ويتزامى بالريّحان بدلاً من النّبل والزّماح، ويستبدل صوت المعازف وتمايل الخلان بوطيس الوغى وسفك الدّماء⁴، فيقول:

{ الهزج }

إذا عبّأ أبو الهيجا	ء للهيجااء فُرسانا
وسارت رايّة الموت	أمام الشّنيخ إغلانا
وشبّت حربها واشتت	علت تلهب نيرانا
وأبدت لوعة الوقع	ة أضراسا وأسنانا
جعلنا القوس أيدينا	ونبّل القوس سوسانا
فغادت حزينا أنسا	وعدنا نحن خلانا
بفتيان يرون القت	ل في اللّذة قربانا
إذا ما ضربوا الطّبّل	ضربنا نحن عيدانا

¹ ينظر: صدقي، عبد الرحمن: أبو نواس، ص 232.

² أبو نواس: الديوان، ص 596.

³ ينظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 7، ص 110.

⁴ ينظر: صدقي، عبد الرحمن: أبو نواس، ص 246، 247.

وأجبارُ المجبانينِ	لنا تفّاحُ لبناننا
ومنشأ حزننا ساقٍ	سببا خمرا فسقانا
يحثُّ الكأسَ كي تلج	ق أحرانا بأولاننا
فهذي الحربُ لا حربٌ	تغمّ النَّاسَ عدوانا
بها نقتلهم ثم	بها ننشرُ قتلائنا ¹

وتخاذل أبو نواس عن نُصرة الأمين، بل واعترف بجبنه وضعفه، و ادّعى أنّه لا يصلح للحرب والقتال، وأبدى استعدادَه للفرارِ والهرب متى سَنحت له الفرصة، يقول:

{ المنسرح }

يا بِشْرُ ما لي والسَّيفِ والحَرْبِ	وإنَّ نَجْمِي لِلَّهِوِ والطَّربِ
فلا تثقُ بي فإنني رجلٌ	أكعُ عند اللّقاء والطَّلبِ
وإن رأيت الشُّراة قد طلّغوا	ألجمتُ مُهري من جانبِ الدُّنبِ
ولست أدري ما السَّاعدان، ولا الـ	تُرسُ، وما بينضهُ من اللَّببِ
همّي إذا ما حروبوهم غلبت	أيُّ الطَّريقين لي إلى الهَرَبِ
لو كان قصفٌ، وشربٌ صافية	مع كلِّ خُوْدٍ تختالُ في السُّلبِ
والنُّومُ عند الفتاة أرشفها	وجدتني ثمَّ فارس العرب ²

فأبو نواس منشغلٌ بعالمه الخاص حيث اللّهُو والطرب، والعيش الوادِع، واللَّذّة التي لا تنتهي، فهذا ميدانه ومعترك بطولته، وهي بطولَةٌ مناقضةٌ تمامًا لما سعى غيره من الشعراء إظهاره في قصائدهم من قدرتهم على الثّبات، وصلابتهم عند مواجهة الأعداء، وإقدامهم في ساحة المعركة، وخبرتهم بأساليب القتال.

وما عساه يفعل إن كان الخليفة على رأس اللائحة السّوداء لجيش المأمون ؟ وكيف لرجل يعشق حياة اللّهُو والملذّات أن يفتردي الخليفة بنفسه وقد ضاق عليه الخناق واشتدّ به الأمر، وبات أصدقاؤه بالأمس أعداءه اليوم، وأمسى مادحوه قادحيه بعد موته، وأخذوا يتسابقون إلى ذمّه والتّشنيع فيه وتعداد مثالبه للتّقرب من الغالب³ ؟ ولكنّ النّواصي أثر الانسحاب وتجنب هموم السياسة،

¹ أبو نواس: الديوان، ص 198.

² المصدر السابق: الديوان، ص 212.

³ ينظر: صدقي، عبد الرحمن: أبو نواس، ص 251.

والتقاعس عن فتنة ربّما لن تجرّ عليه سوى السّجن والاختناق، فبكى فراق الأمين بألم يجسد اغترابه بعده، فقال:

{ الطويل }

طوى الموت ما بيّني وبينَ مُحمّدٍ	وليسَ لما تطوي المنيّة ناشِرُ
فلا وصلَ إلّا عبْرَةً تستدِيمُها	أحاديثُ نفسٍ ما لها الدّهرُ ذاكرُ
وكنْتُ عليه أَحْذَرُ الموتِ وخَدَهُ	فلَم يبقَ لي شيءٌ عليه أَحْذَرُ
لئنَ عمَرْتُ دُورَ بَمَنْ لا أودُهُ	فقدَ عُمرتَ ممّنَ أحبُّ المَقابرِ ¹

فهو إذ يبكي الأمين يبكي نديماً عاش معه حياة حافلة بالصفاء والمودة والمحبة، وعشق الجمال على الرغم من كل ما كان فيه من منغصات. وقد أقام النّواسيّ بينه وبين الدّهر حرباً كانت الغلبة فيها للدّهر الذي أصاب تأره من الشّاعر حين قبضَ معشوقه ورفيقَ سمره². يقول:

{ الوافر }

أُعزّي - يا محمد - عنكَ نفسي	معاذُ الله والمِننِ الجسامِ
فهلّا ماتَ قومٌ لم يموئُوا	ودُفِعَ عنكَ لي أَجَلُ الحِمامِ
كأنّ الدّهرَ صادفَ منك ثأراً	أو استشفّى بهُلكِكَ من سَقامِ ³

وفي هذا انعكاس لمتانة العلاقة التي جمعت النّواسيّ بالأمين، على الرّغم ممّا تخلّلتها من احتجاجٍ وتمرد، وأصوات رافضة لسياسات أولي الأمر في إدارة الدّولة، ومدارة شؤون الرّعية، فلم يكن الشّاعر ذا منصبٍ سياسيٍّ، أو على قدر من الحنكة السياسية فيهجو أوامر السادة ونواهيهم، ولكنّه كان مُعرّضاً لفسادٍ تفتش في مجتمعه، مُدركاً لخطورة فشل سياسة حكامه وتسلب حاشيتهم. ف شعر أبي نواس منبرٌ ينقلُ صوته ويعبر عن رؤيته، ويتطابق مع أفعاله، فقد حاول الشاعر التّخلص من كلّ القيود ليرضي ذاته الثائرة على الكبت، والضّائقة بالزّيف والنّفاق.

¹ أبو نواس: الديوان، ص 581.

² ينظر: خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد، ج 1، ص 238، 239.

³ أبو نواس: الديوان، ص 578.

المبحث الثاني: الانقلاب المعرفي والمواجهة الاجتماعية في شعر أبي نواس

أولاً : شعوبية أبي نواس .

احتضن العصر العباسي الأول ألواناً من الثقافات والقوميات والمذاهب التي كانت دعامة الانبعاث الحضاري والتطور الفكري في مجتمع تصارعت فيه انقلابات ونزاعات لم تعرف في عصور سابقة. وكانت الشعوبية في مقدّمة تلك النزاعات، ومن أشدها اتصالاً بذاك التطور¹، فقد خرج المجتمع العربي من جو الاستهانة بكلّ ما هو أعجميّ إلى جو سيطرة الأعاجم²، وقد عملوا على نخر الأصول العربيّة، وزعزعة أركان حضارتها لإحداث انقلاب اجتماعي جأرت به أصوات شعرية تغنّت بأصولها الفارسية، وقدّست أفانين الحضارة الجديدة، ونادت بالمجون والإغراق في الملذّات في مقابل شتّى هجماتٍ عنيفةً على العرب وأصولهم ، وقيمهم وعاداتهم ، وحضارتهم³.

وقد تفاوتت تلك الأصوات في حدتها تبعاً لمقدار تعصبها لعنصرها ، وغلّو درجة حقدها على السيادة العربية إلى حد النّطرف ، وتحديدًا عند مقارنة الحياة الفارسيّة بمدينةها وتحضرها ونعومتها من جهة ، بالحياة العربية ببداوتها وشظف عيشها وقسوتها من جهة ثانية .

وعني دارسو الأدب العباسي بشعوبية ذلك العصر، وصنفوها إلى " شعوبية مذهبية " غالت في احتقار العرب وتسفيههم، وسعت إلى إظهارهم بصورة مزرية مثيرة للسخرية و الاستهزاء⁴، فكان شعراء هذه الشعوبية " لسانها الغاضب ، وسلاحها المسلول، وأبواقها المفتوحة، يجهرون أحياناً بالعداء، أو يستترون وراء أقنعة اللغة وكناياتها التي لا تنتضب إذا هددهم السلطان بالويل والנקال"⁵، وانضمّ إلى جانب الشعوبية المذهبية شعوبية أخرى، مثلها التّيار العايب الذي عشق الحياة بكلّ مظاهر الرّقة والنعمومة واللّهو واللّذة التي شاعت فيها. وقد رُمي كثير من الشعراء

¹ ينظر : خليف ، يوسف : الشعر والحياة الاجتماعية في القرن الثاني الهجري ، ص 82 .

² ينظر : شلق ، علي : أبو نواس بين التخطي والالتزام ، ص 369 .

³ ينظر : الساريسي : عبد الرحمن : الشعر العربي في العصر العباسي ، دار حنين للنشر والتوزيع ، ص 85 .

⁴ ينظر : خليف ، يوسف : الشعر والحياة الاجتماعية في القرن الثاني الهجري ، ص 84 .

⁵ قدورة ، زاهية : الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ص 110 .

المجان في ذلك العصر بهذا الضرب من الشعبوية بسبب نزعاتهم التجديدية ، وثوراتهم على الحياة الخشنة المجذبة¹.

وكان بشار بن برد النافخ الأكبر في أبواق الشعبوية المذهبية ؛ بسخطه وتهكمه على العرب ، إذ إنه كان شاهداً على ما عاناه بعض الموالي من اضطهاد وعنصرية أيام الأمويين ، وشهد تغير أوضاعهم وارتفاع منزلتهم في عهد العباسيين ، ومثلت أشعاره تفرغاً لما اعتل في داخله من حقد وبغض ومرارة ، وعكست سعادته بتدهور أحوال العرب ، وانتصار الفرس عليهم². ويعرض هذا المبحث للانقلاب في المفاهيم الاجتماعية والحضارية في شعوبية أبي نواس مركزاً على موقفه من :

1- الأنساب العربية .

2- الأطلال .

3- العادات ، والمظاهر الاجتماعية التي شاعت في مجتمعه .

فقد رأى بعض النقاد في تعصب أبي نواس للفرس وحضارتهم، وحطه من شأن العرب وتقاليدهم شعوبية محضة لا تقل عن شعوبية بشار³؛ حيث يورد في أشعاره دعوات صريحة يجاهر فيها ببغضه العرب، ويظهر سخرياً لاذعةً من حياتهم، ووسائل عيشهم، ويدعو إلى التمتع بالحياة المترفة بحوائجها الغناء، وملذاتها الوافرة ، وخمرتها التي تسلب الألباب وتتوغل في الروح، وغلمانها أولي الحسن، وجواربها اللواتي يتمايلن على إيقاع عزف الكؤوس في الخمرات والديارات، فلا تقاس الأطلال والدمن بالبساتين والخمرات والقصور، و لا ترتقي ألبان العرب إلى الخمرة المعنقة الصافية، يقول الشاعر:

¹ ينظر : عيسى ، حكمت : شعر المجون في القرن الثاني الهجري بين الإبداع والزندقة والشعبوية ، ص 213 .

² ينظر : خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ص 35 .

³ ينظر : مندور ، محمد : النقد المنهجي عند العرب ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ص 79 . و حسين ، طه : حديث الأربعاء ، ج 2 ، ص 90 . و التطاوي ، عبد الله : القصيدة العربية قصائد واتجاهات ، ص 139 . و شلق ، علي : أبو نواس بين التخطي والالتزام ، ص 378 .

{ الوافر }

دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْفِيهَا الْجَنُوبُ وَتَبْلِي عَهْدَ جِدَّتِهَا الْخُطُوبُ
وَحُلَّ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ أَرْضًا تَخُبُّ بِهَا النَّجِيبَةُ وَالنَّجِيبُ
بِلَادَ نَبْتِهَا عَشْرَ وَطْلَحَ وَأَكْثَرُ صَايِدِهَا ضَبْعٌ وَذَيْبُ
دَعِ الْأَلْبَانَ يَشْرِبُهَا رَجَالُ رَقِيقُ الْعَيْشِ بَيْنَهُمْ غَرِيبُ
فَأَطْيَبُ مِنْهُ صَافِيَةٌ شَمُولُ يَطُوفُ بِكَاسِهَا سَاقِ أَدِيبُ
فَهَذَا الْعَيْشُ لَا خِيَمَ الْبَوَادِي وَهَذَا الْعَيْشُ لَا اللَّبَنَ الْحَلِيبُ
فَأَيْنَ الْبَدْوُ مِنْ إِيوَانِ كِسْرَى وَأَيْنَ مِنَ الْمِيَادِينِ الزُّرُوبُ ؟¹

1- موقف أبي نواس من الأنساب العربية

وَيَرْجِعُ سَبَبُ شُعُوبِيَّةِ أَبِي نَوَاسٍ إِلَى نَسَبِهِ الْفَارِسِيِّ² ؛ فَقَدْ كَانَ مَجْتَمَعُ الشَّاعِرِ مُعْتَرِكًا
لِلْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ ، يُلَحِّحُ الْحَاحَا عَنِيقًا عَلَى تَقْسِيمِ النَّاسِ إِلَى مَوَالٍ ، وَعَرَبٍ ، يَتَفَاخَرُونَ بِجُذُورِهِمْ
الْعَدْنَانِيَّةِ أَوْ الْقُحْطَانِيَّةِ ، وَيَتَنَازَعُونَ الْإِنْتِمَاءَ إِلَى عَرَبِ الشَّمَالِ أَوْ عَرَبِ الْجَنُوبِ ، وَبَلَغَ بِهِمُ التَّنَافُسُ
إِلَى تَقْسِيمِ شَرَفِ الْإِنْتِسَابِ إِلَى الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ بَيْنَ الْعُلُوِّيِّينَ وَالْعَبَّاسِيِّينَ ، وَمَضَى أَبُو نَوَاسٍ بَاحِثًا عَنْ
نَسَبِ عَرَبِيٍّ يَرْتَقِ فِيهِ تَمَزُّقُهُ ، وَيَدَارِي فِيهِ إِحْسَاسَهُ بِالضِّيقِ وَالْإِغْتِرَابِ³ ، فَتَارَةً يَنْتَمِي إِلَى الْيَمَنِ ،
إِذْ يَقُولُ :

{ الوافر }

وَحَمَّارٍ طَرَقْتُ بِلا دَلِيلٍ سَوَى رِيحِ الْعَتِيقِ الْخَسِرَوَانِي
فَقَامَ إِلَيَّ مَذْعُورًا ، يَلْبِئِي وَجُونَ اللَّيْلِ مِثْلُ الطَّيْلِ سَانِ
وَقَالَ : " أَمِنْ تَمِيمٍ ؟ " قُلْتُ : كَلَّا وَلَكِنِّي مِنَ الْحَيِّ الْيَمَانِي⁴

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 11 ، 12 .

² ينظر : ابن منظور : ملحق الأغاني ، ص 12 ، 13 . و قدورة ، زاهية : الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص 112 .

³ ينظر : العقاد ، عباس محمود : أبو نواس ، ص 110 . وعيد ، رجاء : أبو نواس شاعر ظلمه قومه ، ص 130 ، 131 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 88 .

وتارة ينقلب على اليمينيين وينتمي إلى نزار ، وينتسب إلى الفرزدق ¹ ، ويدّعي أنه من بني تيم اللات، وأنه ينتسب ولد عبيد الله بن زياد تارة أخرى ² ، ولكنه عندما فشل بات منقلباً عليهم جميعاً واشتدت أهاجيه فيهم ، فقال :

{ البسيط }

قالوا ذَكَرْتَ دِيَارَ الْحَيِّ مِنْ أَسَدٍ لَا دَرَّ دَرَكٌ قُلْ لِي مَنْ بَنُو أَسَدٍ
وَمَنْ تَمِيمٌ ، وَمَنْ قَيْسٌ وَإِخْوَتُهُمْ لَيْسَ الْأَعَارِبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
دَغْ ذَا عَدِمْتِكَ ، وَاشْرَبْنَا مُعْتَقَةً صَفْرَاءَ تُغْنِقُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالزَّيْدِ ³

وتراه يطعن الأسر ذات النفوذ ، ويُعرضُ بالقبائل العربية حاطاً من شأنها مستخفاً بقيمتها ، مستسخفاً بعقلية الأعراب أبناء البادية ، وما في حياتهم من جفاء وخشونة ⁴ ، يقول :

{ المنسرح }

وَاهْجُ نِزَارًا وَأَفِرْ جُنْدَتَهَا وَهْتَكَ السَّثْرَ عَنْ مَثَابِهَا
أَمَّا تَمِيمٌ فَغَيْرُ دَاحِضَةٍ مَا شَلَّشَ الْعَبْدُ فِي شَوَارِبِهَا
وَقَيْسٌ عَيْلَانٌ لَا أُرِيدُ لَهَا مِنَ الْمَخَازِي سِوَى مَحْرِبِهَا
وَلَمْ تَقَفْ كَلْبُهَا بَنُو أَسَدٍ عبيدَ عَيْرَانَةٍ وَرَاكِبِهَا
وَمَا لِبَكْرِ بْنِ وائِلٍ عَصَمٌ إِلَّا بِحَمَقَائِهَا وَكَاذِبِهَا
وَتَغْلِبُ تَنْدُبُ الطُّوَلِ وَلَمْ تَشَأَرْ قَتِيلًا عَلَى ذَنَائِبِهَا
نِيَلْتُ بِأَذْنَى الْمُهُورِ أَخْتَهُمْ قَسْرًا وَلَمْ يَدَمْ أَنْفُ خَاطِبِهَا ⁵

فلا يسرّ أبا نواس الانتماء لأولئك العرب الذين يتفاخرون بأنسابهم وأحسابهم دون أن يضيفوا شيئاً للحضارة ، فليس قاطنوا تلك القبائل سوى سفهاء يرعون الغنم ، ويأكلون الضّب ، وليسوا سوى غلاظٍ شدادٍ ظلام ، فيقول :

¹ ينظر : ابن منظور : أبو نواس ، ص 34 .

² ينظر : صدقي ، عبد الرحمن : أبو نواس ، ص 50 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 46 .

⁴ ينظر : الفخوري ، حنا : تاريخ الأدب العربي ، المكتبة البوليسية ، بيروت، 1953، ص 402 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 508 ، 509 .

{ الطويل }

إذا ما تَمِيمِي أَتَاكَ مُفَاخِرًا فَقُلْ عَدَّ عَنْ ذَا ... كَيْفَ أَكُلُّكَ لِلضَّبِّ
إذا ابْتَدَرَ النَّاسُ الْفَعَالَ فَخَذُ عَصَا ودَغِدَعُ بِمَعزَى يَابْنِ طَالِقَةَ الذَّرْبِ
وَأَمَّا بُنُو دُرَوَانَ وَالْحَيُّ كَاهِلٌ فَمَنْ جُلْدَةٍ بَيْنَ الْحَزِيمَيْنِ وَالْعَجَبِ
فَخَرْنُكُمْ سَفَاهَا أَنْ غَدَرْتُمْ بِرَبِّكُمْ فمَهْلًا بَنِي اللَّكْنَاءِ فِي كَبَةِ الْحَرْبِ
فَأَنْتُمْ غَطَارِيسُ الْخَمِيسِ إِذَا غَزَا غَدَاؤُكُمْ تِلْكَ الْأَخَاطِيطُ فِي التُّرْبِ¹

لقد حاول أبو نواس التصدي لتيارات عصره ، و صدّ تدافع موجاته ، فتراه ناقماً متمرداً على كلّ مظهرٍ لا يروق له ، ولا يلائم هواه ، و لم تكن العصبية القبليّة إلا إحدى تلك المظاهر ؛ فالشاعر شخصية أرادت ترك بصماتها و إثبات تميّزها في عالمها و ما تلاه من العوالم ، فلا ريب أن تدفع به حالة الإبداع ليظهر كلّ ما يعتمل في نفسه من مشاعر متباينة كان سببها نظام اجتماعي هو في نظره غير عادل ، فكيف لأبي نواس أن يقنع بذاك النظام بعد أن أدرك عقم محاولاته في التماس نسب عربي² ؟ وكيف له أن يقوّض ذاته الرافضة لتمييز ليس له أساس حضاريّ أو حداثة ثقافيّة ؟

ولمواجهة تلك العصبية أعدّ أبو نواس لساناً غاضباً ساخطاً مفاخرًا لا بنسبه العربي وإنّما بنسبه الفارسي ، إذ إنّ الفرس لا يفخرون بأحسابهم ، و لا يعتدون بأرومة قبائلهم ، ولا يتباهون بعشائرتهم ولكّتهم كانوا شديدي الإدلال بالترف وبتطور الحضارة³ ، فيما ظلّ العرب " أعراباً بدواً يحيون بأجسادهم في المدينة وأرواحهم لا تزال عالقة بحبّ كل بيدائيّ بدائيّ ، ومشاعرهم ونمط تفكيرهم وطرز عيشهم لا تزال هناك في الصّحراء تقلّد ساكنيها وشعراءها ، وتعزف من بحورهم الرّملية و الشعريّة فلا تأخذ إلّا القذا والسراب " ⁴ ، و لذا كان لا بدّ للشاعر من عقد مقارنة بين التّقدم الفارسيّ و التّأخر العربيّ ، مرتكزاً على الخمرة الفارسيّة بوصفها إشعاعاً للحضارة و رمزاً للتّطور ، يقول :

¹ أبو نواس: الديوان ، ص 510 ، 511 .

² ينظر : عيد ، رجاء : أبو نواس شاعر ظلّمه قومه ، ص 131 .

³ ينظر : قدورة ، زاهية : الشعويّة وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص 112 .

⁴ شرف الدين ، خليل : أبو نواس ، ص 180 .

{ الطويل }

والرَّاحُ فِي رَاحِي ، وَرُحْتُ أَهِيْمُ
وَفَخَّارُهُمْ فِي عَشْرَةِ مَعْدُومِ
طَابَتْ ، وَطَابَ لَهَا أَخٌ وَحَمِيمِ
فَلَهْنٌ فِي خَلِّ الدِّيَارِ رُسُومِ
وَعَنِ الشَّامِلِ حَدَائِقُ وَكُرومِ
بَدَرْتُ إِلَى ذِكْرِ الْفَخَّارِ تَمِيمِ
سُبِّيتَ تَمِيمِ ، وَجَمَعُهُمْ مَهْزُومِ
شَرًّا ؛ فَمَنْطِقُ شَرِيهِمْ مَذْمُومِ
بِتَذَلٍّ ، وَتَهْيِيبِ مَوْسُومِ¹

رَاحَ الشَّقِيُّ عَلَى الرُّبُوعِ يَهِيْمُ
وَلِفَارسِ الْأَخْرَارِ أَنْفَسُ أَنْفَسِ
قَالُوا الصَّبُوحُ فَقُلْتُ : أَكْرَمُ مَشْهَدِ
فِي رَوْضَةِ لَعَبِ النَّعِيمِ بِحُورِهَا
فَعَنِ الْيَمِينِ جَدَاوِلُ مَنْسُوقَةٍ
وَإِذَا أَنْادِمُ عُصْبَةً عَرِيَّةً
وَعَدْتُ إِلَى قَيْسٍ ، وَعَدْتُ قَوْسَهَا
وَيُنُو الْأَعَاجِمُ لَا أَحَاذِرُ مِنْهُمْ
وَجَمِيعُهُمْ لِي حِينَ أَقْعُدُ بَيْنَهُمْ

والخمر شراب الأكاسرة الملوك ، قارعها أجداد أبي نواس قبل أن تدور النجوم في أفلاكها²،

إذ يقول :

{ الطويل }

فقال : " عَرُوسٌ كَانَ مِسْرَى رَبِيبَهَا مَعْتَقَةً ، مِنْ دُونِهَا الْبَابُ وَالسَّتْرُ"³

فأيّ تراث ذاك الذي تفخر به بكرّ وتميم ؟ و أيّ عيش ذاك الذي يتناولون به على _

الفرس _ بني الأحرار الذين لا يشرفون بالانتماء للعرب ، ولا يمدون بصلة لأنسابهم ، يقول

الشاعر :

{ الوافر }

حَوَى فِي الْحَسَنِ غَايَاتِ الرَّهَانِ
مَعَ الْأَغْرَابِ مَجْدُوبِ الْمَكَانِ
وَشَرِبَ مِنْ حَفِيرٍ فِي شَنَانِ⁴

مَعَاقِرُ الْمُدَامِ بِوَجْهِ ظَبْيٍ
أَلَذُّ إِلَيَّ مِنْ عَيْشِ بَوَادٍ
فُصَارَى عَيْشِهِمْ أَكْلٌ لِضَبٍّ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 193 ، 194 .

² ينظر : العقاد : أبو نواس ، ص 114 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 100 . وينظر : ص 73 ، 102 .

⁴ المصدر السابق : ص 103 . والشَّان : القرية الصَّغِيرَة .

ويقول على لسان الخمار:

{ الطويل }

فقلنا له: "ما الاسم؟" قال: "سموأل". على أنني أكنى بعمرو ولا عمرا
وما شرفني كنية عربية ولا أكسبني سناء ولا فخرا
ولكنها خفت وقللت حروفها و ليست كآخرى إنما خلقت وقرا¹

ولعل تلك الأبيات تعكس روحاً شعوبية صارخة هاجم فيها أبو نواس الكنية العربية ،
وجعلها موضع ازدراء وسخرية ، فهي في نظره لا تمثل شرفاً و لا عزة ، وإنما اتخذت لخفة لفظها
فقط ، فلماذا يتصارع الناس على الانتماء لأهلها أو الولاء لهم ² ؟ ولذا ترى الشاعر معادياً
ساخرًا لكل من أراد أن يلتمس لنفسه نسباً عربياً يخفي فيه نسبه الأعجمي ، فما المانع من اعتزاز
الموالي بذواتهم ؟؟ ولماذا لا تحارب تلك العقدة التي التصقت بهم على الرغم من الانفتاح
والتحضر؟! يقول :

{ البسيط }

الحمد لله هذا أعجب العجب يا هيثم بن عدي صار في العرب !
ولست من طيء إلا على شغب إذا نسبت عدياً في بني ثعل
فقدّم الدال قبل العين في النسب

الله أنت فما قربي تهمة بها
فلا تزال أخا حل ومرتحل
إلا اجتليت لها الأنساب عن كذب
إلى الموالي وأحياناً إلى العرب³

فهل تظن يا هيثم بن عدي أنّ لهتك وراء نسب عربي سيرفع عنك وضاعتك ويعلي من
قيمتك ؟ وهل تعتقد أنّ اجتهادك هذا سينفي عنك أن تكون من الأدعياء ؟! يقول :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 61 .

² التطاوي ، عبد الله ، القصيدة العباسية قضايا واتجاهات ، ص 137 ، 140 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 524 .

{ الوافر }

مررت بهيتم بن عدي يومًا وقد آليت أن أهجو دعيًا
فأعرض هيتم لمّا رآني كأيّ قد هجوت الأدياء
ولقد رأى أبو نواس في تنكر بعض الموالى ومحاولتهم الاستعراب نفاقًا وتلونًا يدعو إلى
الاشمئزاز ، فقال معايرًا الفضل الرقاشي :

{ مجزوء الرمل }

قلت يومًا للرقاشي (م) وقد سبّ المـوالى
ما الذي نحاك عن أض لك من عمّ وخال
قال لي : قد كنت مؤلى زمنًا ثمّ بدّا لي
أنا بالبصرة مؤلى عريبيّ بالجبال
أنا حقًا أدعـيهم لسـوادي وهـزالي²
وقال في ذمّ (أشجع السلمي)³ :

{ الخفيف }

قل لمن يدعي سليمى سفاها لست منها ولا قلامه ظفر
إنما أنت من سليمى كواو ألحقت في الهجاء ظلمًا بعـمرو⁴
ولم تقتصر سخريه أبي نواس على أدعياء النسب فحسب ، وإنما طالت النسابين أيضًا ،
وفي هذا يقول :

{ الطويل }

أبا منذرٍ ما بال أنسابٍ مذحج مرجمة دوني ، وأنت صديقي

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 523 .

² المصدر السابق ، ص 571 .

³ أشجع بن عمرو السلمي ، شاعرٌ فحلّ من قيس عيلان ، ينظر : الزركلي : الأعلام ، ج 1 ، ص 331 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 545 .

فإن تأتني يأتيك ثنائي ومذحتي وإن تأب لا يُسَدِّد عليَّ طريقِي¹

فهو يعبث ب (ابن الكلبي)² ، نسابة ذلك العصر ، ويغرق في تنكّره للعرب والسخط على أنسابهم³ .

فهل قصد أبو نواس من وراء ذلك أن يتخلص من عقدة التّسبب لضعّة نسبه ، أم أنّه أراد أن يردم عادةً اجتماعيّة كانت سبباً في بثّ الفرقة وإذكاء العصبية ؛ لتحول أنظار مجتمعه إلى مظاهر الحضارة الجديدة والدّعوة إلى الافتتان برقّتها وتألّقها ؟ أم أنّه كان يسعى لمحاربة داءٍ يسمّى بـ " عصاب الماضي " الذي يدعو إلى التّشبّث بالقديم والاطمئنان داخل أسواره ، والرّهبة من كلّ دعوة لتحطيم النموذج والانقلاب عليه⁴ ؟

إنّ أبا نواس صاحب ثورة تجديدية ، ولم يرق له يوماً أن يكون من أنصار القديم لا في شكل حياته و لا مضمونها ، وهذا ما انعكس على قصائده التي واجه بها الواقع ، فمضى يتصيد عثرات التقاليد الاجتماعية التي كانت ولا تزال مبعثاً لافتخار العرب وعلو كعبهم بين الأمم الأخرى ، مثبّثاً فشلها وتخلفها أمام شعلة الحضارة ، وعجلة التقدم ، فما الانتساب إلى بطون القبائل العربية وأفخاذها سوى قيودٍ انبثقت من رحم الجاهلية ، وهدفت إلى تقويض الإبداع ، والحدّ من التّقدّم ، ولذا كان لا بدّ من رفضها والتحرر منها ، فهي ليست سمة " لمجتمع المستقبل " ⁵ ، و ليست باعثاً على التّجديد ، فلماذا لا يقتدي العرب بالفرس ويعمدون إلى إخراج أنفسهم من أغلال الماضي ، وينسجمون مع الحداثة ؟!

و لذا بات أبو نواس ساخرًا من العرب شامتًا بهم ؛ فتارة يصفهم " ببني الرّعناء " ، فيقول :

{ البسيط }

ببلدةٍ لم تتصلّ كلّ بها طُنبًا إلى خباء ، ولا عبسٌ وذُبيانُ

¹ أبو نواس ، الديوان ، ص 602 .

² ابن الكلبي : هشام بن محمد أبي النصر بن السائب بن بشر الكلبي ، أبو منذر ، المؤرّخ ، عالمٌ بأنساب وأخبار العرب كأبيه ، من أهل الكوفة ، ت - 204 هـ ، ينظر : الزركلي : الأعلام ، ج 8 ، ص 87 ، 88 .

³ ينظر : حسين ، طه : خصام ونقد ، ط 9 ، دار العلم للملايين ، 1979 م ، بيروت ، ص 243 .

⁴ ينظر : أدونيس : زمن الشعر ، ص 142 .

⁵ المرجع السابق ، ص 142 .

أَرْضُ تَبَنَّى بِهَا كَسْرَى دَسَاكِرُهُ فَمَا بِهَا لِبْنِي الرَّغْنَاءِ إِنْسَانُ¹
وتارةً ينعتهم " بالأشقياء " ، فيقول :

{ البسيط }

عَاجَ الشَّقِيِّ عَلَى دَارٍ يُسَائِلُهَا وَعَجْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَّارَةِ الْبَلَدِ²
ويغالي بالحطّ من شأنهم والتندر منهم ، في مقابل إعلائه شأن الفرس ، وتغنيه بأنسابهم وحضارتهم، ألم يسمهم بـ " بني الأحرار " ؟ ألم يرَ أنهم أكرم النفوس وأنبلها ؟³ ، يقول :

{ الوافر }

تُرَاثًا عَنْ أَوَائِلِ أَوْلَيْنَا بَنِي الْأَحْرَارِ أَهْلُ الْمَكْرَمَاتِ⁴
فلا عجب إذن أن يؤثر الانتماء لخمרתهم على الانتماء العرقيّ السائد في مجتمعه ، وأن يتبع إلهامه الذاتي الذي جعله في طليعة المتمردين ؛ ليؤكد تعاليه وانفصاله عن فكر عصره⁵ ، يقول :

{ الوافر }

أَنَا ابْنُ الْخَمْرِ مَالِي عَنْ غِذَاهَا إِلَى وَقْتِ الْمَنِيَّةِ مِنْ فِطَامِ
وَأَسْقِيهَا مِنَ الْفَتْيَانِ مِثْلِي فَتَخْتَالُ الْكَرِيمَةُ بِالْكَرَامِ⁶

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 127 . وقد ورد هذا البيت في رواية أخرى ، إذ يقول :

{ البسيط }

أَرْضُ تَبَنَّى بِهَا كَسْرَى مَسَاكِنَهُ فَمَا بِهَا لِبْنِي اللَّخْنَاءِ إِنْسَانُ

قيل : " فبنو الأحرار عندهم العجم ، وبنو اللّخناء عندهم العرب ؛ لأنهم من ولد هاجر وهي أمة ، وقد غلطوا في هذا التأويل وليس كلّ أمة يقال لها اللّخناء ، إنّما اللّخناء من الإماء الممتهنة في رعي الإبل وسقيها وجمع الحطب ، وإنّما أخذ من (اللّخن) وهو نتن الريح ، يقال : (لَخَنَ السَّقَاءُ إِذَا تَغَيَّرَ رِيحُهُ) " ، ابن عبد ربّه : العقد الفريد ، ط 2 ، ج 3 ، القاهرة ، 1952 م ، ص 409 ، 410 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 46 ، وينظر : ص 139 .

³ ينظر : شرف الدين ، خليل : أبو نواس ، ص 190 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 209 .

⁵ ينظر : نافع ، عبد الفتاح : أضرب الرّفْض في خمريات أبي نواس ، مجلة إريد للبحوث والدراسات ، م 1 ، ع 1 ، 1998م ، ص 55 .

⁶ أبو نواس : الديوان ، ص 374 .

ولا عجب أن يختار النّوَّاسيّ من النّدماء ما يتفق وذاته المنفلتة من التقاليد والتّبعيّة ، ومن يجاريه في البحث عن طيب الأصل بالانتماء إلى الكرم ، فيقول :

{ الوافر }

لَأَنَّ الْكَرَمَ مِنْ كَرَمٍ وَجُودٍ وماء الكرم للرجل الكريم
ونادِمٌ إِن شَرِبْتَ أَخَا مَعَالٍ فإن الشُّربَ يَجْمُلُ بِالْقُرُومِ
وَإِنَّ الْمَرَّةَ يَصْحَبُ كُلَّ جِيلٍ ويُنسَبُ في المُدامِ إلى النّديم¹

ويقول :

{ البسيط }

والقومُ إخوانٌ صدقٍ بينهم نسبٌ من المودّة ما يرقى له نسبٌ
تراضَعُوا دُرَّةَ الصَّهْبَاءِ بَيْنَهُمْ وأوجبوا لنديم الكأس ما يجب²

لقد عمل أبو نواس على التّخلص من قيود النّسب ، وبدا جاداً في وضع أسس جديدة للمنادمة والمسامرة تحتكم إلى الخمر التي كانت أول من عادى ذكر الأنساب والأحساب في مجلسها ، ولذا يقول :

{ المديد }

لا تشينها بالتي كرهت فهي تأبى دغوة النّسب³

ولأنّ الخمر تبغض الاتصال بالأنساب فعلى النّدماء التّمسك بآداب المنادمة ، وفي مقدمتها ترك الفخار ، إذ يقول :

{ الوافر }

وثالثُها وإن كنت ابنَ خيرٍ ال بريّةً محتدًا ، تركُ الفخار⁴

ويقول لافتاً النّديم إلى ضرورة تخيير الجلاس ، وتجنب التعريض بعيوب النّاس ؛ لأنّ في ذلك مخالفةً لآداب مجلس المنادمة :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 144 .

² المصدر السابق ، ص 192 .

³ المصدر السابق ، ص 678 .

⁴ ابن منظور : أبو نواس ، ص 185 .

{ الكامل }

نَفْسُ الْمُدَامَةِ أَطْيَبُ الْأَنْفَاسِ
فَإِذَا خَلَوْتَ بِشَرْبِهَا فِي مَجْلِسٍ
فِي الْكَأْسِ مَشْغَلَةٌ وَفِي لَذَاتِهَا
صَفْوُ التَّعَاشُرِ فِي مَجَانِبَةِ الْأَدَى
أَهْلًا بِمَنْ يَحْمِيهِ عَنْ أَنْجَاسٍ
فَاكْخُفْ لِسَانَكَ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ
فَاَجْعَلْ حَدِيثَكَ كُلَّهُ فِي الْكَاسِ
وَعَلَى اللَّيْلِ تَخْيِيرَ الْجُلَاسِ¹

ولكن أي عيوب تلك التي قصدها أبو نواس ، وأي أذى ذاك الذي دعا إلى مجانبته ؟ لا شك أنه كان يخشى أن يعيره ندماءه بوضاعة نسبه ؛ فطلب منهم أن يكفوا عن الافتخار بأبائهم وأجدادهم ، وأي شيء كان سيؤذي التواسي أكثر من الطعن في نسبه ؟! فلقد هجاه الرقاشي قائلاً:

{ الرَّمْل }

نَبِطِي فَإِذَا قِيلَ لَهُ
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِنْ كَانَ بِهِ
وَاضِعًا نَسَبَتُهُ حَيْثُ اشْتَهَى
وَهَاجِمُهُ اللَّاحِقِي ، فَقَالَ مَشْكُكًا فِي نَسَبِهِ :
أَنْتَ مَوْلَى حَكَمٍ قَالَ : أَجَلُ
لَا حَقَّكَ فَاللَّهُ أَغْلَى وَ أَجَلُ
فَإِذَا مَا رَابَهُ رَيْبٌ رَحَلُ²

{ المجتث }

أَبُو نَوَاسَ بْنَ هَانِي
وَالنَّاسُ أَفْطَنُ شَيْءٍ
إِنْ زِدْتُ حَرْفًا عَلَيَّ ذَا
وَأُمُّهُ جُلْبَانِ
إِلَى دَقِيقِ الْمَعَانِي
يَا صَاحِبَ فَاقْطَعْ لِسَانِي³

وقوله :

{ مجزوء الرمل }

هَانِي الْجُـوْنُ أَبـُوهُ
سَائِلِ الْعَبَّاسِ وَاسْمَعْ
عَجَنُوا مِنْ جُلْبَانِ
زَادَهُ اللَّهُ هَوَانًا
فِيهِ مِنْ أُمَّكَ شَانَا
لِيَكِي دُوكَ عَجَانَا⁴

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 221 . وينظر : ص 123 .

² ابن منظور : ملحق الأغاني ، ج 25 ، ص 34 .

³ ابن منظور : أبو نواس ، ص 36 .

⁴ المصدر السابق : ص 36 .

وكان السفهاء والعيّارون يصيحون به كلما مرّ بهم يقولون :

{ المجتث }

أَبُو نُـوَاسٍ الـيَمَانِي وَأُمُّهُ جُلَيْبٌ بَنُ
(وَالنَّغْلُ) أَفْطَنُ شَيْءٍ إِلَى حُرُوفِ الْمَعَانِي

وقصدوا بـ(النَّغْلِ) أبا نواس¹ .

فماذا عساه يفعل وقد اتخذ نسبه مطيّة لهجائه والتقليل من شأنه ؟! ولم يكن لأبي نواس أن يتغاضى عن شتمه ، ولم يكن له أن يقنع بقيود فرضها عليه مجتمعه ، وإن حاول مجاراتهم في بعض المواضع ، يقول :

{ الطويل }

وَنَدْمَانِ صِدْقٍ مِنْ خُزَاعَةٍ فِي الذَّرَا أَغَرَّ ، كَضُوءِ الصُّبْحِ ، حُلُو الشَّمَائِلِ²
ويقول :

{ الطويل }

طَرِبْتُ إِلَى خُمَرٍ ، وَقُصِفِ الدَّسَاكِرِ وَمَنْزِلِ دَهْقَانٍ⁴ بِهَا غَيْرُ دَائِرِ
بِفَتِيَانِ صِدْقٍ مِنْ سَرَاةِ ابْنِ مَالِكٍ وَازِدِ عَمَانَ ذِي الْغُلَى وَالْمَفَاخِرِ⁵
ولكنّه غدا مستعيضًا عن أنساب العرب بطلبه من الدهقان أن يتبتّاه ، فالانتساب إليه في نظر الشاعر أصلح من اللهث وراء نسب عربي لقبيلة لم يعرف أهلها يومًا نعيمًا ولا رخاءً ، وفي هذا انقلابٌ على المألوف ، يقول :

{ مجزوء الخفيف }

اسْئَلْنِي يَا بَنَ أَدْهَمَا وَاتَّخِذْنِي لَكَ ابْنَ مَا

¹ أبو نواس: الديوان، ص 37 .

² المصدر السابق : ص 185 .

³ الدسكرة : كلمة فارسية ، وتعني " بناءً شبه قصر حوله بيوت ، والجمع دساكر ، تكون للملوك وقيل : بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي " . الجواليقي ، أبو منصور : المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، تح: ف. عبد الرحيم ، دار القلم، ط1، دمشق ، 1990 ، ص 310،311 .

⁴ الدهقان : زعيم فلاحي العجم ، ورئيس الإقليم أو القرية . ينظر : المصدر السابق ، ص 303 .

⁵ أبو نواس : الديوان : ص 208 . وينظر : ص 175 .

اسْنُقْنِيهَا سَلَاْفَةً
اسْنُقْنِيهَا وَغَنِّ صَوُّ
لَيْسَ فِي نَعْتِ دِمْنَةٍ
سَبَقَتْ خَلْقَ آدَمَ
تَا - لَكَ الْخَيْرُ - أَعْجَمَا
لَا وَ لَا زَجْرَ أَشْأَمًا¹

فالصوت الأعجمي هو ما كان ينشده أبو نواس ؛ لأنّ المباهج أكثرها أعجمية ، ولأنّه يقدّر الحياة بملذّاتها ومسرّاتها ، ولأنّه يسعى جاهداً لردم الهوة التي اختلقها عصره بين المثقّف الواعي ومدّعي الثقافة ، بين المتحضر الذي يعي زمنه ، ومن يعيش في غير زمنه ² ، ولم يعدم الشّاعر وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه . فكانت خمرته بما خلع عليها من صفاتٍ أعجميّة مثلاً للنمرد ، ومسألة لاتهامه بالشّعوبية الثائرة على العرب بتفاصيل حياتهم ، إذ إنّ أبا نواس لم يعادِ أنساب العرب فحسب ؛ وإنّما اعترض على عاداتهم وتقاليدهم ، وأساليب عيشهم ، وبالمقابل لم يتعرّض لمفاضلة عقليّة ، ولم يتطرق لتعداد مناقب جوهريّة تفرّق العرب عن الفرس ، وتحكم بالأفضليّة للعنصر الأعجمي بناءً على تفوق عقليّ أو تميّز عرقيّ ³ ، فجلّ ما كان يلفت الشّاعر متعلّق بالتطور الحضاريّ ، والازدهار العمراني ، والتطور المدنيّ . وهذا ما عكسه موقفه من الأطلال .

2- موقف أبي نواس من الأطلال .

لم تمثل كأس أبي نواس حاجة جسدية ، وضرورة نفسية فحسب ؛ وإنما كانت باعثًا على الابتكار ، ومنبعًا للتحويلات ، ومحفزًا للثورة ⁴ ، وتوظيفًا للمقلوب المتمرد الذي يهاجم القديم ، ويدعو إلى هدمه ، ويرفع لواء الحرية الفردية والمجتمعية ، ويرفض النموذج الموحد الذي يحطم القدرة الفنية ، ويقوّض الإبداع .

¹ أبو نواس: الديوان، ص 80 .

² ينظر : نافع ، عبد الفتاح : **أضرب الرقض في خمريات أبي نواس** ،، مجلة إريد للبحوث والدراسات ، م 1 ، ع 1 ، 1998 ، ص 56 . و عطوان ، حسين : **مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول** ، ص 113 .

³ حسين ، حسني محمود : *الشَّعْوَبيَّة في شعر أبي نواس* ، مجلَّة المورد ، م 9 ، ع 1 ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1980 م ، ص 73 .

⁴ ينظر : فاضل ، جهاد : *قراءة جديدة لأبي نواس* ، الفكر العربي ، (معهد الإنماء العربي) ، م 4 ، ع 26 ، 1982 م ، ص 260 .

لقد أراد أبو نواس أن يعيش زمانه ، وأن يوصف بالشاعر المحدث ؛ باختراقه الأساليب القديمة وقضائه على النظم السائدة ، وتحطيم الأشكال التقليدية اجتماعية كانت أو أدبية¹ ، وأراد أن يبيت في مجتمعه روح التجديد ، فثار على الأطلال ، ورفض قدسيته ، ومزق الهالة التي تحيط بها ، بل وسفّه الواقفين عليها ، فقال :

{ الطويل }

أيا باكي الأطلالِ غَيْرَهَا البلى بكيت بعينٍ لا يجفُّ لها غَرْبُ
أَتَنَعْتُ دارًا قد عَفَتْ ، وَتَغَيَّرَتْ فإني لما سالت من نَعْتِها حَرْبُ²

إنها حربٌ على صوت الصحراء ، بقفراها وخشونتها وعلى ساكنيها البدو بقسوتهم وغلظتهم ، وثقل عيشهم ، ودعوة للتغني برفاهية الحضارة والإقبال على رقي العيش الذي لم توفره حياة البعل التي عاشها الأعراب ، يقول :

{ البسيط }

ليست لذهل ولا شيبانها وطنًا لكنّها لبني الأحرارِ أوطانُ
وما بها من هشيم العربِ عَرْفَجَةٌ ولا بها من غذاء الغربِ خُطبانُ
لكن بها جُنُارٌ قد تَفَرَّعَ آسٌ ، وكَلَّلَهُ وَرْدٌ وَرِيحَانُ
فإن تنسّم من أزواجها نسَمًا يومًا تنسّم في الخيشومِ ريحانُ³

إذ يصف الشاعر بلدةً فارسيةً يستبعد أن تصلح يومًا لسكنى العرب ، فهي تعتبق بنسائم الورد والآس ، وتكلّل بالسّوسن والريحان ، وهي لا تمت للعرب بصلة ، فهم متّصلون بحياة الجذب والقحط ، ولا يعرفون سوى الهشيم والعرفج ، ولا يجيدون سوى الوقوف على الأطلال البائدة دون أن يجنوا شيئاً من ذلك ، فما فائدة البكاء على ما عفر واندثر ؟ يقول :

{ المنسرح }

لا تَبْكِ رَسَمًا بِجَانِبِ السَّنَدِ ولا تُجْدُ بالدموعِ للجَرْدِ
ولا تُعْرِجْ على مُعْطَلَةٍ ولا أثافِ خَلْتُ ، ولا وتَدِ

¹ ينظر : نافع ، عبد الفتاح : أضرب الرّفض في خمريات أبي نواس ، ص 49 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 10 .

³ المصدر السابق: ص 127 . الهشيم : يابس كلّ كالأ وكلّ شجر . العرفج : مفردا عرفجة ، و هو شجر ينبت بالبادية . الخطبان : حبات الحنضل والعرب تأكلها في المجاعة .

وَمِلْ إِلَى مَجْلِسٍ عَلَى شَرَفٍ الْكَرْخِ بَيْنَ الْحَدِيقِ ، مُعْتَمِدِ
 مَمَّهْدٍ صُفِّفَتْ نَمَارِقُهُ فِي ظِلِّ كَرِيمٍ مُعَرَّشٍ خَصِدِ
 قَدْ لَحَفْتُكَ الْغُصُونُ أَرْدِيَةً فَيَوْمَكَ الْغَضُّ بِالنَّعِيمِ نَدِي¹

إنَّ أبا نواس شاعرٌ يؤثرُ النِّعَمَ على الشَّقَاءِ ، ويدعو إلى نبذِ البُؤْسِ والحرمانِ ، فيقول :

{ الرمل }

اتْرِكِ الْأَطْلَالَ لَا تَغْبَأْ بِهَا إِنَّهَا مِنْ كُلِّ بُؤْسٍ دَانِيَةٌ²
 ويدعو إلى الإقبال على الخمر التي تحقق اللذة ، وتحمل شاربها إلى عالم الغبطة
 والسعادة، فشتان بين من يبتاع خمراً يلدّها بها ، وبين من يبكي الحجارة والصحراء ، يقول :

{ الطويل }

عَاجَ الشَّقِيِّ عَلَى دَارٍ يُسَائِلُهَا وَعُجِبْتُ أَسْأَلُ عَنْ خَمَّارَةِ الْبَلَدِ
 لَا يُزْقَى اللَّهُ عَيْنِي مَنْ بَكَ حَجَرًا وَلَا شَفَى وَجَدَ مَنْ يَصْبُو إِلَى وَتَدِ
 دَعُ ذَا عَدِمَتِكَ وَاشْرِبْهَا مُعْتَقَةً صَفْرَاءَ تُغْنِقُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالزَّبَدِ³

ويجري الشاعر محاكمة عقلية بين ما يؤمن به من اندفاع نحو الحياة المتحضرة المرسفة في
 اللّين ، وبين ما دعا إليه سابقوه وبعض معاصريه من وقوفٍ على الدّمن والآثار ، وسؤالها
 واستنطاقها عن المحبوبة التي رحلت دون أن تترك أثرًا لعاشقها ، فهل ستجيب تلك الديار ؟
 يقول أبو نواس :

{ مجزوء الرمل }

قِفْ بِرَبْعِ الظَّاعِنِيَا وَابْكِي إِنْ كُنْتِ حَزِينَا
 واسْأَلِ الدَّارَ مَتَى فَا رَقِيتِ الدَّارُ الْقَطِينَا
 قَدْ سَأَلْنَاهَا ، وَتَأَبَى أَنْ تُجِيبَ السَّائِلِينَا⁴

وكيف ستقف يا من شهد الحضارة ، وعاصر التقدم ، وسكن المدائن ، ونهم من الملذات
 والمتع على أطلال بائدة سمعت بها دون أن تراها عيناك ؟ يقول :

¹ أبو نواس: الديوان، ص 172 .

² المصدر السابق: ص 119 .

³ المصدر السابق : ص 46 .

⁴ المصدر السابق : ص 31 .

{ الكامل }

فَعَلَامَ تَذْهَلُ عَنْ مُشْغَشَعَةٍ وَتَهَيِّمُ فِي طَلَلٍ وَفِي رَسَمِ
تَصِفُ الطُّلُولَ عَلَى السَّمَاعِ بِهَا أَفْذُو الْعَيَانِ كَأَنْتَ فِي الْعَلَمِ ؟
وَإِذَا وَصَفْتَ الشَّيْءَ مُتَبَعًا لَمْ تَخُلْ مِنْ زَلَلٍ ، وَمِنْ وَهْمٍ¹

فإن كنت قد أثرت الوهم على الحقيقة فأنت مخادع لنفسك ، ومنتحل شخصاً غير شخصك²
إذ أنت تعمي عينيك عما يحيط بك من قصور ، وحداثق ، ورياض مزدانة بالزهور والأقاحي ،
متجاهل كؤوس شراب مضاء بالآلئ محاطة بالدر ، تجلي الهموم ، وتنفس البلاء ، وترفع الكرب ،
إذ يقول :

{ البسيط }

مَالِي بَدَارٍ خَلْتُ مِنْ أَهْلِهَا شُغْلُ وَلَا شَجَانِي لَهَا شَخْصٌ وَلَا طَلَلُ
وَلَا رَسُومٌ ، وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ لِلْأَهْلِ عَنْهَا ، وَلِلْجِرَانِ مُنْتَقَلُ³

وأبو نواس يرفض أن يؤمن بما لم يره بعينه ، ولم يعاينه يقيناً ماثلاً أمامه ، ويرفض البيداء
المقفرة والخيام المنصوبة يحيط بها الضبّ والحرباء والورل ، وتسعى في جنباتها الأقاعي ، ولا
يسمع فيها سوى نعيق الغراب ، وتعج أرضها بالشيوخ والعوسج ، وكل ما يوحى باليأس والشؤم
والخراب ، ويدعو إلى إهمالها ، وعدم السؤال عن أحوالها ، فهي لا تستحق ذلك ؛ لأنها لن تسمع
كلامك ، ولن تردّ سلامك ، وهذا ما لم نألفه عند غيره من الشعراء ، فيقول :

{ السريع }

ابْخُلْ عَلَى الدَّارِ بِتَكْلِيمِ فَمَا لَدَيْهَا رَجْعُ تَسْلِيمِ
وَالْعَنُ غُرَابَ الْبَيْنِ بَغْضًا لَهُ فَإِنَّهُ دَاعِيَةُ الشَّوْمِ
وَعُجْ إِلَى النَّزْجِ عَنْ عَوْسَجِ وَالْأَسِ عَنْ شَيْحٍ وَفَيْصُومِ
وَاعْدُ إِلَى الْخَمْرِ بِإِبَانِهَا لَا تَمْتَنِعْ عَنْهَا لِتَحْرِيمِ
فَمَنْ عَدَا الْخَمْرَ إِلَى غَيْرِهَا عَاشَ طَلِيحًا عَيْنَ مَحْرُومِ⁴

¹ أبو نواس: الديوان، ص 58 .

² ينظر : نافع ، عبد الفتاح : أضرب الرفض في خمريات أبي نواس ، ص 49 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 698 ، 700 .

⁴ المصدر السابق ، ص 155 .

فالأولى بك أيها الداعي إلى الوقوف على الظلل البائد أن تعدل عنه ، وأن تستبدل دماره بكل ما ينشر الطيب ، ويبعث على الراحة والسرور ، وأن تيمم وجهك شطر الخمر فتميل إليها بأحاسيسك ومشاعرك وأن تجعلها أولى اهتماماتك ، فما بالك تبكي على من مات واختفت آثاره؟ يقول :

{ المنسرح }

لا تبك ربعا عفا بذى سلم ويثر آثارة يذ القدم
وعج بنا نجتلي مخررة نسيما ريح غبر ضرر¹

لقد اختفت تلك المعالم وأصبحت يبابا ، فلا يعد وصفها سوى كذب وإغراب² ، ولذا لا ريب أن يعادي الشاعر أولئك المتكسبين الذين ابعثوا عن الصدق الفني، وألزموا أنفسهم بما درج عليه سابقوهم بأن " أحسن الشعر أكذبه " ، وأن ينقلب على مذهبهم بتهكم وسخرية لاذعة ، إذ يقول :

{ الرمل }

قل لمن يبكي على رسم درس واقفا ما ضرر لو كان جلس
اترك الريح ، وسلمى جانباً واصطح كرخية مثل القبس³

وأن يستنكر مبدأهم باستحضار مظاهر الصحراء الجافة المجافية للذة والبعيدة عن الحضارة والمدنية ، فيقول :

{ السريع }

أحسن من سير على ناقة سير على اللذة مقصور⁴

ولا ريب أن يوظف ما دعا إليه توظيفاً مقلوباً يخدم أفكاره ومذهبه الفني ، فيقول :

{ البسيط }

عج للوقوف على راح وريحان فما الوقوف على الأطلال من شاني

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 189 . وينظر : ص 133 .

² ينظر : حسين ، حسني محمود : الشعوبية في شعر أبي نواس ، ص 69 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 134 .

⁴ المصدر السابق ، ص 15 .

لَا تَبْكِينَ عَلَى رَسْمٍ وَلَا طَلَلٍ وَأَقْصِدْ عُقَارًا ، كَعَيْنِ الدَّيْكِ ، نَدْمَانِي¹

فالشاعر لا ينسجم مع الطلل لأنه لا يحاكي شخصيته الواقعية الحية التي لا ترى في الماضي سوى فناء وموتٍ وتعاسة ، ولا ترى في الوقوف على الطلل سوى حرمانٍ يقيد المتع التي أباحها العصر ووفرها التطور² ، وهو لا يستطيع أن يمسك نفسه عن عالم اللذة ، وأن يمنعها من الغوص في عالم المتعة والجمال ، عالم الخمر الذي لا يفوقه عالم ولا يحدُّ أفقه حدود، فهو الأجدر بالوقوف عليه والبكاء على المنع والحرمان منه ، فيقول :

{ الطويل }

لَقَدْ جُنَّ مَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ مَنْزِلٍ	وَيَنْدُبُ أَطْلَالًا عَفَوْنَ بِجَرَوَلٍ
فَإِنْ قِيلَ مَا يُبْكِيكَ قَالَ : حَمَامَةٌ	تَنُوحُ عَلَى فَرْخٍ بِأَصَوَاتٍ مُغُولٍ
تَذَكِّرُنِي حَيًّا حِلَالًا بِقَفْرَةٍ	وَأَخِيَّةٍ شَدَّتْ بِفَهْرٍ وَجَنْدَلٍ
وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى الرَّاحِ إِنَّهَا	حَرَامٌ عَلَيْنَا فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ ³

لقد نشد أبو نواس الداء والدواء ، وبكى معشوقته التي هام بها فلم تمنحه يومًا إلا الغبطة والسرور ، وهي بذلك تتفوق على معشوقات الشعراء اللواتي لم يخلفن في نفوس عاشقيهم سوى الأسى والحزن ، فعلام يلوم الناس أبا نواس ؟ يقول :

{ البسيط }

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ	وَدَاوِنِي بِأَلْتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا	لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ
لِتِلْكَ أَبْكِي ، وَلَا أَبْكِي لِمَنْزِلَةٍ	كَانَتْ تَحِلُّ بِهَا هِنْدٌ وَأَسْمَاءُ
حَاشَا لِدَرَّةٍ أَنْ تُبْنَى الْخِيَامُ بِهَا	وَأَنْ يَرْوَحَ عَلَيْهَا الْإِبِلُ وَالشَّاءُ ⁴

واستعان الشاعر بالناقة لتحمله إلى حانة الخمر حيث اللذة والمتعة ، فهي ليست مطية للوصول إلى أماكن الجذب والقحط ، يقول :

¹ أبو نواس: الديوان ، 113 .

² ينظر : نافع ، عبد الفتاح : أضرب الرفض في خمريات أبي نواس ، ص 50 ، 52 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 679 . وينظر : ص 36 .

⁴ المصدر السابق ، ص 6 ، 7 .

{ الوافر }

وَحَمَّارٍ حَطَّطْتُ إِلَيْهِ لَيْلًا قَلَائِصَ قَد وَنِينَ مِنَ السَّفَارِ¹

لقد أبى الشاعر أن يكون شقيًا ، ورفض أن يكون عبدًا للتقاليد ، واعترض على المذهب القديم ، فثار على الأطلال وكلّ ما يرتبط بها من صحراء ونباتات وحيوانات ، وكلّ ما يدلّ على الخشونة والجفاف ، وصرخ أمرًا تارةً وناهيًا تارةً أخرى ؛ لينأى بنفسه ومعاصريه عن القيم السائدة البائدة المتحجرة التي لا تخضع لتبديل أو تغيير² ، وليصل إلى مرفأ النعيم ، حيث الجنان الوافرة الظلال ، والخمر المعتقدة الصافية ، والراحة التي لا تُمل ، ولذا يقول :

{ الكامل }

اغْدِلْ عَنِ الظَّلَلِ المَحِيلِ ، وعن هَوَى
ودَعِ العَرِيبَ ، وَاخْلُهَا مع بُوْسِهَا
نَعْتَ الدِّيَارِ وَوَصَفِ قَدْحِ الأَزْوَادِ
لِمَحَارِفِ أَلِفِ الشَّقَاءِ ، مُزْنَدِ
وَأَفْصِدْ إِلَى شَطِّ الفُرَاتِ ، وعَاطِنِي
قَبْلَ الصَّبَاحِ وعَاصِ كُلَّ مُفْنَدِ³

3- موقف أبي نواس من بعض الظواهر الاجتماعية .

كانت الشعبية سيفًا مسلطًا على عنق أبي نواس ؛ بسبب وصفه المدن التي كانت تجري تحتها الأنهار ، وتزخر بالأزهار والزياحين ، وتعجّ بوسائل اللهو والرقص والغناء ، ولتغنيّه بالتصاوير الأعجميّة التي حملتها كؤوس الشراب ، واحتفائه بالأعياد الفارسيّة ، ونسجه من ألفاظٍ فارسيّة حلية توشّح بها شعره ، وحفلت بها قصائده⁴ ، "قالإسفنط ، والمرزبان ، والطرجهار ، والآذريون ، والقرطق ، والدسكر ، والدروق ، والدرياق ، والجلنار ، والبوس ، والديباج ، ألفاظٌ لا بدّ للمتجولّ في شعر أبي نواس أن يتعنّز بها ، وقد يستعصي عليه حصرها ، ولا سيّما أنّ معجم أبي

¹ أبو نواس: الديوان ، ص 77 . ونين : تعين . وينظر ، ص 93 .

² ينظر : نافع ، عبد الفتاح : أضرب الرفض في خمريات أبي نواس ، ص 50 . و حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 46 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 168 . والمفند : المخطئ في رأيه والكاذب في قوله .

⁴ ينظر : عطوان ، حسين : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، ص 113 . و حسين ، محمود حسني : الشعبية في شعر أبي نواس ، ص 73 ، 74 . و خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، ص 57 .

نواس اللفظي مفتتن بكل ما هو وافد دخيل يحمل معه كل ما يرسم ملامح الحياة الجديدة ويوضح معالمها " ¹ ، فانظر إلى قوله في وصف كؤوس الشراب :

{ الطويل }

تُدار عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ حَبْنَهَا بِأَلْوَانِ النَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتِهَا كَسَرَى ، وَفِي جَنَابَتِهَا مَهَّأ تَدْرِيبَهَا بِالْقَسِيِّ الْفَوَارِسُ
فَلِخْمَرٍ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جِيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ ²

وتراه يوظف أمثالا فارسية تعكس إعجابه بثقافة الأعاجم ³ ، فيقول :

{ المنسرح }

سَأَلْتُهَا قُبْلَهُ فَفَزْتُ بِهَا بَعْدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ
فَقُلْتُ بِاللهِ يَا مُعَذِّبَتِي جُودِي بِأُخْرَى أَقْضِي بِهَا أَرْبِي
فَابْتَسَمَتْ ، ثُمَّ أَطْلَقَتْ مَثَلَا يَعْرِفُهُ الْعُجْمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ
لَا تُعْطِيَنَّ الصَّيْبِيَّ وَاحِدَةً يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ ⁴

وفي عيد النيروز ، يقول :

{ الطويل }

يَبَاكَرُنَا النُّورُوزُ فِي غَلَسِ الدُّجَى بَنُورٍ عَلَى الْأَغْصَانِ كَالْأَنْجَمِ الزُّهْرِ
يَلُوحُ كَأَعْلَامِ الْمَطَارِفِ وَشَيْهٍ مِنْ الصَّفَرِ فَوْقَ الْبَيْضِ وَالْخَضَرِ وَالْحَمَرِ
إِذَا قَابَلْتَهُ الرِّيحُ أَوْ مَا بِرَأْسِهِ إِلَى الشَّرْبِ أَنْ سَرُّوا ، وَمَالَ مِنَ السُّرْرِ
وَمَسْمَعَةٍ جَاعَتْ بِأُخْرَسٍ نَاطِقٍ بَغَيْرِ لِسَانٍ ظَلَّ يَنْطِقُ بِالسَّحْرِ ⁵

والنوروز أو النيروز عيد الربيع عند الفرس ، ويعني : " اليوم الجديد " ، وقد كان يطلق

فيه الفرس احتفالاتهم ؛ لأنه يؤذن بمقدم الربيع ، ويرمز إلى التجدد والشباب ⁶ . ويقول متغنياً "

¹ حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 55 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 37 . وينظر : ص 146 ، 157 .

³ ينظر : خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، ص 57 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 274 . وينظر : المرزباني : الموشح ، ص 321 .

⁵ المصدر السابق ، ص 222 .

⁶ ينظر : صدقي ، عبد الرحمن : أبو نواس ، ص 57 .

بيوم رام " وهو اليوم الحادي والعشرون من كل شهر ، كان يحتفل فيه الفرس، يلهون ، ويتبادلون
كؤوس الشراب¹ :

{ الخفيف }

ولرام فضّل على الأيام	اسنقنا ، إنّ يؤمنا يوم رام
شوق في وجه عاشقٍ بابتسام	من شرابٍ ألدّ من نظر المع
ء عليها بمسّتهلّ الغمام	في رياضٍ ربيّة ، بكر النوا
من فرادى نباته ، وثوام	فتوشّت بكلّ نورٍ أنيق
يتحسّون خسرويّ المدام ²	فترى الشرب كالأهله فيها

وذاك المثالان ليسا إلا غيضاً من فيض ؛ فلقد صاغ أبو نواس من أدوات عصره ما يمثل
عالمه الخاص ، وحشد في قصائده ألفاظاً تخدم أفكاره وتؤيّد مبادئه ، فما حياة المبدع ومدلول
الإبداع سوى وسيلة ترسم معالم الحقيقة النهائية التي ينبغي التسليم بها³ ، وهذه الحقيقة ترى أنّ أبا
نواس صوتٌ مميز وروحٌ صافية تحمل من مقومات الجرأة والصدق الفني ما يمكنها من غزو البنية
القديمة للمجتمع ، والخروج عن المألوف إلى مألوفٍ آخر ، بإلغاء القيم والعادات القديمة ، واختلاق
أعراف جديدة ، دعائمها الحرية وحق العيش في عالمٍ متناغم مع الأفكار التحررية ، ومنسجم مع
أدوات الحضارة التي تخترق القيم السائدة وتحقق السعادة ، وتطرد الهموم⁴ . ولذا يقول :

{ البسيط }

لا خير في العيش إلا بالمدام مع ال	أكفّاء في الورد والخيري والاس
ومسمع يتغنى ، والكؤوس لها	حسّ عليها بأخماسٍ وأسُداس
" يا مُوري الزند قد أعيت قوادحهُ	اقبس إذا شئت من قلبي بمقبّاس ⁵ "

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 69 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 69 .

³ ينظر : الحميداني ، حميد : قراءة في شعر أبي نواس ، مجلة جذور ، م 5 ، ج 9 ، 2002 ، ص 34 ، 35 .

⁴ ينظر : حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 51 . و شرف الدين ، خليل : أبو نواس ، ص 185 . و عطوان ، حسين : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، ص 113 . و عيسى ، حكمت : شعر
المجون في القرن الثاني الهجري بين الإبداع والزندقة والشعوبيّة ، ص 224 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 140 . وينظر : ص 692 ، 160 .

لقد كان أبو نواس - على حدّ تعبير طه حسين - فرداً يمثّل ظاهرة اجتماعيّة نسجتها تأثيراتٌ مختلفة ¹ ، وتلك التأثيرات حدث بالشّاعر إلى التفكير والتأمّل ، وحفزته على الإبداع الذي ارتبط بالنشاط الحضاريّ ، والمظاهر الجديدة لسلوك الأفراد في عصر المجون واللهو ، فاستغلّ الشاعر تلك المظاهر أمثل استغلال ، وعزّف أنغاماً شعوبيّة على قيثارة الافتتان بالحضارة الفارسية وعمد إلى تلوين أشعاره بأصباغٍ مختلفة ² ، أظهرت إيثاره لملايس الفرس ، ومظهرهم ، وطريقة تصفيف شعرهم ، فهو يقول :

{ الخفيف }

أَشْتَهِي السَّاقِيَيْنِ ، لَكِنْ قَلْبِي	مُسْتَهَامٌ بِأَصْغَرِ السَّاقِيَيْنِ
لَيْسَ بِاللَّابِسِ الْقَمِيصِ ، وَلَكِنْ	ذِي الْقَبَاءِ الْمُعْقَرِ الصُّدْعَيْنِ
الَّذِي بِالْجَمَالِ زَيْنَهُ الَّلَّ	هُ ، وَحُسْنِ الْجَبِينِ وَالْحَاجِبَيْنِ
خَرَسَنُوهُ ، وَمَا دَرَى مَا خُرَاسَا	نُ بِلَبْسِ الْقَبَاءِ وَالْمِزْرَيْنِ ³

حيث يصف الشّاعر ساقياً ألبس رداءً خراسانياً يحكي معالم جسده ، كما أنّه " عُقْرَب " شعره على صدغيه فبدا في غاية الجمال ، ما ميزه عن غيره من السّاقين ، وجعله أثيراً لدى الشاعر ، فيقول :

{ البسيط }

نَازَعْتُهَا وَاضِحَ الْخَدَّيْنِ ، مَعْتَدِلًا	يَحْكِي بِبَهْجَتِهِ لِلنَّاسِ بَلْقِيَسَا
مَقْرَظَقَ ، خَرَسَنَوْهُ فِي حَدَائِثِهِ	لَمْ يُغْدَ وَاللَّهِ فِي مَزْوٍ وَلَا طُوسًا! ⁴

والقرطق لباسٌ فارسيّ ، وقد خُرسن به ذاك الغلام على الرّغم من أنّه لم ينشأ في خراسان ، ولم يربّ فيها ⁵ ، وهذا دليل على شيوع تلك الملايس في مجتمع أبي نواس ، إذ إنّها لم تعد حكرًا على الفرس وحدهم .

¹ ينظر : حسين ، طه : خصام ونقد ، ص 257 .

² ينظر : الخواجة ، إبراهيم شحادة : شعر الصّراع السياسي في القرن الثاني الهجري ، ط 1 ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع ، الكويت ، 1984 م ، ص 290 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 136 .

⁴ المصدر السابق: ص 203 .

⁵ يقال : غذوت الصّبّي فاعتذى ، أي ربيته ، والتغذية : التربية ، ينظر : ابن منظور : لسان العرب ، ج 15 ، مادة [غَذَا] ، ص 119 .

ويعصف الشاعر الزنار الذي كان يشده المجوس والنصارى على أوساطهم يميزون به ملابسهم ، ويظهرون به محاسنهم ، فيقول :

{ البسيط }

حتى إذا نقلت كاساتها خُرْدٌ من بين ذي قُرْطِقٍ ، أو ذات زَنَارٍ
جاءت بمشْرِقةٍ تُهدى السَّراةُ بها إن ضلَّ في ظلمةٍ عن قصده السَّاري¹

كما يعرض الشاعر حلياً كان يتقلدها أولئك الغلمان ، ويزدانون بها على نحوٍ مغايرٍ لما كان عليه رجال العرب قبل العصر العباسي ؛ حيث عُرفوا بالجدة والخشونة ، فيما اختصت أدوات الزينة بالنساء وحدهن . يقول أبو نواس :

{ مجزوء الرمل }

اسقني الرّاح على وج هِ رَأَيْتُهَا نَظِيفًا
مِنْ وَصِيفٍ بِأَبِي ذَا كَ وَبِالْأَمِّ وَصِيفًا
مِنْ مَهَا الدِّيوانِ قَدْ قُلَّ دَ شَـذَرًا وَشُـنُوفًا
لَابِسًا فَوْقَ الْقَمِيصِ ال جَوْنِ قُبْطِيٍّ خَفِيفًا²

وكان أولئك الغلمان يعلّقون زهر (الآذريون) ، وهو زهرٌ أصفر طيب الرائحة على آذانهم، لا سيّما إن كانوا في مجلس الشّراب ، وفي هذا يقول الشاعر :

{ الخفيف }

ولهم من جنّاه آذريونٌ وضّعه مواضع الأقلام³

وكانوا يُلقون على أنفسهم حلّة من ياسمين ، يقول أبو نواس :

{ مجزوء الرمل }

بيدي ساقٍ عليه حلّة من ياسمين
وعلى الأذنين منه وزدت آذريون⁴

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 150 . وينظر : ص 46 ، 82 ، 160 ، 305 ، 683 .

² المصدر السابق: ص 369 . الشّذر : قطع من الذهب أو حبات صغار من اللؤلؤ ، والشنوف : جمع شنف وهو القرط والقبطي : نوع من الأثواب المصرية .

³ المصدر السابق: ص 69 .

⁴ المصدر السابق ، ص 70 .

ويعمد أبو نواس إلى تفصيل طرق تصفيف الشعر المتبعة لدى الغلمان إذ يقول :

{ البسيط }

معقرب الرأس ، كالمسراج ، صنعته سحر ، وما مسّه تعقيد سحر¹

فذاك الغلام قد جعل شعره معقوفاً كذنب العقرب ، دقيقاً في أعلاه ، منتقخاً في أسفله كالسراج² ، ولعل تلك الطريقة كانت شائعةً لتصفيف الشعر عند الخراسانيين ، إذ إن الشاعر كرر وصفها في غير موضع ، وقد ربطها بخراسان³ . وفي وصفه طريقة أخرى لتصفيف الشعر ، يقول :

{ السريع }

يا ذا الذي يخطر في مشيئته قد صفف الشعر على جبهته
وسرح المنزر من خلفه ودقق البان على وفرتة⁴

حيث سوى ذاك الغلام شعره على جبهته ، ودققه على جانب أذنيه ، فبدأ كأنه بدر تام في وسط ليل مظلم ، وفي هذا يقول :

{ البسيط }

كأنما وجهه و الشعر ملبسه بدر تنفس في ذي ظلمة داج⁵
ومن الغلمان من أطال شعره ، وأرسله على ظهره فأخذ يتيه ببهائه وجماله على العباد ، وفي هذا يقول :

{ الوافر }

بنفسي من يعدبني هواه كذاك وليس لي أمل سواه
يتيه على العباد بحسن وجهه وشعر قد أطل على قفاه
وأصدغ يرصفها أميري على خد تلالاً وجنّاه⁶

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 152 .

² المصدر السابق : ص 152 .

³ المصدر السابق : ص 220 . وينظر : ص 15 ، 320 ، 337 .

⁴ المصدر السابق : ص 314 .

⁵ المصدر السابق : ص 317 . وينظر : ص 342 .

⁶ المصدر السابق : ص 349 . وينظر : ص 32 .

ومنهم من صفف شعره على هيئة حلقاتٍ تشبه حرف الواو ، وأطال أطرافه ولواها فأصبحت على هيئة حرف الفاء ، يقول الشاعر :

{ البسيط }

قَدْ كَسَّرَ الشَّعْرَ وَاوَاتٍ ، وَنَضَّدَهُ فوق الجبين ، وردَّ الصُّدْغَ بِالفاءِ¹

ولم يكن ما أظهره أبو نواس في أشعاره من طرق تصفيف الشعر أو الملابس مقتصر على الغلمان وحدهم ؛ بل إنَّ الفتيات الغلاميات كنَّ يتشبهن بالغلمان في ملابسهنَّ وقصَّ غداثرهنَّ ، ولذا يقول الشاعر :

{ الرجز }

عَذَّبَنِي حُـبُّ غُلَامِيَّاتٍ
ذَوَاتِ أَصْنَـدَاغٍ مُعَفَّرَاتٍ
مَقُومَاتِ الْقَدِّ ، مَهْضُومَاتِ
يَمْشِينَ فِي قُمْصٍ مُزَرَّرَاتٍ²

لا بدَّ أنَّ أبا نواس سعى لإظهار مجتمعه بصورة مكتملة الخطوط والألوان ، وكان لوسائل الحضارة ، وما طرأ على المجتمع من تغيُّر الأثر الأبرز في بهاء تلك الصورة وزهو ألوانها ، وكان لريشة الشاعر دورٌ في عرض أدوات الثقافة الوافدة التي لم تقتصر على الملابس ، وطرق تسريح الشعر ، والحليّ ، والجواهر ، وإنَّما تعدتها لتبرز ما كان يتزين به الجواري والغلمان من أصباغ ، ومساحيق كالزَّواق ، والكحل ، والحناء ، التي حضرت في أبيات أبي نواس ، فيقول :

{ الطويل }

غُلَامِيَّةٌ فِي زِيَّهَا ، بَرَمَكِيَّةٌ مزوَّقَةُ الْأَصْدَاغِ ، مَطْمُومَةُ الشَّعْرِ³
ويقول واصفاً توسِّم الغلمان بالحناء :

{ البسيط }

مَقَرَّطٌ ، وَافِرُ الْأُرْدَافِ ، ذُو غُنْجٍ كأنَّ في راحتيهِ وَسْمٌ حِنَاءٍ⁴

¹ أبو نواس: الديوان، ص 702 .

² المصدر السابق: ص 166 ، 167 . وينظر : ص 278 .

³ المصدر السابق: ص 264 .

⁴ المصدر السابق : ص 701 .

ويقول مفتتًا بجمال جارية تدعى " نبات " :

{ البسيط }

أَمَّا نَبَاتٌ فَقَدْ أَضَحَتْ مَخْضِبَةً وَالشَّعْرَ مَفْتَرِقٌ بِالْبَانِ مَغْسُولٌ
قَالَتْ : تَعَلَّيْتُ بِالْحَنَاءِ ، قَلْتُ لَهَا : مَا بَالَتَّطَارِيفِ بِالْحَنَاءِ تَعْلِيلُ
هَذَا التَّطَارِيفِ مِنْ غَنَجٍ وَمِنْ عَبَثٍ كَمَا زَعَمْتَ فَمَا لِلطَّرْفِ مَكْحُولُ؟
قَالَتْ كَحِلْتُ بَعْدَ الْعَيْنِ مِنْ رَمَدٍ فَقُلْتُ عَذْرًا فَمَا لِلشَّعْرِ مَبْلُولُ؟¹

فقد خضبت " نبات " أصابعها بالحناء ، واكتحلت في تيه ودلال ، وغالت في تطيب شعرها إذ غسلته بالبان فأضحت فتنة تشغل الناس ، كما شغلت الشاعر فأضحى متغنياً بجمالها وجمال من شاكلها من الجواري والغلمان ، ممن أسرفوا في التطيب ، واستخدام أدوات الزينة ² .

ثانيًا : موقف أبي نواس من المرأة .

أدت بعض النساء في العصر العباسي دورًا مهمًا في تغيير ملامح ذلك العصر ، وأسهمن إسهامًا كبيرًا في تبديل صفاته ، ودفعن به إلى هاوية الانحلال الخلقي ، بل إنهن كنّ وقودًا لأضخم موجة تحلل خُلُقِي واجتماعي عرفها التاريخ العربي ؛ حين بتنّ مثارًا للهو والعبث ، فقد فرضت المرأة العباسية - حرة وجارية - سلتها على مجتمعها ، وألقت به في غياهب المجون ، وقوضت دعائمه وأركانه حين جعلته في لهثٍ دائبٍ وراء الملذات والمسرات التي تفننت في ابتكارها وإظهارها ³ ؛ كردة فعلٍ عكسيّة على إثثار رجال عصرها للغلمان وتفضيلهم لمواصلتهم، ولا سيّما في عهد الأمين الذي غالى في طلبهم ورفع منزلتهم إلى الحدّ الذي دفع أمّه إلى أن " اتخذت الجواري المعدودات الحسان الوجوه ، فطرت رؤوسهنّ ، وجعلت لهنّ الطرر والأصداغ وشعور الأقفاء ، وألبستهنّ الأقبية والمناطق ، وكانت أول من فعل ذلك ، وبعثت بهنّ

¹ أبو نواس: الديوان، ص 309 . التّطاريّف : خضاب أطراف الأصابع .

² المصدر السابق : ص 289 ، 303 ، 385 .

³ ينظر : الزعيم ، أحلام : المرأة ودورها في حركة الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والثّقافيّة في العصر العباسي ، الموقف العربي ، م 16 ، ع 184 ، 1986 م ، ص 97 ، 121 .

إليه ، وأبرزتهنّ للناس ، فاتخذ الناس الخاصة والعامة الجوّاري المطرورات ، وألبسوهنّ الأقبية والمناطق وسموهنّ الغلاميات " ¹ .

فالغلاميات ظاهرة أشيعت بفعل التطور الحضاري صاحب الأثر الأبرز في إثارة النزاعات بين الحرائر ، والجوّاري والغلمان ، كل منهم يحاول الاستحواذ على قلب الرجل والاستئثار بهواه ، فعمّت الخلاعة ، وطغى الفساد ، حيث غصّت القصور ، والبيوت والحانات ، والأسواق والطّرات بالجوّاري ، والغلاميات الفاتنات اللّواتي سعى الرّجال وراءهنّ طلباً للمتعة واللذائذ ، منصرفين عن المرأة الحرّة التي أخذت تتنازل عن مكانتها ومنزلتها ، حيث أقحمت في ميدان التّنافس مع الجوّاري والغلمان ² ، ويمكن القول : إنّ امرأة ذلك العصر كانت أكثر ضياعاً واستلاباً عنه في العصور السابقة ؛ فقد غيّبت عن مراكز القوى ، وباتت دمية تسعى إلى امتلاك وسائل التّفوذ بالانقياد إلى الانحلال ، والسير في طريق الغواية ، نائرة على الأعراف والتقاليد التي هيمنت على المجتمع فترات طويلة ³ .

ولا شك أنّ الرجل ساهم في إشعال تلك النّورة حين بات أسيراً للغواية ، طائعاً لأدوات اللّهو ، مقيماً في دور الجوّاري والقيان اللّواتي لم يعدمن حيلةً للإيقاع به ؛ من خلال دور المغنّية أو الساقية ، أو النّديمة الخليفة ، أو الشاعرة التي كانت تباري كبار الشّعراء وتجارهم ، وتثبت تفوقها عليهم ، أو المسامرة التي تروي القصص وتشيع الأخبار ، الأمر الذي اختلق مناخاً صاخباً، حدا بالشّعراء إلى التّجرد من ثياب الفضيلة، وانتزاع برود الدّين والأخلاق بالخضوع إلى سطوة الغزل والخمر ومجالس الغناء ⁴ .

¹ البعقوبي : مشاكلة النّاس لزمانهم وما يغلب عليهم في كلّ عصر ، تح : محمد كمال الدين عز الدين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ص 38 ، 39 .

² ينظر : عبده ، إسماعيل : المرأة في شعر القرن الثاني الهجري ، رسالة ماجستير ، كلبّة الآداب بجامعة الإسكندرية ، 1982م ، عالم الكتب ، م 3 ، ع 3 ، ص 377 .

³ ينظر : الزعيم ، أحلام : المرأة ودورها في حركة الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والثّقافيّة في العصر العباسي ، ص 97 .

⁴ المرجع السابق : ص 97 ، 111 . و عبده ، حسين إسماعيل : المرأة في شعر القرن الثاني الهجري ، ص 377 .

فجاء حديثهم في مغامراتهم مع الجواري والقيان حديثاً مغايراً للعفة والطهارة ، مؤثراً للفحش والخلاعة بعيداً كل البعد عما أمر به الإسلام ، ولكنه كان صادقاً في تصوير الواقع المستجد بفكره الحر ، ونظرته المستقلة¹ .

ولأبي نواس مذهبٌ خاصٌ في تعرية ذلك الواقع وتوضيح تلك النظرة ، وله لونٌ متميزٌ مكنه من اعتراض قيم مجتمعه واختراقها بما يوافق أفكاره ويثبت تمرده ؛ فالمرأة في شعره امرأةٌ مختلفة تمثل انقلابه الرافض لنصف المجتمع ، للمرأة المثالية التي تهافت الشعراء على التغزل بها وتعداد مناقبها ، ووصف ما يعترتهم من لواجح حبّها وألم الاشتياق لها .

إذ لم يحفل أبو نواس يوماً بامرأةٍ حرّةٍ تأسره وتشغف قلبه ؛ فلم يعد الوصول إلى المرأة في عصره أمراً صعباً ، بل أضحي سهلاً ميسوراً فيه من الإباحة ما جعله في درجة الابتذال والامتهان نظراً لشيوخ الإماء وغلبة الجواري من كل الأجناس والألوان² .

ولم يخل ذهن الشاعر من صور المرأة العابثة المتهاكمة على الخلاعة ، المسرفة في المجون ؛ و لا سيّما أنّه حُمِّل عقداً نفسية نشأت معه في طفولته ، وبلغت أوجها في شبابه ، حيث مضى يبحث عن امرأة تناقض صورة أمّه التي دفعته إلى التماذي في الانحراف عندما كان بحاجة ملحة إلى عطف الأم ، ولعلّه ألقى ضالته في جارية اتسمت بالعفة والطهارة ، ولكنها صدمته وأذلت كبريائه ، على الرغم من أنّه كلف بها وهام في حبّها ، واحتل في سبيل الوصول إليها ما لا يحتمله مداعبٌ ماجنٌ ، فتخاطفته لجة الشذوذ ، وغرق في ظلام المعصية بميله إلى جنس الذكور ، وإعلان بغضه للنساء³ .

لقد أضحي أبو نواس هائماً باللذة التي تحول بينه وبين آلامه المختزنة في ماضيه ، مقبلاً على حياة ابتداعها لينسى عجزه عن الاتصال بالنساء اتصالاً طبيعياً كما كان غيره يكتوي بنار الوجد ويحترق بلوعة الحب ، فالشاعر خرج من بيته إلى خضم الحياة في ظروف خاصة جعلته

¹ نافع ، عبد الفتاح : أضرب الرفض في خمريات أبي نواس ، ص 56 .

² ينظر : النويهي : نفسية أبي نواس ، ص 89 .

³ ينظر : شلق ، علي : أبو نواس بين التخطي والالتزام ، ص 197 ، 198 . و حسين ، طه : حديث الأربعاء ، ج 2 ، ص 107 .

بعيداً كلَّ البعد عن عذرية الحب ، مخففاً كل الإخفاق في الظفر بقلب الأنتى ، فاشلاً في إقامة حياة زوجية قائمة على حياةٍ متصلة مع امرأة ¹ .

ولأنَّ أبا نواس أراد أن يتغلب على الثقل المُعتمَل في داخله من صورة المرأة الخائنة " جلبان " ، والمرأة الرافضة " جنان " ، ولأنَّه أراد الثورة على نمطية الصورة تراه يعبر عن بغضه واشمئزازه من النساء ، فيقول :

{ الوافر }

ومظْهَرَةٌ لَخَلَقِ اللَّهِ نُسْكَاً	وتلقاني بدَلٍ وابْتِسَامِ
أَتَيْتُ فَوَادَهَا أَشْكَو إِلَيْهِ	فلم أخلص إليه من الزحام
فيا مَنْ ليس يكفيها خليلٌ	ولا ألفاً خليلٍ كلَّ عام
أظنُّكَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى	فهم لا يضربون على طعام ²

وتراه يصفهنَّ بالغدر ، فيقول :

{ السريع }

قَوْلًا لِمَنْ يَغْشَقُ قَصْرِيَّةً	يسْتَفُّ حُرْفًا قَبْلَ إِفْلَاسِهِ
فَقَدْ ثَوَى فِي كَفِّ سَدَاجَةٍ	مُسْرَعَةٍ فِي قُلْعِ أَضْرَاسِهِ
تَوَاصَلَ الْعَشَّاقُ حَتَّى إِذَا	مَا أَخَذَ الْفَقْرُ بِأَنْفَاسِهِ
دَلَّتْ بِغَدْرِ ، وَقُرُونِ الْفَتَى	تَهْتَزُّ بِالْكَشْخِ عَلَى رَاسِهِ ³

وتراه يغالي في ذم المرأة وتعداد عيوبها إلى الحد الذي يفضي به إلى الكراهة والاستبشاع ، فالحيض ، والولادة ، وطقوس الطهارة ، والجنابة ، أمورٌ تعزز من موقفه السلبي من المرأة ، وتوضح سبب رفضه لها ⁴ . فهو يقول :

{ السريع }

صَاحِبَةُ الْقَرْقَرِ لَا تَشْغِبِي	تَحْمَلِي طَالِقَةً وَأَذْهَبِي
-------------------------------------	---------------------------------

¹ ينظر : حسين ، طه : حديث الأربعاء ، ج 2 ، ص 111 . و النوبي : نفسية أبي نواس ، ص 89 ، و حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 67 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 542 .

³ المصدر السابق : ص 542 . الحُرْف : الحب . و السداجة : الكذابة . وينظر ، ص 311 .

⁴ ينظر : النوبي : نفسية أبي نواس ، ص 81 . و حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 65 .

مُرِّي فَكَمْ مِثْلِكَ مِنْ حُرَّةٍ رائعةٍ لَمْ تَكُ مِنْ مَطْلَبِي
لا أَشْتَهِي الْحَيْضَ وَلَا أَهْلَهُ غَيْرُكَ أَشْهَى مِنْكَ فِي الْمَرْكَبِ
لا أَدْخُلُ الْجَرَّ يَدِي طَائِعًا أَخْشَى مِنَ الْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ¹

وهو معرضٌ عنها وإن كانت في حسنها كيوسف ، عليه السلام ، و كبلقيس في الجمال والدلال ،
ولذا يقول :

{ الطويل }

أَقُولُ لَهَا لَمَّا أَتَتْنِي تَذَنِّي على امرأةٍ موصوفةٍ بجمال
أَصَبْتُ لَهَا يَا أَخْتُ فَحَلًّا كَمَا اشْتَهَتْ إذا أَغْفَلْتُ مِنِّْي ثَلَاثَ خِلَالٍ
فَمَنْهَنْ فَسُقِّ ، لا يُنَادَى وَلِيَدُهُ ورقَّةَ إسلامٍ ، وقلَّةَ مالٍ
ولو أَنَّهَا فِي الْحَسَنِ كَانَتْ كَيُوسُفٍ وبلقيس ، أو كانت كخطِّ مثالٍ
وَقَالَتْ تَزَوَّجْنِي عَلَى مَهْرٍ دَرَاهِمٍ لَقُلْتُ أَذْهَبِي عَنِّي فَمَهْرُكَ غَالٍ²

إنَّ المرأةَ التي يبحث عنها أبو نواس امرأةٌ مختلفة ، نموذجٌ متمردٌ منقلب ، امرأةٌ حرةٌ لا
تخضع للتقاليد أو القيم؛ دينية كانت أم أخلاقية ، إنها أنثى لم تتزوج بعد ، فتقترب بصفاتهما من
الغلام ، أو تكاد تكون غلامًا . هي (المذكرة المؤنثة) التي تبتعد عن خشونة الذكورة وقسوتها
وعن مساوئ المرأة وسلبيتها ، والتي تغري عاشقها برقبتها الأنثوية ، ولباسها الغلامي ، وإهمالها
لزينة النساء³ . وفيها يقول :

{ الطويل }

لَقَدْ صُبَّحْتُ بِالْخَيْرِ عَيْنٌ تَصَبَّحَتْ بوجهك يا " مغشوق " في كلِّ شارقٍ
مُقَرَّطَةً لَمْ يَحْنِهَا سَخْبٌ ذِيْلَهَا ولا نازعتها الرِّيحُ فضَّلَ البنائِقِ
تُشَارِكُ فِي الصَّنْعِ النِّسَاءَ ، وَسَلَّمَتْ لهنَّ صنُوفُ الحُلِيِّ ، غيرَ المناطقِ
ومطمومةٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِذُؤَابَةٍ ولم تغتفد بالتَّاجِ فوقَ المفارقِ
غِلَامٌ وَإِلَّا فَالْغِلَامُ شَبِيبُهَا وريحانُ دنيا ، لَذَّةٌ لِلْمُعَانِقِ
تَجْمَعُ فِيهَا الشَّكْلُ وَالزِّيُّ كُلُّهُ فليس يُوقَى وصفها قَوْلُ نَاطِقٍ⁴

¹ أبو نواس : الديوان ، الحاشية ، ص 312 . وينظر : أبو نواس : الفكاهاة والإتناس ، ص 62 ، 64 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 312 .

³ ينظر : العقاد : أبو نواس ، ص 136 . وحسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 65 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 258 ، 259 .

لقد خاطب الشاعر تلك الغلامية " بالمعشوق " ، وخلع عليها من الصفات ما يؤهلها لتشبه الغلام ؛ فهي مقرطةٌ ترتدي ثيابًا قصيرة فلا تضطرّ إلى جرّ ذيلها ، وشعرها قصيرٌ لم تطل على جوانبه ذوائب ، ولم تزين وجهها بالأصباغ تزيينًا كاملاً كما تفعل النساء ، إلا أنها بدت ساحرة تستميل النفوس بكل ما لديها من تيه ودلال ¹ .

ويرى بعض النقاد أنّ ميل أبي نواس إلى هذا النوع من النساء عائدٌ إلى شذوذه وطبيعته الجنسية التي تتشبه بكلا الجنسين ؛ فهو يحبّ الفتاة لأنها كالفتى ، وحبّ الفتى لأنه كالفتاة ² ، ويبحث عن صفات الذكورة في الأنثى ، وعن صفات الأنوثة في الغلام ، ويجسد في شعره صوراً حيّة ناطقةً بالجمال المثالي الذي كان يسعى جاهداً لإيجادها في معشوقيه من الغلمان ، ومعشوقاته من الغلاميات ، فنظر إلى قوله في وصف غلامية :

{ الوافر }

وَحُذِّ مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ ، وَصَيْفٍ	رَخِيمِ الدِّلِّ مَلْثُوعِ الْكَلامِ
لَهَا شَكْلُ الْغَلامِ وَبَيْنَ بَيْنٍ	تَرَى فِيهَا تَكَارِيَةَ الْغَلامِ
فَأَحْيَانًا تَقْطُبُ حَاجِبَيْهَا	وَأَحْيَانًا تَنْتَنِّي كَالْحَسَامِ ³

إنّه معجبٌ بالغلامية لأنها ترضي مجونه ، حيث تصلح لما يصلح له الذكر ، وما تصلح له الأنثى ، فلا عجب إذن أن يبكي شوقاً إليها ، فيقول :

{ السريع }

وَحُذِّ مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ ، وَصَيْفٍ	رَخِيمِ الدِّلِّ مَلْثُوعِ الْكَلامِ
لَهَا شَكْلُ الْغَلامِ وَبَيْنَ بَيْنٍ	تَرَى فِيهَا تَكَارِيَةَ الْغَلامِ
فَأَحْيَانًا تَقْطُبُ حَاجِبَيْهَا	وَأَحْيَانًا تَنْتَنِّي كَالْحَسَامِ
أَضْحَكَنِي الْحُبُّ وَأَبْكَانِي	وَهَاجَ شَوْقِي طَوْلُ كَتْمَانِي
مِنْ حُبِّ حَوْرَاءَ ، رُصَافِيَةٍ	كَأَنَّهَا غُصْنٌ مِنَ الْبَانِ
مَطْمُومَةُ الشَّعْرِ ، غُلَامِيَّة	تَصْلُحُ لِلْوَطِيِّ وَالزَّانِي ⁴

¹ ينظر : بكار ، يوسف حسين : اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص 121 .

² ينظر : العقاد : أبو نواس ، ص 137 . و دكاش ، نضال الأميوني : ظاهرة الزمن في الشعر العربي القديم ، ص 152 ، 153 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 693 .

⁴ المصدر السابق : ص 301 .

ولا عجب أن تراه يحثّها على ارتداء زيّ الغلام ، ومحاكاة تصرفاته ، حيث يرفع من قدرها ويجعلها تنتمي على الجوّاري بقدرتها على إغراء الرّجال وإيقاعهم بغرامها وفتكها ، إذ يقول :

{ الوافر }

وَشَاطِرَةٌ تَتِيهُ بِحَسَنِ وَجْهِهِ	كَضُوءِ الْبَرْقِ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ
رَأَتْ زِيَّ الْغَلَامِ أَتَمَّ حُسْنًا	وَأَدْنَى لِلْفَسُوقِ وَلِلْأَثَامِ
فَمَا زَالَتْ تُصَّرَفُ فِيهِ حَتَّى	حَكَّتْهُ فِي الْفَعَالِ وَفِي الْكَلَامِ
وَرَاوَتْ تَسْتَطِيلَ عَلَى الْجَوَارِي	بِفَضْلِ فِي الشَّطَارَةِ وَالْغَرَامِ
وَتَغْدُو لِلصَّوَالِحِ كُلِّ يَوْمٍ	وَتَرْمِي بِالْبَنَائِقِ وَالسَّهَامِ
تُرْجِّلُ شَعْرَهَا ، وَتَطِيلُ صُدْعًا	وَتَلْوِي كُمَهَا فِعْلَ الْغُلَامِ ¹

لقد امتلكت الغلاميات كلّ أسباب الغواية فبتنّ قاداتٍ على خداع الرّجل ؛ إذ يطمعه بالوصل فيلهب قلبه ، فيجتهد في الوصول إليهنّ ، ولكّنه يقابل بالصدّ ، ولذا ترى الشّاعر يبيّث آهات سقمه وشكواه من محبوبة جرّدت من عينيها سيقاً لا يهدأ حتّى يفتك بكلّ مستهام فيرتوي من دمائه ، ولكّنه على الرّغم من ذلك يبكي فراقها وبعدها ، فيقول :

{ الوافر }

أَبَتْ عَيْنَايَ بِغَدَاكَ أَنْ تَنَامَا	وَكَيْفَ يَنَامُ مَنْ ضَمِنَ السَّقَامَا
بَكَيْتُ مِنَ الْفِرَاقِ لَمَّا أَلَاقِي	وَرَاوَعْتُ الصَّبَابَةَ وَالْغَرَامَا
مُذَكَّرَةٌ مَوْثَنَةٌ مَهْمَا	إِذَا بَرَزْتُ تَشَبُّهَهَا غَلَامَا
تَقُولُ لِسَيْفِهَا يَا سَيْفُ أَبْشِرْ	سَتُرَوَّى مِنْ دَمٍ وَتَقْدُ هَامَا
وَقَائِلَةٌ لَهَا مِنْ وَجْهِ نُصْجٍ	عَلَامٌ قَتَلَتْ هَذَا الْمُسْتَهَامَا ² !

ويقول في فتاة خدعته بمظهرها الغلاميّ ، فأعيتته في تتبعها ، وإغرائها ، والتوسل إليها بالخير والشّعْر لنيل وصلها :

{ الطويل }

وَنَاهِدَةُ الثَّيْبَيْنِ مِنْ خَدَمِ الْقَصْرِ	سَبَبْتِي بِحُسْنِ الْجِدِّ وَالْوَجْهِ وَالنَّحْرِ
غُلَامِيَّةٌ فِي زِيَّهَا ، بِرَمَكِيَّةٍ	مَزُوقَةُ الْأَصْدَاغِ ، مَطْمُومَةُ الشَّعْرِ

¹ أبو نواس: الديوان، ص 374 .

² المصدر السابق: ص 250 . وينظر : 310 .

كَلِفْتُ بِمَا أَبْصَرْتُ مِنْ حَسَنِ وَجْهِهَا زَمَانًا ، وَمَا حُبُّ الْكَوَاعِبِ مِنْ أَمْرِي
فَلَمَّا تَوَاصَلْنَا تَوَسَّطْتَ لُجَّةً عَرَفْتُ بِهَا يَا قَوْمَ مِنْ لُجَجِ الْبَحْرِ
فَصَحْتُ " أَغْنِي يَا غُلَامُ " فَجَاءَنِي وَقَدْ زَلَقْتُ رَجُلِي ، وَلَجَجْتُ فِي الْغَمْرِ
فَلَوْلَا صِيَا حِي بِالْغُلَامِ ، وَأَنَّهُ تَدَارَكُنِي بِالْحَبْلِ صَرْتُ إِلَى الْقَعْرِ
فَأَلَيْتُ أَلَّا أَرْكَبَ الْبَحْرَ غَايَةً حَيَاتِي ، وَلَا سَافَرْتُ إِلَّا عَلَى الظَّهْرِ¹

لقد استشاط الشاعر غضبًا عندما اكتشف أنها امرأة ناضجة ، فثار عليها ، وثار على البحر الذي يرمز إليها ، وعقد عزمه ألا يسافر إلا في طريق البر² ، والتمس هذا الطريق في تعشق الغلمان ، " وزاد من لذة هذا العشق أنه شيء جديد غريب غير مألوف ، فيه مسحة الابتكار التي يهواها الذهن الفني ، وأن تحقيقه يحتاج من المحب على سعي وجهد ومحاولة ، وإلى تضرع المحبوب والتوصل إليه قبل أن ينال رضاه "³ .

ولذا فقد فاضت أشعاره بالغلمان بمعاني الشكوى والحزن واللوعة من قسوة المحبوب ، إذ أضى مصير الشاعر بين يديه ، فيقول :

{ السريع }

أَفْنَيْتُ فِيكَ مَعَالِمَ الشَّكْوَى وَصَفَاتِ مَا أَلْقَى مِنَ الْبُلْوَى
فَلَوْ أَنَّ مَا أَشْكُو إِلَى بَشَرٍ لَأَرَاخَنِي مِنْ ذِلَّةِ الشَّكْوَى
لَكُنَّمَا أَشْكُو إِلَى حَجَرٍ تَنْبُو الْمَعَاوِلُ عَنْهُ أَوْ أَقْسَى
ظَبْيٍ بِمَبْكَاهُ وَمَضْحَكِهِ فِينَا تُثِيرُ وَتُظْلِمُ الدُّنْيَا⁴

وكَلَمَا تَمَنَّعَ الْمَحْبُوبُ ازْدَادَ الشَّاعِرُ تَعَلُّقًا بِهِ وَلَهْفَةً عَلَيْهِ ، وَلَا سِيَّما أَنَّهُ غدا صريعًا لتفتير عينيهِ ، قتيلاً بخنجر حبه ، فيقول :

{ السريع }

أَوْعَدْتَنِي الْقَتْلَ مِنْ غَيْرِ مَا جَرِمَ وَقَلْبِي رَهْنٌ كَفِيكََا

¹ أبو نواس: الديوان، ص 264 .

² ينظر : حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 65 .

³ النويهي : نفسية أبي نواس ، ص 89 .

⁴ أبو نواس ، الديوان ، ص 266 .

يا موعدي بالقتل قد حالف الخنجر في قتلي يميني¹

وقد بلغ الأمر بالشاعر إلى أن جعل نفسه عبداً لمحبوبه يتبعه أينما حلّ ، على الرّغم من أن ذاك المحبوب أشبع روحه عذاباً ، وجعله عرضةً للنوازل والكروب ، فيقول :

{ المجتث }

عزّوا أخلاي قلبي	فقد أصبّنت بلبي
يا حبّ ملكت رقي	من لا يسرّ بقربي
أنا الفداء لظبي	مفتّر الخطّ ، رطب
من ليس يخفى عليه	حبي ، ولكن يغبي
لم تمش رجلي لشيء	حتى مشى فيه قلبي ²

ولا يخفى على القارئ ما أضفاه أبو نواس على أبياته السابقة من معانٍ تنثير الشفقة ، إذ هو يطلب الوصل ، ويقابل بالهجر ، ويستعد لفداء المحبوب المتمنّع عنه بنفسه ، ولكّنه يرفضه ، فيتوسّل إليه ، وينشد عطفه ، فيقول :

{ البسيط }

الجسم مني سقيم شفه النصب	والقلب ذو لوعة كالنار تلتهب
إني هويت حبيباً لست أذكره	إلا تبادر ماء العين ينسكب
مرزّ يتمشّي نحو بيعته	إلهه الابن فيما قال والصُّلب
يا ليتني القس أو مطران بيعته	أو ليتني عنده الإنجيل والكتب
أو ليتني كنت قريباً يقربه	أو كأس خمرته ، أو ليتني الحبّ
كيما أفوز بقرب منه ينفعني	وينجلي سقمي والبثّ والكرب ³

فانظر كيف يتمنى الشاعر أن يكون قساً أو مطراناً في كنيسة ذاك الغلام المسيحي ، وكيف يرضى لنفسه أن يكون قريباً يقربه ، أو شيئاً من متعلقاته فقط ليحظى بقربه الذي يحقق له جلاء ما يبثّ من سقمٍ وبلوى . الأمر الذي يحدو بالباحث إلى التساؤل عن الدافع الكامن وراء انطلاق

¹ أبو نواس: الديوان، ص 354 .

² المصدر السابق ، ص 360 .

³ المصدر السابق: ص 333 . وينظر : ص 366 .

أبي نواس إلى فضاء الغزل بالغلمان ، متجاهلاً ما سبقه من موضوعات الغزل ، منقلباً على المفاهيم التي درج عليها أسلافه من الشعراء ، مثبتاً تمرده بإضافة مفاهيم جديدة لم تخضع لسلطان عقيدة أو لسلطة رقيب ¹ ، وإنّما هي وليدة الحداثة المنبثقة عن الحضارة والعصر الجديد ، العصر الذي ألقى الضوء على مجون المجتمع ، وسلط عدسته على ما فيه من فحش وفساد في أسلوب داعبٍ ظريف يرغم القارئ على الإعجاب بذاك الشعر ، وإن كان مصرّاً أشدّ الإصرار وأعنفه على أنّه غزلٌ مخالفٌ للشريعة والطبيعة التي جبلت عليها النفوس ، وحتّى الأخلاق التي يحثّ عليها الدين ² .

ويخلص الباحث إلى أنّ الشاعر سافر في عبثه ومجونه ساخطاً على القيود ، متحدٍ للمجتمع، فمن الصعوبة أن يوضع شعره في مقياس صدق العاطفة أو كذبها ³ ؛ لأنّه يبحث في نفسه عن نموذج متفرد ، يظهر ما يجول في ذهنه من أفكار وعقائد ، و لا يعبأ إن كانت تحوز رضى الناس أو تستدعي غضبهم ، فكلّ ما يهّمه هو الحرية ، ولذا يقول :

{ الوافر }

وعاذلة تلوم على اضطفائي	غلاماً واضحاً مثل المهابة
وقالت : " قد حرمت ولم توفّق	لطيب هوى وصال الغانيات "
فقلت لها : " جهلت ! فليس مثلي	بخادع نفسه بالترهات "
أختار البحار على البراري	وأحياناً على ظبي الغلاة ...!!
دعيني ؛ لا تلوميني ؛ فإني	على ما تكريهين إلى الممات
بذا أوصى كتاب الله فينا	بتفضيل البنين على البنات ⁴

هو يلجأ إلى منطق المعكوس ، يحرم الحلال ويستبيح الحرام ، ولا يرتكب الإثم فحسب ، ولكنّه يجاهر به ، ويواجه بعنادٍ لائميّه ، مسقطاً قناع مجتمعه الذي جعله رأساً في الضلال ⁵ .

¹ ينظر : حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 71 ، 72 .

² ينظر : حسين ، طه : حديث الأربعة ، ج 2 ، ص 111 . و الزعيم ، أحلام : أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد ، ص 194 .

³ ينظر : العقاد : أبو نواس ، ص 136 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 715 .

⁵ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 42 .

إنَّ المجون والضَّلال مؤثَّراتٍ احتضنها أبو نواس ، وصاغها صياغةً خاصةً حين جعلها أشدَّ حدَّةً وأكثرَ عنفًا ، وواجه بها مجتمعه الَّذي احتضن شذوذه ، بل وهياً له الحصول على لذته بكلِّ ما وقَّره من أدوات الحضارة وأساليب الفساد ، فلم يدخل أبو نواس على عصره فساداً لم يوجد فيه ¹ ، ولم يكن ظهور بعض اللِّينات بمظهر الذَّكر ، وظهور بعض الذَّكور بمظهر الأنثى إلى الحدِّ الَّذي يصعب التَّفريق بينهما من نسج خيال الشَّاعر ، ولكَّته من نتاج الحضارة ومن صنعة التَّقدم ؛ فقد التبس أمر التمييز بينهما على الشَّاعر نفسه ، فهو يقول :

{ مجزوء الخفيف }

يَا أَبَا الْقَاسِمِ قَلْبِي	بِكَ صَبَّ مُسْتَهَامٌ
بِأَبِي مَرْكَبُكَ الصَّعْغُ	بُ الَّذِي لَيْسَ يُرَامُ
طَبِيتُ وَالْعَفَّةُ عَنْ تَقِ	بِيْلِ خَدَيْكَ حَرَامُ
فَأَبْنُ لِي أَكْغَابُ	أَنْتَ.. أَمْ أَنْتَ غُلَامٌ ² ؟

وكيف لا يقع الشَّاعر في فخِّ التَّفريق بينهما ، وقد تزيَّيا الغلام بزيِّ الفتاة ، وارتدت الفتاة لباس الغلام ، وبدا كلاهما غنجاً في مشيته ، أغناً في صوته ، أهيفَ القدِّ ، معقربَ الصَّدغ ، مختنئاً صالحاً لكلِّ إنَّه؟! وفي وصفهم يقول الشَّاعر :

{ الطويل }

وَمَشْتَرَكٍ فِيهِ إِذَا الْوَهْمُ نَالَهُ تَخَنُّثُ أَنْثَى وَاعْتِدَالُ غُلَامٍ³

ويقول :

{ البسيط }

يَسْعَى بِهَا خَنْثٌ فِي زِيٍّ جَارِيَةٍ مُطَيَّبٌ صُدَّغَهُ فِي طَيِّبِ الْبَانِ⁴

وكلاهما مرآةً لحياة التَّرف والرَّفاهيَّة التي أرخت سدولها على مجتمع القرن الثاني للهجرة ، ومظهرٌ من مظاهر الفلتان الَّذي أباح الشَّهوات ⁵ ، ووسع آفاق الملذات .

¹ ينظر : دهمان ، أحمد : التفاعل بين الحياة والفن وتأثيره في الشعر العباسي ، ص 108 ، 109 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 730 .

³ المصدر السابق ، ص 371 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 677 . وينظر : ص 150 ، 303 ، 350 ، 373 ، 681 .

⁵ ينظر : دكاش ، نضال الأُميوني : ظاهرة الزمن في الشعر العربي القديم ، ص 152 .

فبماذا تصنّف عَقْدُ الشاعر إذا ما قورنت بعقد عصره ، وبماذا يوصف شذوذه إذا ما قورن بشذوذ مجتمعه ؟ وكيف لشاعرٍ مثله مرهف الحسّ مضطرمّ الشعور رقيق المعاني أن يتغاضى عن منكراتٍ انجرف إليها معاصروه على أنّها وسيلةٌ للرقى وأداةٌ للتحضر دون أن يصفها ، بل أن يغوص فيها ويجاري تيارها ليثبت تفوقه عليها ؟

لقد حمل أبو نواس على عاتقه عبء الثورة ، وامتلئ من الشّجاعة ما مكنه من تقديم صورةٍ أمينة عن واقعه المتجاوز الحدود ، فأضحى صاحب الفكر الثوريّ الذي توغّل في كل مؤسسات مجتمعه منقلباً على الأيدولوجيات القديمة ¹ ، والعقائد التي رآها بالية ، مؤسساً لثقافة جديدة استوجبها عصره، وكان هو الأقدر على حملها والنّهوض بعبئها .

¹ ينظر : أدونيس : زمن الشعر ، ص 140 .

الفصل الثالث

أثر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في لغة أبي نواس وأسلوبه الشعري

أولاً : لغة أبي نواس

ثانياً : الأسلوب الشعري

1- التناص

2- الحوار والأسلوب القصصي

3- التكرار

4- السخرية

الفصل الثالث

أثر الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في لغة أبي نواس وأسلوبه الشعري

أولاً : لغة أبي نواس

تُوصَف اللغة العربية بأنها لغةٌ حيّةٌ قابلةٌ للتّطور والنّمو ، وقادرةٌ على مواكبة الحياة في سيرها ، والتّماشى مع المجتمعات في تطورها ، فتتسع لكلّ جديد تبعاً لتغير العصر الذي تعيشه¹. وقد بدأت اللغة العربية مع بداية العصر العبّاسيّ ، واستقرار أوضاع المجتمع الجديد عصرًا لغويًا جديدًا ؛ فكانت محطةً للدّخيل والمعرّب والمولّد الأعجميّ ، وكلّ ما توغل من ألفاظٍ أجنبية وفدت مع الحضارة ، وكانت دافعًا لظهور تيار تجديدي يدعو إلى تغيير يجري التّقدم والانفتاح بالثّورة على العربيّة القديمة بلغتها وأساليبها وكلّ ما دعا إليه التّيّار التّقليديّ المتعصب للبداءة والجزالة والغريب² .

ولأنّ " النّص الشعري ليس في الواقع إلّا بنية لغويّة تشتمل على مضمون مركب من وظائف لغويّة ونزعَاتٍ نفسيّة ، ورموزٍ اجتماعيّة ، ومضاتٍ جماليّة " .³ ، كان لا بدّ من الوقوف على لغة أبي نواس بوصفها لغةً منقلبةً أثبتت قدرتها على مواجهة تيّارات عصرها ، فكانت متعددة المستويات ، متنوّعة الدلالات ، توافق مقتضى الحال ، وتتسجم مع الموقف الإبداعيّ الثّائر الذي يسعى إليه الشاعر . بل هي لغةٌ حيّةٌ أرادت التحرر من سلطان الذاكرة ؛ بإنصاتها لإيقاع عصرها ، وما يحدث فيه من تغيرات فكريّة واجتماعيّة تهدف إلى ولادة وعيٍ جديد ، وتصورٍ مختلف للشعر بلغته ، وبنيته ، ووظيفته⁴ .

¹ ينظر : بكار ، يوسف : اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص 358 .

² ينظر : خليف ، يوسف : الشعر والحياة اللغوية في القرنين الأول والثاني للهجرة ، الهيئة المصريّة العامة للتأليف والنشر ، مصر ، ع 3 ، 1957م ، ص 41 - 43 .

³ الواسطي ، محمد : المنهج اللغوي وتطبيقه في شعر أبي نواس ، مجلّة كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، فاس - المغرب ، ع 13 ، 2004 م ، ص 9 .

⁴ ينظر : تقيّ بن يحيى ، لمياء : القبيح الجميل في خمريات أبي نواس ، حوليات الجامعة التونسيّة ، ع 43 ، 1999م ، ص 234 .

ولذا عمد أبو نواس إلى توظيف مستويات اللغة كلّها دون أن يقيم حدوداً لإبداعه ، فغرف من معجم الفصاحة ومعجم الابتذال ، واستخدم ألفاظاً حسنة وألفاظاً قبيحة تندّد عن الذوق السليم ، وارتقى بشعره فنافس العلماء النحويين والفلاسفة المتكلّمين ، وانحطّ إلى درك الماجنين العابثين¹ ، وقد قيل فيه : " لولا ما غلب عليه من الهزل ، لاستشهد بكلامه في كتاب الله ؛ وذلك لأنّه تعلّم اللغة من أساطينها ، ورحل إلى البادية فأخذ عن العرب ، وحفظ لغتهم ، وأتقنها " ² .

لقد أثبت أبو نواس أنّه قادرٌ على تجنيد طاقاته اللغويّة لابتكار معجمٍ يخدم منطقة المعكوس ويحقّق انقلابه ، ويعرّز من رفضه وثورته على المسلّمات الدينيّة والسياسية والاجتماعيّة ، فكانت خمرياته ومجونه وغزله عنواناً لتمرّده ، ومراًة لنفسه ، ولا سيّما أنّه لجأ فيها إلى اللّغة الرقيقة العذبة التي ابتعدت عن التنافر ، وبرئت من التكلّف ، فكانت أدعى للشّيع والانتشار ³ .

وليس غريباً على شاعر كان دأبه الحصول على اللّذة وطلب المتعة دون تأطيرٍ أو كبت كأبي نواس ، أن يحيل عالمه الشعري إلى طقسٍ احتفاليٍّ لاهٍ ، وأن يستخدم اللّغة المباشرة المجردة من الثوابت والقيود ، متجاهلاً أسس الكتابة الشعريّة ⁴ ، معتمداً على " تخيير الألفاظ ، وإبدال بعضها ببعض إبدالاً يلامّ الكلام به " ⁵ ، بما يخدم هدفه ويخضع لمذهبه الفنيّ المخالف ، وهذا ما يبدو جلياً في موضوعاته الانقلابيّة ؛ ففي انقلابه الدينيّ مثلاً ، يجعل أبو نواس من الحرام لذّة يتحدّى بها مجتمعه ، ويواجه بها لوّامه ، فيقول :

{ الوافر }

فَـخـذها إن أردتَ لَذِيذَ عَيْشٍ ولا تَعُدِلْ خَلِيلِي بِالْمَدَامِ
وإن قالوا : " حرامٌ ؟ " قل : " حرامٌ ! " ولكنَّ اللّاذِذَةَ فِي الحرامِ ⁶

ويلحظ القارئ تكرار أبي نواس للفظه " الحرام " على الرّغم من شدّة وقعها على أذن المسلم، مؤكّداً أنّ في الحرام هواه ، فليقبل المجتمع أو ليرفض ، فهذا لا يهم .

¹ ينظر : تفتّق بن يحيى ، لمياء : القبيح الجميل في خمريات أبي نواس ، ص 233 .

² ابن منظور : أبو نواس ، ص 5 .

³ ينظر : حسين ، طه : حديث الأربعاء ، ج 2 ، ص 120 .

⁴ ينظر : تفتّق بن يحيى ، لمياء : القبيح الجميل في خمريات أبي نواس ، ص 232 .

⁵ بكار ، يوسف : بناء القصيدة العربيّة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1979 م ، ص 171 .

⁶ أبو نواس : الديوان ، ص 693 .

ولكنّه في المقابل يجعل الصلّاة استعبادًا والتّمسك كبيرة يجب تجنّبها ، فيقول :

{ مجزوء الكامل }

ودع الصّلاة وأهلها إنّ الحِراثَ على البَقَرِ
إنّ التّسوّكَ عنّا يا صاحٍ مِنْ إحدى الكبَرِ¹

ويجعل أبو نواس من زيارة الخمارات ركنًا مقدسًا يُستبدل بالحجّ إلى الكعبة المشرفة ،

فيقول:

{ الكامل }

والحجّ إنّ حجّوا فحجّ مُبادرًا حانوتَ خَمَارٍ وَعُجْ شَهْرًا²

ويغالي الشّاعر في عدائه لأوامر الشّرع ؛ حيث يحيل إبليس من عدوٍ يجب عصيانه إلى

قريب طاعة أوامره فريضة ، فيقول :

{ الكامل }

وأطعَ فطاعتهُ عَلَيْكَ فَرِيضَةً إبليسَ عَمَّا تَكْمِلُ الْكُفْرًا³

وكيف لا تكون طاعته فريضة ؛ إذا كان في رأي الشّاعر فقيهاً ناسكًا يرقى إلى منزلة

الأخبار ، فيقول :

{ الكامل }

إنّي قصدتُ إلى فقيهٍ عالمٍ متنسّكٍ ، حَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ
متعمّقٍ في دينه ، مُتَفَقِّهٍ متبصّرٍ في العلم والأخبار⁴

وتغدو الذّنوب في منظور أبي نواس أخلاقًا نبيلة ؛ ولذا فهو يدعو إلى ارتكاب أشدها فتكًا ،

وأقبحها فعلًا ، فيقول :

{ الكامل }

لا تَرْكَبَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ خَسِيسَهَا واعمَدْ - إذا قَارَفْتَهَا - لِلْأَنْبِلِ
وخطيئة تغلّو على مُستامِها يلقاك آخِرُ طَعْمِهَا الْأَوَّلِ

¹ أبو نواس : الفكاكة والإتناس ، ص 110 .

² المصدر السابق : 109 ، وينظر : ص 38 .

³ المصدر السابق : ص 109 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 200 .

لَيْسَتْ مِنَ اللَّاتِي يَقُولُ لَهَا الْفَتَى عِنْدَ التَّئِدِّ لِيَتْنِي لَمْ أَفْعَلْ¹

لقد سعى أبو نواس إلى تشكيل علاقاتٍ جديدةٍ بين الألفاظ ؛ فلم يقلب مفاهيمها فحسب ، وإنما عمد إلى إعادة قولبتها بما يوافق منطقها ، فالحلال والحرام ، والخطيئة والغفران ، والطاعة والمعصية ، والسرّ والعلانية ، ثنائياتٌ تقوم في أساسها على علاقة تنافرٍ وتضاد ، ولكنّ الشاعر أحوّلها إلى مفرداتٍ متكاملةٍ مترادفة ، تهدم النموذج التقليدي ، وتؤسس نموذجًا مختلفًا ، يسوّج الممنوع ، ويبيح المحرّم ، فيقول :

{ الكامل }

حَلَّلْتُ لَا حَرْجًا عَلَيَّ حَرَامُهَا وَلرَبِّمَا وَسَّغْتُ غَيْرَ مُحَلَّلٍ²

ويقول مستهزئًا بحرمة البيت الحرام :

{ مجزوء الرجز }

لَا تَقْرَبِ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَخَلَّاهُ حَتَّى يَحِلَّ³

وتراه يبرر فعل الخطايا فلولاها لما وجد الغفران ، فيقول ناصحًا :

{ مجزوء الرمل }

اترك التقصير في الشّر	ب ، وخـذها بنشـاط
من كميت كسنى البر	ق ، أضـاءت في البـواطـي
لـم - وعفو الله مبـذو	ل غـدا عند الصـراط -
خـلق الغفـران إلّا	لامرئ في النّاس خـاطـي ⁴

ويقول معلنًا عن بغضه التستر في ارتكاب المعصية ، وإيثاره إعلانها والمجاهرة بها بافتضاح :

{ مجزوء الكامل }

اشـرب - فـديت - علانيـة أم التـسـتـر زانيـة⁵

ويقول :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 199 .

² المصدر السابق : ص 199 .

³ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 105 . وينظر : أبو نواس : الديوان ، ص 102 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 181 .

⁵ المصدر السابق : ص 136 . وينظر : ص 126 ، و 730 .

{ مجزوء الكامل }

أَطْيَبُ اللَّذَاتِ مَا كَانَهُ جَهَارًا بِأَفْضَحٍ¹

لقد أجرى أبو نواس موازناتٍ بين مصطلحاتٍ دينيةٍ ، ومصطلحاتٍ عبثيةٍ مجونيةٍ ، وانتصر لمصطلح العبث والمجون على مصطلح الدين وجعله يقهره ، ويتفوق عليه ؛ لأنَّ مسلكه في الحياة قائمٌ على الإنكار والمجاهرة ، فيقول :

{ الكامل }

بَكَرْتُ عَلَيَّ تَلَوْنِي فَأَجَبْتُهَا إِنِّي لَأَعْرِفُ مَذْهَبَ الْأَبْرَارِ
فَدَعِيَ الْمَلَامَ فَقَدْ أَطَعْتُ غَوَايِي وَصَرَفْتُ مَعْرِفَتِي إِلَى الْإِنْكَارِ²
ويقول مثبتًا تغلب الحرام على الحلال :

{ الوافر }

يَلَانِمُنِي الْحَرَامُ إِذَا اجْتَمَعْنَا وَأَجْفُو عَنْ مُلَانِمَةِ الْحَلَالِ³
ويرى أبو نواس خُلْدَه في رحيق الخمر ، فيقول :

{ الطويل }

فَنَحْنُ وَإِنْ لَمْ نَسْكُنِ الْخُلْدَ عَاجِلًا فَمَا خُلْدُنَا فِي الدَّهْرِ إِلَّا رَحِيقُهَا⁴
ولذا فهو يواجه لؤامه الذين يصرون على تحريم الخمر ، ويحذرونه من عذاب النار ، فيقول :

{ البسيط }

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى صَهْبَاءٍ صَافِيَةٍ صِرَ فِي الْجَنَانِ ، وَدَعْنِي أَسْكُنِ النَّارَ⁵
لقد وجد أبو نواس في الشعر بضاعةً رائجةً ، وسلعةً نفيسةً يحرص الخاصة والعامة على اقتنائها ، وألفى في تيارات عصره محققًا على ابتداع طريقةٍ تجعل لأشعاره صدًى ولألفاظه وقعًا تمتاز به فلا تخطئه أذن ، فبدت أشعاره مختلفة بما احتوته من ألفاظ عامية ، ومبتذلة ، وفارسية ، ومسيحية ، ومجوسية .

¹ أبو نواس: الديوان، ص 685 .

² المرزباني : الموشح ، ص 381 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 62 . وينظر : ص 67 ، و ص 126 ، و ص 679 .

⁴ المصدر السابق ، ص 9 .

⁵ أبو نواس: الديوان، ص 111 .

- اللغة العامية :

رافق خروج أبي نواس عن المؤلف من الأعراف والتقاليد خروجٌ عن الإطار اللغوي ؛ فقد استطاع الشاعر أن يتحرر من سلطة المحافظة اللغوية باستخدامه ألفاظاً شعبية محكية درجت على السنة العامة ¹ ، ومثال ذلك قوله :

{ الخفيف }

أُنْسَ نَفْسِي كَيْفَ اسْتَجَزْتَ اطَّرَاجِي فِيمَ ذَا بَلِّ عِلَامَ ذَا أَمْ لِأَيْشٍ ؟! ²
فكلمة " لأيش " إدغامٌ لكلمتين " أي شيء ؟ " ، وهي لهجة عامية ³ ، ولم يغفل الشاعر ألفاظاً عدت من أساليب المجاملة الاجتماعية التي شاعت في عصره ، مثل : مولاي ، ومولائي ، وسيدي ، وأميري ، وحياتي ، ومعذبتي ، ولا سيما عند مخاطبة معشوقيه من الجواري والغلمان ⁴ ، فيقول :

{ المجتث }

زَوْقَنَ لِي تَرْهَاتِ	مَا لِي وَلِلْعَازِلَاتِ
يَلْمَنَ فِي مَوْلَاتِي	سَاعِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ
مِنْ رَاحَتِي حَيَاتِي ⁵	يَا مُرْنَنِي أَنْ أُخَلِّي

ويقول :

{ مجزوء الوافر }

وَمَا دَامَ عَلَيَّ وَدِّي	أَمِيرِي حَالٌ عَنْ عَهْدِي
يَا يَوْمًا قَالَ يَا عَبْدِي ⁶	إِذَا مَا قُلْتُ يَا مَوْلَا

¹ ينظر : خريس ، حسين : حركة الشعر العباسي في مجال التجديد ، ج 2 ، ص 330 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 181 .

³ ينظر : حاشية الديوان ، ص 181 .

⁴ ينظر : بكار ، يوسف : اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ص 364 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 227 .

⁶ أبو نواس : الديوان ، ص 391 ، وينظر : ص 226 ، 271 ، 263 ، 274 ، 321 ، 383 ، 384 ، 726 ، 727 ، 729 .

وقد ابتدعت تلك الألفاظ لاستعطاف المحبوب واستمالة جانبه ، ولا سيما إذا اشتدّ تمنّعه ،
وطال هجرانه . ولذا كانت الألفاظ الرقيقة ملاذاً للشاعر يتقرّب بها إلى المحبوب ، ويبيدي من
خلالها ضعفه واستكانته له ، علّه يعطف على حاله ، فيقول :

{ السريع }

فالموت أن يُزرى على عاشقٍ يُقالُ قد كن ، ولكن سلاً
يا ويئتي من جسدي كلّهِ رُضّضَ منّي مفصلاً مفصلاً¹

فلم يجد الشاعر في نفسه حرجاً من استخدام ألفاظٍ ترددها النساء في حال التّجع والتّحسر كـ "
ويلي ، و ويلتي " بل تراه يكررها مستقراً مشاعر محبوبه² ، فيقول :

{ المجتث }

يا مَنْ جداه قليلٌ ومَنْ بلاه طویلٌ
ويلي ...! فليس يرى لي حقّاً ، وليس يُنيّلُ
ويلي ... وما هكذا يا ويلي يكونُ الخليلُ³

" ولما كان المذهب في الغزل إنّما هو الرّقة واللّطافة والشكل والدّمّاعة كان مما يُحتاج فيه أن تكون
الألفاظ لطيفةً مستعذبة ، مقبولةً غير مستكرهة ... " ⁴ ، فقد مال أبو نواس في غزله إلى كلّ سهلٍ
سهلٍ عذب ، فاقتربت ألفاظه من مخارج الحروف ، فكانت كالماء الزّلال يسري في حنجرة القينة و
المغنيّة ؛ فتشددوا به أجمل الألحان ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها قوله :

{ السّريع }

قُلْ لنّ دأماي وجُلّاسي هل لي من عبدة من آسٍ
أو قائلٍ يخبرها خالفاً أن ليس منها بي من باسٍ
فراجعِي الوصلَ فإن زرتكم قدّر فراقٍ فاخلفي راسي
أولا ففيم الصدُّ عن عاشقٍ ليس لكم ما عاش بالنّاسي
لو شئتُ والله لأرضيته فلا تُقيميهِ على الياس⁵

¹ أبو نواس: الديوان، ص 283 . وينظر : ص 361 .

² ينظر : خريس ، حسين : حركة الشعر العباسي في مجال التجديد ، ج 2 ، ص 330 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 385 . وينظر : ص 228 .

⁴ ابن جعفر ، قدامة : نقد الشعر ، تح : كمال مصطفى ، مكتبة الخاوي بالقاهرة ، ط3 ، 1978 م ، ص 198 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 298 .

ويقول :

{ الطويل }

طَفِقْتُ أَفْدِيَهُ ، وَأَدْعُوهُ بِاسْمِهِ فقال مجيباً : " ما تَشَأ ! " بتثاقُل¹

حيث قرّ الشاعر من النطق بالهمزة ، وهذا دأب العامة الذين يتجنبون ما ثقل نطقه من الأصوات والألفاظ .

- اللغة المبتذلة

لا شك أنّ أبا نواس شاعرٌ جاهر مجتمعه بفجوره ، وتحدى أخلاقه بابتداعه سلوكاً جديداً يُرْعِزُع الأسس ، ويحطّم القواعد التي دأب المجتمع الإسلامي على الحفاظ عليها . ولم تكن لغته التي وظّفها في شعره بمعزلٍ عن ذاك السلوك ، بل استطاعت أن تختزل أخلاقه ، وأن تعبّر عن سلوكه دون أن تستتر خلف حُجِبٍ ، أو تتوارى بسبب رادع .

ولقد كانت لغة أبي نواس أداة من أدوات عصيانه ، فتماشت مع مذهبه ، وخضعت لأهدافه ، فوظّفها في حقولٍ دلالية مختلفة ، ويقف المتأمل في شعره على مفرداتٍ كثيرة لا يمكن عزلها عن سياقها ؛ لأنّها إن عزلت عنه فستغدو من سخيّف اللَّفْظ الذي لا يتماشى مع الذوق ، ولا تستبيحها الأخلاق ، أو هي - إن جاز التعبير - مفرداتٌ تنتمي إلى سِجَل " الفجور " ² الذي تجاهل فيه الشاعر ما اتفق عليه كثيرٌ من النقاد من ضرورة تجنّب الألفاظ المبتذلة السّوقية ، ذاك أنّ " الشعر كلامٌ منسوجٌ ، ولفظٌ منظومٌ ، وأحسنه ما تلائم نسجه ولم يسخف ، وحسن لفظه ولم يهجن ، ولم يُستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفاً بغيضاً ، ولا السّوقي من الألفاظ فيكون مهلهلاً دوناً " ³ فطفت على شعر أبي نواس ألفاظٌ مستهجنة من قاع المجتمع ، وهي بعيدة عن الفصاحة وتتجه نحو الإسفاف ، ولكنها تخدم انقلاب الشاعر ؛ وتكشف عن ازدرائه لقيم اجتماعية لم يكن ليتقبلها على أيّ حال ، فإذا كان الحليب شراب العرب ، وفي نقاء لونه دليلٌ على صفاء عيشهم وكرمهم ،

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 186 . وينظر : ص 286 ، 306 ، 307 .

² ينظر : تفتق بن يحيى ، لمياء : القبيح الجميل في خمريات أبي نواس ، ص 230 ، 231 .

³ العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل : الصّناعتين ، تح : علي محمد البيجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1952 م ، ص 60 .

وجودهم ، فهو في رأي الشاعر شرابٌ حقيرٌ يدل على سخف العرب الذين لم يعرفوا لذة الخمر ولا طيب مجالسها ، فيقول :

{ الوافر }

إذا رابَ الحليبُ فبُلَ عَلَيْهِ ولا تُخَرِّجْ فما في ذاك حُوبُ
فأطيبُ منه صافيةٌ شمولُ يطوفُ بكأسِها ساقِ أديب¹

فهو يدعو إلى عدم التَّحَرِّج من ذاك الفعل ؛ لأنه في نظره نقضٌ لعادةٍ تخصَّ العرب ، وهذا ما يوافق هواه ، فيقول :

{ الكامل }

جاهزٌ بنفسِكَ واهتِكَ السَّتْرُ واخْلَعْ عذارِكَ في الهوى جَهْرًا
لا يَرُدُّ عَنْكَ عَنْ هَوَاكَ تَحَرُّجُ إِنَّ التَّحَرُّجَ يُورِثُ الْفَقْرَ²

وإذا كان " اللواط والزنى " من المحرمات الأخلاقية التي يعاديها الدين وتأبى فعلها الأخلاق ، فهي في رأي الشاعر فضائل لا بدَّ من وجودها في المجتمع ، ولذا يقول :

{ مجزوء الزمل }

كُنْ لِمَنْ لَمْ عَصِيًّا واركَبِ الْأَمْرَ الْغَوِيًّا
واشْرَبِ الْخَمْرَ وَجَاهِرُ بِالزَّيْنِ مَا دُمْتَ حَيًّا³

ويقول :

{ الوافر }

تَمَتَّعْ بِالْخُمُورِ وَبِاللَّوَاظِ ولا تَخْشَ الْمُرُورَ عَلَى الصَّرَاطِ⁴

ولا يرعوي الشاعر عن تكرار هذه الألفاظ ، ولا يتوانى عن ذكر كلِّ ما يبتذله الناس في حديثهم ، ولعلَّه يعتمد إلى تفصيله دون حرجٍ أو خوف ، فيقول مبررًا فحشه في إقباله على الغلمان :

{ الوافر }

أَتَجْعَلُ مَنْ تَحِيضُ بِكُلِّ شَهْرٍ وَيَنْبُحُ جَزُوهَا فِي كُلِّ عَامٍ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 11 .

² أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 109 .

³ المصدر السابق : ص 111 .

⁴ المصدر السابق : ص 106 ، وينظر : ص 109 ، 112 . وينظر : الديوان ، ص 200 ، 201 .

كَمَنْ أَلْقَاهُ فِي سِرٍّ وَجَهْرٍ وَأَطْمَعُ مِنْهُ فِي رَدِّ السَّلَامِ
أُكَلِّمُهُ بِمَا أَهْوَى صَرِيحًا بِأَخْوَفِ الْمُؤَذِّنِ وَالْإِمَامِ¹

ويعجّ ديوان أبي نواس وما استدرك عليه من أشعارٍ جمعت في كتاب " الفكاهة والإتناس " بمثل تلك الألفاظ ، بل بما يزيد عليها فحشاً وبذاءة ، ولا بدّ للباحث من التعثر بها ؛ إذ إنّ الشاعر يكاد يحشوها حشواً في خمرياته ومجونه وغزله ، فهي في رأيه سمةً للتحرر ، وطريقةً للخلاص من الثوابت والقيود .

وقد اكتفت الباحثة بالأمثلة السابقة ، دون أن تعرّج على ألفاظٍ أخرى يفيضُ بها معجم الشاعر لكونها منافرةً للدّوق ، ومعاديةً للأخلاق .

– الألفاظ الفارسيّة

أطلع أبو نواس على ثقافاتٍ تجاوزت حدود الثقافة العربيّة ، وامتلك لساناً فارسياً جعل من قاموسه الشعريّ قاموساً يحفل بكلّ ما أضافه الامتزاج الحضاريّ من ألفاظٍ كانت ميداناً للمواجهة مع الألفاظ العربيّة الأصيلّة² ، غير عابئ بما كانت تسعى إليه حركة التّثقيّة اللغويّة آنذاك من حفاظٍ على صفاء العربيّة وصونها من الدّخيل الذي أخذ يتوغّل في نسيج الثقافة العربيّة بدلالاتٍ معجميّة مختلفة³ ، وجد فيها أبو نواس الخصوصيّة المجديّة التي تحيله إلى الكثافة التعبيرية والحبك المعنويّ على نحوٍ لم يجده في الألفاظ العربيّة⁴ .

فقد كانت الألفاظ الفارسيّة صوتاً حضارياً اجتذب الشاعر إلى فضاءاتٍ مترفة لم يعهدها العرب في وصفهم أو غزلهم ، ولذا بدا أبو نواس مختلفاً في إكثاره من توظيف تلك الألفاظ ؛ حيث جعل منها أداةً لكلّ جديد ، فغدا شرابه فارسياً ، وأدواته فارسيّة ، وساقيه متّشحاً بأثوابٍ وحليّ فارسيّة تدلّ على تميّزها واختلافها ؛ ولا ريب فخمرته ذات أصولٍ فارسيّة ، قطفت ثمارها من كرم

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 707 .

² ينظر : خريس ، حسين : حركة الشعر العباسي في مجال التّجديد ، ج 2 ، ص 232 .

³ ينظر : حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 55 . وخليف ، يوسف : الشعر والحياة اللغويّة في القرنين الأوّل والثاني الهجري ، ص 43 .

⁴ ينظر : سليمان ، فريد حمد : التوظيف الدلالي للألفاظ الأعجميّة في شعر أبي نواس ، مجلة آداب ذي قار ، كلية آداب جامعة ذي قار ، بغداد ، ع 5 ، م2 ، ص 212 .

(دَهْقَان) ، كان يوليها أشدَّ العناية والاهتمام ، يقول :

{ البسيط }

صَهْبَاءُ صَافِيَةٌ ، عَذْرَاءُ نَاصِعَةٌ لِسُّقْمٍ دَافِعَةٌ ، مِنْ كَرَمٍ دَهْقَانٍ
كَرَمٌ تَخَالٌ عَلَى قُضْبَانٍ نَخْلَتِهِ يَوْمَ الْقِطَافِ لَهُ هَامَاتُ حُبْشَانٍ¹

و (الدَّهْقَان) زعيمُ فَلَاحِي العجم ، ورئيس الأقليم أو القرية ، وهو التَّاجِرُ² الَّذِي دَابَّ أَبُو نَوَاسٍ عَلَى زيارته خَاطِبًا خمرته عروسًا لِلذَّةِ³ ، وَلَا بَدَّ لِلخَاطِبِ أَنْ يَبْذُلَ الْغَالِي وَالنَّفِيسَ فِي سَبِيلِ الْحَصُولِ عَلَى مَعْشُوقَتِهِ⁴ ، فَهِيَ لَا تَخْرُجُ إِلَّا لِلْمُلُوكِ ، وَفِي هَذَا يَقُولُ :

{ الطويل }

نَخِيرَةُ دَهْقَانٍ حَوَاهَا لِنَفْسِهِ إِذَا مَلِكٌ أَوْفَى عَلَيْهِ وَسِيمٌ⁵

فَهِيَ (مَدَامُ خَسْرَوِي) " مَنَسُوبٌ إِلَى عُظَمَاءِ الْأَكَاسِرَةِ " ⁶ ، وَفِيهَا يَقُولُ :

{ الخفيف }

فَتَرَى الشَّرْبَ كَالْأَهْلَةِ فِيهَا يَخْتَسُونَ خُسْرَوِيَّ الْمَدَامِ⁷

وَهِيَ شَرَابٌ ذَهَبِيٌّ مَشْعُ يُدْعَى (الزَّرْجُون) ⁸ ، يَقُولُ :

{ مجزوء الرمل }

اسْقَتِي يَا بَنَ أَذِينِ مِنْ شَرَابِ الزَّرْجُونِ
ذَهَبًا يَثْمُرُ دُرًّا كُلُّ إِبَّانٍ وَحِينٍ⁹

وَقَدْ انْتَقَى أَبُو نَوَاسٍ خَمْرَتَهُ مِنْ أَجُودِ الْخَمْرِ وَأَصْفَاهَا ، فَأَطْلَقَ عَلَيْهَا (الْإِسْفَنْط) ¹⁰ ، وَقَالَ فِيهَا :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 113 ، وينظر : ص 127 .

² ينظر : الجواليقي ، أبو منصور : المعرَّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، تج : ف . عبد الزَّحِيم ، دار القلم ، ط 1 ، دمشق ، 1990 م ، ص 303 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 681 .

⁴ المصدر السابق ، ص 118

⁵ المصدر السابق ، ص 132 . وينظر : ص 131 .

⁶ الجواليقي : المعرَّب ، ص 285 .

⁷ أبو نواس : الديوان ، ص 69 . وينظر : ص 88 ، 95 ، 103 ، 141 .

⁸ ينظر : الجواليقي : المعرَّب ، ص 338 ، 339 .

⁹ أبو نواس : الديوان ، ص 70 .

¹⁰ الجواليقي ، أبو منصور : المعرَّب ، ص 110 ، 111 .

{ البسيط }

سَلْسَالَةُ الطَّعْمِ ، إِسْفَظُ ، مَعْتَقَةٌ بِشُرْبِهَا قَيِّمُ الحَانُوتِ أَوْصَانِي¹

وإذا كانت خمرته على هذا النحو من الرفعة والتعظيم ، فلا بد أن يكون فعلها في شاربها عظيماً ، فهي (خندريس)² تذهب عقل شاربها فتتسيه كل ما تعاور عليه من هموم ، فيقول :

{ الطويل }

تَنَادِي بِهِمِّي تَارَةً ، وَبِهِمِّيهِ أَلَا خَلَّيَا قَلْبَيْهِمَا يَرَمَانِ³

وَلَا تُغْفِنِي مِنْهَا ، وَإِنْ قَلْتُ إِنَّنِي فَتَى لَيْسَ لِي بِالْخُنْدَرِيسِ يَدَانِ⁴

يَدَانِ⁴

وهي معتقة حفظت في (الدساكر)⁵ فمضت عليها حقب وسنون ، يقول الشاعر :

{ المنسرح }

حَتَّى تَخَيَّرْتُ بِنْتَ دَسْكَرَةٍ قَدْ عَجَمَتْهَا السَّنُونُ وَالْحَقَبُ⁶

واختص أبو نواس خمرته بأدوات وكؤوس فارسية زادت من تفردها ، فيقول :

{ البسيط }

قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا ، وَاللَّيْلَ مَعْتَكِرَ فَلَاحَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ

فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءَ

فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نَوْرًا لِمَازَجِهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ⁷

و (الإبريق) لفظة فارسية معربة⁸ ، ولعل أبا نواس عمد إلى استخدامها لما فيها من

صفاء صوتي يلائم الجو الذي صورته الأبيات السابقة ، فالقاف والباء والألف أصوات صافية

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 113 .

² الخندريس : " ينتف شاربها لحيته لذهاب عقله " الجواليقي : المعرب ، ص 271 .

³ يرمان : يستوعبان اللذة .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 94 . وينظر : ص 112 ، 142 ، 152 ، 163 .

⁵ الجواليقي : المعرب ، ص 310 ، 311 . وينظر : الديوان ، ص 169 .

⁶ المصدر السابق : ص 4 .

⁷ أبو نواس : الديوان ، ص 6 ، وينظر : ص 94 ، 683 ، 689 ، 690 .

⁸ ينظر : الجواليقي : المعرب ، ص 120 .

واضحة ، ينسجم نطقها مع ما تطلقه الخمر من نورٍ وأضواء¹ تجبر الناظر إليها على أن يكسر طَرْفَهُ ، وأن يضمَّ أجفانه مخافة أن يؤذيه وهجها² .

ويعود الشاعر ليؤكد أنَّ خمرته من شراب الأكاسرة الملوك ، ولذا فقد صبَّت في أقداح مصوِّرة بـصور كسرى وجنوده ، تدعى (الطَّرْجَهَار) ، فيقول :

{ الوافر }

مَصَوِّرةٌ بِصَوْرَةِ جُنْدٍ كِسْرَى وَكِسْرَى فِي قَرَارِ الطَّرْجَهَارِ³

وبدا أبو نواس حريصاً على تنويع كؤوس شرابه ، وتعداد أشكالها ، ولعلَّه وجد في ذلك لذةً وممتعةً طالما نشدها ، وبحث عنها ، ولكنه لم يجدها في معجم الألفاظ العربية التي اختصت بالبدواة وشظف العيش ، دون أن تلفت إلى أثر إناء الخمرة الواسع في نفوس شاربها ، ومن تلك الألفاظ : (الدَّوَارِيق)⁴ ، و (الرَّاقُود)⁵ ، و (الباطية)⁶ .

لقد كانت الألفاظ الفارسية معيَّناً غرف منه الشاعر ، فألقى بدلائله في شتَّى جوانب الحياة، ورأى في ملابس الفرس ، وأعيادهم ، ومتعلقات حضارتهم ، مظاهر لا بدَّ أن يهتم بها المجتمع، وأن يُعزَّز وجودها ، وأن يهمل ما أورثته البداية من جذبٍ وقحطٍ كان الضياع والاندثار أولى به.

¹ ينظر : سليمان ، فريد حمد : التوظيف الدلالي للألفاظ الأعجمية في شعر أبي نواس ، ص 2 .

² ينظر : حاشية الديوان ، ص 6 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 77 .

⁴ الدَّوَارِيق : واحدها دورق ، مكيالٌ للشَّرب ، ويطلق على الجرة ذات العروة ، الجواليقي : المعرَّب ، ص 301 ، 302 . وينظر : أبو نواس : الديوان ، ص 49 ، 171 .

⁵ الرَّاقُود : إناءٌ من آنية الشَّراب ، وهو دُنٌّ يفرش باطنه بالقار ، وجمعه الرَّاقيد ، الجواليقي : المعرَّب ، ص 328 .

وينظر : أبو نواس : الديوان ، ص 705 .

⁶ الباطية : كلمةٌ فارسيَّةٌ ، إناءٌ واسعُ الأعلى ضيقُ الأسفل ، الجواليقي : المعرَّب ، ص 211 . وينظر : أبو نواس : الديوان ، ص 131 .

فالقباء¹ ، والقرطق² ، والسراويل³ ، والزنار⁴ ، والسّابري⁵ ، وقطربل⁶ ، والآذريون⁷ ،

¹ القباء : فارسيّ معرّب ، وهو الممدود من الثّياب ، والجمع أقبية . الجواليقي : المعرّب ، ص 503 ، 504 .
يقول أبو نواس :

{ الوافر }

وَجَلُّ الْجُنْدِ تَحْتَ رِكَابِ كِسْرَى بِأَعْمِدَةٍ وَأَقْبِيَةٍ قِصَارِ

الديوان ، ص 77 .

² القرطق : شبه بالقباء ، فارسيّ معرّب ، والجمع قراطق . الجواليقي : المعرّب ، ص 507 . يقول :

{ المنسرح }

فِي قُرْطُقٍ زَانَهُ تَخْرُسْنَهَا قَدْ عَفَرْتُ صُدْعَهَا مَدَارِيهَا

الديوان ، ص 191 . وينظر : ص 8 ، 66 ، 85 ، 159 ، 171 .

³ السراويل : " هو فارسيّ ، وأصله شلّوار بمعنى الإزار ، وقع في اللَّفْظِ المعرّب قلبُ مكانيّ فَقَدِمَتِ الرّاءُ على اللَّامِ ، وقلبت الشين سيناً فأصبح سراويل ، والجمع سراويل " . الجواليقي : المعرّب ، ص 391 . يقول :

{ الهزج }

وَفِي الْحَمَامِ يَبْدُو لَكَ (م) مَكْنُونُ السَّرَاوِيلِ

الديوان ، ص 367 . وينظر : ص 520 .

⁴ الزنار : ما يلبسه الدّميّ على وسطه . الجواليقي : المعرّب ، ص 350 . يقول :

{ السّريع }

يَا عَاقِدَ الزَّنَارِ فِي الْخَصْرِ بِخُرْمَةٍ حَانَةِ الْفَهْرِ

الديوان ، ص 82 . وينظر : ص 35 ، 195 ، 366 .

⁵ السّابريّ : كلّ رقيقٍ من الثّياب البيض . الجواليقي : المعرّب ، ص 386 . يقول :

{ الطويل }

وَبِعْتُ قَمِيصًا سَابِرِيًّا، وَجُبَّةً، وَبِعْتُ رِدَاءَ مُغْلَمِ الطَّرْفَيْنِ

الديوان ، ص 86 .

⁶ قُطْرَيْل : " كلمةٌ أعجميّةٌ وليس لها مثالٌ في كلام العرب البتّة " ، اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر ، وهو متنزّة متنزّة للبطالين ، وحانةٌ للخمارين . الجواليقي : المعرّب ، ص 522 . يقول :

{ الطويل }

طَرَبْتُ إِلَى قُطْرَيْلٍ فَأَتَيْتُهَا بِمَالٍ مِّنَ الْبَيْضِ الصَّاحِ ، وَعَيْنِ

الديوان ، ص 86 . وينظر : ص 4 .

⁷ الآذريون : زهرٌ أصفر في وسطه حملٌ أسود . الجواليقي : المعرّب ، ص 35 . يقول :

{ الخفيف }

وَلَهُمْ مِنْ جَنَاهُ آذَرِيُونَ وَضَعُوهُ مَوَاضِعَ الْأَقْلَامِ

الديوان ص 69 ، 70 .

والجَلَنَار¹، والنَّرْجِس²، والزَّبرجد³، والياقوت⁴، والطَّنْبور والنَّرد⁵، والبستان⁶، والنُّوروز⁷، مفردات مفردات حفل بها ديوان أبي نواس لارتدائها ثوب الحضارة التي وافقت تمرده، وسوَّغت انقلابه؛ لما حملته من رقة ونعومة في لفظها ودلالاتها، على النقيض من المفردات التي استقاها الشعراء التقليديون من معجم الصحراء العربية، كالريح والمطر، والدمن والأثافي، والناقة، والأبقار الوحشية، والحيوانات، والهوام، التي باتت مخترنة في الماضي، ولم تعد تنطق بالواقع المتجدد.

¹ الجَلَنَار : فارسيّة دخيلة، زهر الرمان . الجوالقي : المعرب، ص 39 . يقول :
{ مجزوء الرمل }

خُنْدَرِيسَا، تنفّح المِسْ كَ وَتَحْيِي الجَلَنَارَا

الديوان، ص 112 .

² النرجس : نوعٌ من الرياحين، هو فارسيّ، وأصله ثركس يفتح النون وكسر الكاف الفارسيّة . الجوالقي : المعرب، ص 606 . يقول :
{ السّريع }

وَالنَّرْجِسُ الغَضُّ لَدَى وَرْدِهِ وَالْوَرْدُ قَدْ حُفَّ بِنَسْرِيْنِهِ

الديوان، ص 83 . وينظر : ص 160 ، 677 .

³ الزَّبرجد : فارسيّ معرب، وهو الزَّمرّد . الجوالقي : المعرب، ص 307 . يقول :
{ الكامل }

صَاغَ المِزَاجَ لَهَا مِثَالِ زَبَرْجَدٍ مُتَأَلِّقٍ بِبِدَائِعِ الْأَصْوَاءِ

الديوان، ص 704

⁴ الياقوت : فارسيّ معرب، وهو نوعٌ من الأحجار الكريمة، أزرق اللون . الجوالقي : المعرب، ص 649 . يقول :
{ البسيط }

أَزَحْتُ عَقُودًا مِنَ الْيَاقُوتِ مُدْمَجَةً صَفْرًا وَحُمْرًا بِهَا كَالْجَمْرِ يَشْتَعِلُ

الديوان، ص 699 .

⁵ الطنبور والنَّرد : أدواتٌ للعب . الجوالقي : المعرب، ص 444، ص 605، 606 . يقول :
{ الهزج }

حَلَفْتُ الْيَوْمَ بِالطَّنْبُورِ رِ، وَالْكَعْبَيْنِ، وَالنَّردِ

الديوان، ص 729 .

⁶ البستان : فارسيّة دخيلة . الجوالقي : المعرب، ص 37 . يقول :
{ البسيط }

يَا حَبْدَا مَجْلِسٍ قَدْ كَانَ يَجْمَعُنَا بِطَيْرِنَابَادَ فِي بُسْتَانِ عَمَارِ

الديوان، ص 145 .

⁷ النوروز : فارسيّ معرب، وهو عيد رأس السنة عند الفرس . الجوالقي : المعرب، ص 617 . ينظر : الديوان، ص 222 .

– الألفاظ المسيحية والمجوسية والفلسفية

بدأت أشعار أبي نواس مختلفة الملامح تبعاً لهوية الألفاظ التي نسجتها ، والمعجم اللغوي الذي اتكأ عليه في بنائها ، فالشاعر كان ولعاً بالتغيير الذي يخلص به إلى التخليق في فضاء الحرية بشتى أشكالها .

أ – الألفاظ المسيحية

لا يخفى على القارئ ما دأب عليه أبو نواس من استباحة المحرمات ، وخرق المسلمات التي تحول دونه ودون لذته . وقد وجد في المسيحية والمجوسية ما يحققها دون قيود ، ويسمح لها بالتماهي دون حدود ، فما هو محرّم مرفوض عند المسلمين ، مرخص محبب عند غيرهم ، بل قد يغدو من طقوس عبادتهم ، وجزءاً لا يتجزأ من عاداتهم . وهذا ما يفسر لجوء أبي نواس إلى الأديرة يغب من خمرها ، ويمتّع نفسه بالنظر إلى نسائها من الرهبان والراهبات ، ويستظلّ بفيء كرومها ، ويطرب على وقع معاصر مدامها ، متقن الصنع محكم التعتيق . يقول الشاعر :

{ الكامل }

خُذْهَا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ إِذَا نَهَى عَنْ شُرْبِهَا دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ¹

ولذا التقطت عدسة الشاعر أديرة النصارى ومتعلقاتها ، وأخرجتها إلى المجتمع في صورة تهزّ المألوف ، وتجتاح التقليد ، وترفد الحياة بمادة جديدة ، وتصبغ الفن بلون جديد² ، فلم تعد لفظة (الدّير) في عرف أبي نواس تشير إلى مكان انقطاع الرهبان للصلاة والتأمل منصرفين عن متاع الدنيا وطيباتها ، متأبدين للعبادة بأجسادهم وأرواحهم³ ، وإنّما هو مرتع للمتّع ، وملعب للفجور ، يقصده وعصابته سعيّاً وراء اللذة التي لا تتحقق إلّا فيه ، فيقول :

{ السريع }

بَذِيرٌ بِهِ رَأْدَانٌ لِي مَجْلِسٍ	وَمَلْعَبٌ وَسَطٌ بِسَاتِينِهِ
رَخْتُ إِلَيْهِ وَمَعِيَ فُتْيَةٌ	نَزْوَرُهُ يَوْمَ سَعَانِينِهِ
بِكُلِّ طَلَابٍ الْهَوَى فَاتِكِ	قَدْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى دِينِهِ

¹ نقلاً عن : صدقي ، عبد الرحمن : ألحان ألحان ، ص 45 .

² ينظر : حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 48 .

³ ينظر : صدقي ، عبد الرحمن : ألحان ألحان ، ص 43 .

فَلَمْ نَزَلْ نُسْقَى ، وَنَلْهُو بِهِ وَنَأْخُذُ الْقَصْفَ بَأْيِينِهِ¹

وقد وظّف الشاعر في الأبيات السابقة لفظ (السّعانيين) ، وهو يومٌ من أعياد النّصارى ، يحتفلون فيه بقصفٍ وشربٍ ولهوٍ وطربٍ ، لم يعهده المسلمون في أعيادهم أو حتّى في أيامهم المباركة² . ولم تكن أعياد النّصارى وحدها كافيةً لإثارة التّجربة لدى الشّاعر ؛ فأصوات النّواقيس والزّيرات³ ، وما يرافقها من ترانيل يتلوها الرّهبان ؛ وما يعقبها من دراسة الإنجيل أمورٌ حرّكت مشاعر أبي نواس ، وهيجت فيه الحنين إلى الخمر المقدّسة التي يصرُّ على تحليلها وفق تعاليم النّصارى ، فيقول :

{ الهزج }

أَنَا - وَاللّهِ - مُشْتَاتِقٌ	إِلَى الْحَيْرَةِ ، وَالْخَمْرِ
وَأَصْوَاتِ النَّوَاقِيسِ	عَلَى الزَّيْرَاتِ بِالْفَجْرِ
وَمُشْتَاتِقٌ إِلَى الْحَانَا	بِ يَوْمِ الذَّبْحِ وَالنَّخْرِ
وَمُغْنٍ فِي طِلَابِ الْمُرِّ	دِ الْخَمْرِ مَعًا وَفَرِي
أَمَّا وَاللّهِ تَسْنُمُ	ع مَا قُلْتُ مِنَ الشُّعْرِ
لَا يَسْنُتُ مَنْ أَفْلَاحِي	يَقِينًا آخِرَ الْعُمْرِ ⁴

ولعلك تدرك ما تحمله الأبيات السابقة من إصرار الشّاعر على المواجهة بمبدئه المخالف ؛ إذ يمزج بين أعياد النّصارى ، وأعياد المسلمين ، ليستبدل العكوف على الخمر في الكنائس ، وطلب الغلمان المرد بما دعت إليه تعاليم الإسلام من عُكوفٍ على الذّكر والعبادة في يوم النّحر⁵.

وفي قوله :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 83 .

² صدقي ، عبد الرحمن : ألحان ألحان ، ص 66 .

³ الزّيرات : الأوتار الدقيقة في آلات الطرب والملاهي ، الديوان : ص 199 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 199 .

⁵ يوم النّحر : العاشر من ذي الحجة . قال تعالى : " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَاسِ الْفَقِيرِ " . الحج ، الآية 27 ، 28 .

{ البسيط }

دَعِ الْبَسَاتِينَ مِنْ وَرْدٍ ، وَتَفْاحِ
اغْدِلْ إِلَى نَفَرٍ ، دَقَّتْ شُخُوصُهُمْ
يَكْرُرُونَ نَوَاقِيسًا مُرْجَعَةً
تَنْأَى بِسَمْعِكَ عَنْ صَوْتِ تَكَرُّهُ
إِلَّا الدَّرَاسَةَ لِلْإِنْجِيلِ مِنْ كُتُبِ
يَا طِيبَهُمْ ، وَغَتِيقُ الرِّاحِ تُخَفِّتُهُمْ
يَسْقِيكُهَا مُدْمَجُ الْخَصْرَيْنِ ، ذُو هَيْفٍ
وَاعْدِلْ - هُدَيْتْ - إِلَى ذَاتِ الْأَكْبِرَاحِ
مِنْ الْعِبَادَةِ ، إِلَّا نِضْوَ أَشْجَابِ
عَلَى الزُّبُورِ ، بِإِمْسَاءٍ ، وَإِصْبَاحِ
فَلَسْتُ تَسْمَعُ فِيهِ صَوْتُ فَلَاحِ
ذِكْرِ الْمَسِيحِ بِإِبْلَاجٍ وَإِفْصَاحِ
بِكُلِّ نَوْعٍ مِنَ الطَّاسَاتِ رَحْزَاحِ
أَخُو مَدَارِعِ صُوفٍ فَوْقَ أُمْسَاحِ¹

فيرسم الشاعر لوحةً منقلبة يستمد ألوانها من ألفاظٍ مسيحيةٍ ؛ ليشعر القارئ بأنه غدا زاهداً في متاع اللذة الدنيوية بعد أن سلبه زهد أولئك الرهبان الذين أجهدوا أنفسهم في العبادة حتى انبرت أجسادهم ونحلت أعوادهم فأضحت كالأشباح ، واهتزت أسماعه بأصوات نواقيسهم تدعوهم إلى الصلاة ، وتدارس الإنجيل كل صباح ومساءً² . ولكن القارئ يفاجأ بأنَّ النشوة الدينية التي اعترت أبا نواس كانت نشوة طارئة عبّر من خلالها عن افتتانه بطقوس العبادة النصرانية ، وطربه لسماع تراتيلها ، في مقابل بغضه لسماع صوت المؤذن ينادي بـ " حيّ على الفلاح " ؛ وذلك لأنّه يقطع عليه تأمله بالرهبان أولي الأمساح ، وينهاه عن منكرٍ يدور في خَلده، ومعصيةٍ تدعوه نفسه إلى اقترافها .

تلك المعصية التي أجهد أبو نواس نفسه في تحقيقها ، وبدا مستعداً لخدمة طاقاته الفنية وكل ما تختزن ذاكرته من ألفاظٍ تتعلّق بالنصرانية لاستجداء وصل غلامٍ مسيحيٍّ فاتك النظرات ، ساحر الجمال ، فيقول :

{ الوافر }

بِمَعْمُودِيَّةِ الدِّينِ الْعَتِيقِ
بِشَمْعُونِ بِيُوحَنَّا بِمَتَّى
بِمَارِي بَطْرِسَ بِالْجَاثَلِيقِ
بِمَارِي سَرْجِسَ الْقَسَّ الشَّفِيقِ
وَبِالْقُرْبَانِ وَالْخَمْرِ الْعَتِيقِ
وَبِإِعَاوِثِ لَتَأْدِيَةِ الْحُقُوقِ
وَشَمْعَلَةِ النَّصَارَى فِي الطَّرِيقِ
بِمَعْمُودِيَّةِ الدِّينِ الْعَتِيقِ
بِشَمْعُونِ بِيُوحَنَّا بِمَتَّى
بِمَارِي بَطْرِسَ بِالْجَاثَلِيقِ
بِمَارِي سَرْجِسَ الْقَسَّ الشَّفِيقِ
وَبِالْقُرْبَانِ وَالْخَمْرِ الْعَتِيقِ
وَبِإِعَاوِثِ لَتَأْدِيَةِ الْحُقُوقِ
وَشَمْعَلَةِ النَّصَارَى فِي الطَّرِيقِ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 121 .

² ينظر : التّوحيي : نفسية أبي نواس ، ص 120 ، 121 .

أما والقُرْب مِنْ بُعْدِ التَّنَائِي يمين فتى لقائِهِ عَشِيقِ
لقد أَصْبَحَتْ زِينَةً كُلَّ عِيدِ ودينَ مع جفائِكَ بالعُقُوقِ¹

ولم يغفل أبو نواس لفظاً يتّصل بالرسالة المسيحية من قريبٍ أو بعيدٍ إلا ووظّفه ، دون أن تعيقه قدسيّة تلك الألفاظ عن التّغزل بمحبوبه واستعطاء قربه ورضاه ، بل لعلّه استطاع أن يحيل تلك المفردات إلى ترانيم صلاةٍ عشقيّة تفضي به إلى نيل محبوبٍ نصرانيٍّ أعياه في تنبّعه ، وأرهقه في جَوْرِهِ² .

فإذا تمّ له الوصال فإنّه سيجعل من كنيسة ذاك الغلام قبلةً يحجّ إليها ، ويمارس شعائر دينيّة اختصت بالبيت الحرام ، معلّناً تحديه السّافر لحرمة المشاعر المقدّسة ، والركن الخامس من أركان الدين ، فيقول :

{ الوافر }

عَزَلُ العُمَرِ فِي خَلِّ الدِّيَارِ فَذَاكَ مَعَ اللَّحَى شَكْلُ الجَوَارِي
إِذَا مَا رَاحَ مِنْ قَلَابَتِيهِ لِهَيْكَلِهِ وَأَذَنَ بَابَتِكُورِ
يُقَلَّدُ فِي تَرَائِيهِ صَالِبًا وَمُسْتَلَبِ الدَّوَابِّ بِالشَّعَارِ
فَذَاكَ وَإِنْ عَصَبْتُ لَهُ بِرَأْسِي عَصَابَةَ شُهْرَةٍ مِنْ قَوْلِ زَارِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَعْتِ المَطَايَا إِلَى البَيْتِ المُحَرَّمِ ذِي السَّتَارِ
وَطُوفِي بِالصَّفَاءِ وَمَرْوَتِيهِ وَمَسْجِ الرُّكْنِ مَعَ رَمِي الجَمَارِ
سَأَجْعَلُ حِجَّتِي مَاسْرَجَسَايَا رَضِيْتُ بِذَاكَ حِجِّي وَاعْتِمَارِي
وَدَوْمَةَ شَفْرَا والدَّيْرِ رُكْنِي وَأَخْلَقَ لِمَتِّي بِالنُّوبِهِارِ³

وقد يلحّ أبو نواس في استعطاف ذاك الغلام إلحاحاً يجعله لا يرى نفسه سوى قسٍ أو مطرانٍ ، أو إنجيلٍ مقدّس ، أو حتّى قربانٍ يقرّبه محبوبه⁴ ، في إشارة إلى الارتباط الوثيق بين تلك المفاهيم ورغبات أبي نواس المنقلبة التي تدفعه إلى توظيف ما اكتسبه من ثقافة تتعلّق بالمسيحية للإيقاع برهبانها ، وخادمي أديرتها .

¹ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 80 ، 81 .

² ينظر : الديوان ، ص 366 ، 370 . والفكاهة والإتناس ، ص 80 - 84 .

³ أبو نواس ، الفكاهة والإتناس ، ص 84 ، 85 .

⁴ ينظر : المصدر السابق ، ص 85 .

ب- الألفاظ المجوسية

انتهج أبو نواس في توظيف الألفاظ المجوسية أسلوبه في استخدام الألفاظ المسيحية ، فيقول في غلام يدعى " بهروز " :

{ الوافر }

حَمَانِي وَصَلُ أَبْنَاءِ الْفُسُوسِ	بِحُبِّ الْفُرْسِ بِهِرُوزَ الْمَجُوسِي
تَقِي النَّفْسِ أَزْهَرُ قُرْطَقِي	رَشِيقُ الْقَدِّ كَالظَّبِّي النَّعُوسِ
شَكَّوتُ إِلَيْهِ كُرْبَةً مُسْتَهَامِ	وَمَا لَقَاؤُنَا يَوْمَ الْخَمِيسِ
فَقُلْتُ وَنَحْنُ فِي وَجَلٍ شَدِيدِ	رَضِينَا مِنْ وَصَالِكَ بِالْخَسِيسِ
بَأَسْفَهَرِ وَيَانِيدَ وَنَهْرٍ	وَحَقَّ الْمَاءِ وَالْمِهْرَارِيبِيسِ
بِمَا يَتَلَوْنَ فِي الْبِيسَاقِ زُمَرًا	كِتَابَ زُرُودِ دَاعِيَةِ الْمَجُوسِ
بِحَقِّ الْمِهْرَكَانِ وَنُوكُرُوزِ	وَمَرَحَفِ أَمْسَاهِ الْكَبِيسِ
وَمَا يَتَلَوْنَ فِي شَرُوبِ دَسْتِي	وَمِنْ حَرْدَابِ رَامِينِ وَوَيْسِ
لَمَّا كَلَّمْتَنِي وَرَدَدْتَ نَفْسِي	فَإِنِّي مِنْ جَفَائِكَ فِي رَسِيسِ ¹

فقد حشد أبو نواس ألفاظاً فارسية مجوسية بعيدة كل البعد عن الثقافة العربية الإسلامية ؛ لخدمة غرضه في استمالة محبوبٍ استعصى عليه نواله ، ولم يورثه إلا الجروح والفروح بتمنّعه ودلاله .
لقد أثبتت لغة النُواسي مرونتها وتجديدها ، وقدرتها على احتواء روح الشاعر ، والتكيف مع متطلباته الذهنية والنفسية والجسدية ، فتفوّقت على ذاتها ، واستعارت من ثقافة العصر ما يمكنها من التماسي مع مآرب الشاعر .

ج - الألفاظ الفلسفية

اتكأت لغة أبي نواس على ألفاظٍ فلسفية تبرر مجونَ الشاعر بحُجّة إيمانه بفلسفة المرجئة التي تنادي بالعفو المُطلق عن كلِّ مُسلمٍ نطقَ الشّهادة² ، فيقول :

¹ أبو نواس ، الفكاهة والإتناس ، ص 78 ، 79 . و ينظر : ص 77 ، 79 ، 99 ، 100 .

² ينظر : خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، ص 63 .

{ البسيط }

فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
لَا تَحْظُرُ الْعَفْوَ إِنْ كُنْتَ امْرَأً حَرَجًا فَإِنْ حَظَرَكَهُ فِي الدِّينِ إِزْرَاءُ¹

وجاءت ألفاظه في زهدياته مشفوعةً بقوالب من الحكمة والتجربة ، خلافاً لما كانت عليه لغته
في خمرياته ومجونه ، فيقول :

{ الخفيف }

انْقَضَتْ شِرَّتِي فَعِفْتُ الْمَلَاهِي إِذْ رَمَى الشَّيْبُ مَفْرَقِي بِالْدَّوَاهِي
وَنَهْتَنِي النَّهْيُ فَمِلْتُ إِلَى الْعَذِّ لِ وَأَشْفَقْتُ مِنْ مَقَالَةٍ نَاهِ
أَيُّهَا الْغَافِلُ الْمُقِيمُ عَلَى السَّهِّ وَ ، وَلَا عُذْرَ فِي الْمُقَامِ لِسَاهِ
لَا بِأَعْمَالِنَا نُطِيقُ خَلَاصًا يَوْمَ تَبْدُو السَّمَاءُ فَوْقَ الْجَبَاهِ
غَيْرَ أَنِّي عَلَى الْإِسَاءَةِ وَالتَّفِّ رِيظٍ رَاجٍ لِحَسَنِ عَفْوِ اللَّهِ²

كما استجابت لغة أبي نواس لأذواق من عاصره من النقاد ، وعلماء اللغة ممن ارتبط ذوقهم
بالأساليب العربية القديمة ، فكانت لغةً رصينةً متماسكةً ذات طابعٍ ارستقراطيٍّ مقيدٍ بقيود لفظيةٍ
ومعنويةٍ وعروضيةٍ ترفعها عن تناول العامة ، وتجعلها تتفوق حتى على نظم القدماء في أغراض
المدح والفخر والرثاء والوصف³ .

لقد حققت لغة أبي نواس نوعاً من التوافق بين ذات الشاعر ولذاته ورؤيته للحياة ، ومواقفه
المتمردة المخالفة ، فكانت محطة إعجاب لم يسلم من النقد ، ولا سيما حين خرج فيها الشاعر عن
صحة الكلمة من ناحية النحو والإعراب ، أو المعنى والوصف⁴ .

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 7 . وينظر : ص 126 ، 182 ، 620 .

² المصدر السابق : ، ص 621 .

³ ينظر : حسين ، طه : حديث الأربعة ، ج 2 ، ص 120 ، 121 . و لحميداني ، حميد : في قراءة شعر أبي نواس ،
ص 32 .

⁴ ينظر : الواسطي ، محمد : المنهج اللغوي وتطبيقه في شعر أبي نواس ، ص 10 .

ثانيًا : الأسلوب الشعري

خضع إبداع أبي نواس لرؤيته المتمردة، ومنطقه المعكوس ، فبدأ أسلوبه الشعري مختلفًا حافلًا بما ورثه من ثقافةٍ وعلوم ومعارف قد صاغها الشاعر صياغةً تخدم طريقته في المواجهة والتغير . وبثَّ أبو نواس في أسلوبه روحه المتجددة وما طبعت عليه قريحته المولدة من حبِّ الثورة والانقلاب . وقد تمثل هذا الأسلوب بما يأتي :

1- التناص :

" ظهر التناص في الدراسات الأدبية والنقدية كمصطلحٍ يختزل تلك العلاقات الدّاخلية التي تحدث بين النّصوص الإبداعية كنتيجة من نتائج امتزاجها وتجاوزها وتراكمها " ¹ . فهو شيء عامٌّ ومتوقع ؛ إذ لا بدَّ لأيِّ شاعرٍ من الاطّلاع على ما سلف من التّراث ، ولا بدَّ له من الاستفادة ممّا جادت به قرائح سابقه حتى يستقل بطريقته ² ، كما لا بدَّ للقارئ من أن يكون على معرفة بالنّصوص التي تتعالق وتتداخل ؛ ليتمكن من التّفاعل مع النّص الجديد ³ .

وقد وظّف أبو نواس التناص بأنواعه المختلفة في أشعاره ، ولكنّ توظيفه كان معانقًا للنّص الأصلي تارةً ، ومنافرًا له تارةً أخرى ؛ حيث وجد في المعنى المعكوس ما يخدم مذهبه الفني المتمرد . ويسلّط هذا القسم الضّوء على ما اقتبسّه الشّاعر من ألفاظ ، ونصوص دينية ، أو أدبية، أو تاريخية ، أو علمية ، عمد إلى توظيفها بما يوافق انقلابه ويمكّنه من مواجهة متحديه وعدّاله . وفيما يلي نماذج من هذا التناص :

أ- التناص الديني

ساهمت نشأة أبي نواس في إثراء مخزونه الديني من القرآن الكريم ، والحديث الشريف والأخبار الدينية ، ولكن هذا المخزون بات عرضة للتحويل والتغيير بما يوافق غرض الشاعر

¹ نصير ، فاطمة : تجليات التناص في أشعر أبي نواس ، مجلّة مقاليد ، جامعة قاصدي مرباح ، الجزائر ، ع 5 ، 2013 م ، ص 191 .

² ينظر : سنجلاوي ، إبراهيم : دلالة التّضمين في خواتم قصيدة أبي نواس ، مجلة جامعة دمشق ، سوريا ، م 3 ، ع 11 ، 1987 م ، ص 52 .

³ ينظر : ربابعة ، موسى : جماليات الأسلوب والتّلقي دراسة تطبيقية ، دار جرير للنشر والتوزيع ، 2008 م ، ص 109 .

وهدفه ، وما يمازج سلوكه العايب الماكن ¹ . ومن ذلك اقتباسه قوله تعالى : " وَيَلِّ الْمُصَلِّينَ ² ، في قوله :

{ البسيط }

مَا قَالَ رَبُّكَ وَيَلِّ لِلَّائِي سَكِرُوا بَلْ قَالَ رَبُّكَ وَيَلِّ لِلْمُصَلِّينَ ³

حيث يرى أبو نواس في توعد الله تعالى المصلين حجة يتصدى بها للائمية الذين يحاولون النيل من معبودته ، فينفي استحقاق السكارى للعذاب فيما يثبت للمصلين ، على أن الحكم الوارد في الآية القرآنية لم يكن حكماً مطلقاً ؛ إذ إن الله تعالى يتوعد المصلين الساهين في صلاتهم ⁴ . وإذا كان القرآن الكريم نهى الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن نهر السائل المسكين فقال : " وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ " ⁵ فقد وظف أبو نواس معنى هذه الآية توظيفاً معكوساً في قوله :

{ الكامل }

يَا نَاهِرَ الْمُسْكِينِ عِنْدَ سُؤَالِهِ اللَّهُ عَاتَبَ فِي انْتِهَارِ السَّائِلِ ⁶

فصور نفسه واقعاً بباب محبوبته ، محتاجاً إلى الوصل والحب ، بصورة سائل مسكين يطلب الصدقة التي تقيم أودّه ، فيقابل بالصد ، فلا يملك سوى عتاب المحبوبة بما نهت عنه الآية الكريمة على الرغم من أنه يطلب منها وصلاً محرماً ⁷ .

ويحوّر أبو نواس المقصود من قوله تعالى : " هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ " ⁸ بما يوافق هواه ، ويحقق بغيته من محبوبه ، فيقول :

¹ ينظر : الزهيري ، محمود : تأثير القرآن الكريم في شعر أبي نواس ، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها ، م 9 ، ع 1 ، 2013 م ، ص 85 ، 65 .

² سورة الماعون : (الآية 4) .

³ نقلاً عن : عبود ، مارون : الرؤوس ، ص 120 .

⁴ ينظر في تفسير هذه الآية : قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، ط 25 ، دار الشروق ، القاهرة ، 1996 م ، م 6 ، ص 3985 ، 3986 .

⁵ سورة الضحى : (الآية 10) .

⁶ أبو نواس : الديوان ، ص 253 .

⁷ ينظر : الزهيري ، محمود : تأثير القرآن الكريم في شعر أبي نواس ، ص 94 .

⁸ سورة الرحمن : (الآية 60) .

{ السريع }

لو كُنْتَ فِي حَبِيكَ لِي مُنْصِفاً جازَيْتَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَاناً¹
كما نثر أبو نواس قوله تعالى : " سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ " ² في
جزئية شعرية غاية في العبث والمجون ، فقال :

{ السريع }

سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ هَذَا لَنَا يَوْمًا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ³
فهو يسبح الله على ما سخر له من معصية مع ذاك الخدين ، على النقيض من حال المؤمنين
الذين يستشعرون نعمة الله تعالى عند ركوبهم المطايا ، وفي هذا مخالفة لما أمر الله به في الآية ،
واباحة لكبيرة تستوجب العذاب الشديد .
ولا ينعوي أبو نواس عن استخدام آيات القرآن الكريم لتبرير مجونه وقلة ورعه ، فتراه يوظف
الحكم الوارد في قوله تعالى : " يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ " ⁴ ، في تسويغ
تسويغ إصراره على عشق الغلمان ، وإيثاره إيّاهم على النساء ، فيقول :

{ الوافر }

وعاذلة تلوم على اصطفائي	غلاماً واضحاً مثل المهابة
وقالت : " قد حرمت ، ولم تُوفَّقْ	لطيب هوى وصال الغانيات
دعيني لا تلوميني ؛ فإني	على ما تكريهين إلى الممات
بذا أوصى كتاب الله فينا	بتفضيل البنين على البنات ⁵

على أن اصطفاء البنين على البنات من أخلاق الجاهلية التي أنكرها الإسلام ، فقال تعالى :
" أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ " ⁶ ، إلا أن أبا نواس قلب هذا الحكم لما يتفق مع
سلوكه الماجن في وصال الغلمان ، والنفور من الجواري ⁷ .

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 345 .

² سورة الزخرف : (الآية 13) .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 373 .

⁴ سورة النساء : (الآية 11) .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 715 .

⁶ سورة الزخرف : (الآية 16) .

⁷ ينظر : الزهيري ، محمود : تأثير القرآن الكريم في شعر أبي نواس ، ص 104 .

وإذا كانت الآية الكريمة في قوله تعالى : " إِيَّاكَ الْذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ " ¹ ، قد أبرزت " صورة الأمة الخيرة القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير متواصية بالحق والصبر في مودة وتناصح وتآخ " ² ، فإنَّ أبا نواس أحالها بمفهومها ، وما ترمي إليه حقيقتها إلى صورة مغايرة تعكس أخلاق ندمائه ، فيقول :

{ البسيط }

قَوْمٌ تَوَاصَوْا بِتَرْكِ الْبِرِّ بَيْنَهُمْ تقول: ذا شرُّهم ، بل ذاك ، بل هذا
لَيْسُوا كَقَوْمٍ إِذَا حَادِثَتْ مَجْلِسَهُمْ أنفِذَتْ بِالتَّزَكِّيِّ وَالْإِزْكَانِ إِنْفَادًا
هَنَّاكَ لَا تَتَخَطَّى الْأُذُنَ لَائِمَةً ولا ترى قائلًا من ذا ، ولا ماذا.. ³

فصفوة الشاعر وأحابيه من شرار النَّاسِ ، يجمعه بهم الفعل الحرّ ، والإرادة التي لا تخضع لعبودية الأعراف والتقاليد ، فيعيش بينهم بكامل حريته ، فلا لوم ولا تقريع ولا عتاب ، فهم بخلاف الآية الكريمة السابقة متفقون على الشرّ ، متواصلون بتزكّي البرّ ، إلّا أنهم كما يرى الشاعر نخبة تستحقّ الاحترام والتقدير ⁴ .

واجترأ أبو نواس على أحكام الحلال والحرام ، فحلّ ما حرّم الله ، وجاهر بفسوقه وتهتكته ؛ ليثبت أنّه لا يخضع إلا لعبثه وما تنطوي عليه لذته ، وأنّه لا يبالي بعظم العقوبة التي تحول دونه ودون رغباته وشهوته . فتراه منقلبًا على قوله تعالى : " وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ " ⁵ فيقول :

{ الوافر }

كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بَتُّ أَلْهُو بِهَا لَوْ دَامَ ذَاكَ اللَّهُ لَأُلهِيَ
حَرَمَهَا اللَّهُ ، وَحَلَّلْتُهَا فكيف بالعفو من الله ⁶

على الرغم من اعترافه بأنّها حرّات يستوجب اقترافها إقامة الحدّ ، فيقول في تحليل الخمر مثلاً:

¹ سورة العصر : (الآية 3)

² قطب ، سيّد : في ظلال القرآن ، م 6 ، ص 3968 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 27 .

⁴ ينظر : الزعيم ، أحلام : أبو نواس بين العبث والاعتراّب والتّمرد ، ص 124 .

⁵ سورة النحل : (الآية 116)

⁶ أبو نواس : الديوان ، ص 623 .

{ الكامل }

فَأَشْرِبَهَا صِرْفًا ، وَأَعْلَمُ أَنَّنِي أَعَزُّ فِيهَا بِالثَّمَانِينَ فِي ظَهْرِي¹

كما استحضر أبو نواس أسماء وفواتح بعض السور القرآنية ؛ لا ليعظم من شأنها ، وإنما ليعظم شأن محبوبته ، وليؤكد على أنه لن يهجرها وإن بادلتها العشق بالسَّلوان ، فيقول :

{ المجتث }

وَاللَّهُ مُنْزِلُ طُورِ	وَالطُّورِ وَالذَّارِيَاتِ
الرَّصِصِ وَقِ	وَالْحَشْرِ وَالْمُرْسَلَاتِ
وَرَبِّ هُودٍ وَنُوحٍ	وَالنُّجُورِ وَالنَّازِعَاتِ
لَا رَمِيَتْ هَجْرَكَ حَبِي	حَتَّى وَإِنْ لَمْ تُوَاتِي ²

ولا بدّ أن يلحظ المتأمل في شعر أبي نواس توظيفاً لأسماء بعض الأنبياء ، وبعض الشخصيات الدينية . ولم يكن ذاك التوظيف من باب أخذ العبرة والعظة وإنما أراد الشاعر من خلاله إثبات تفوق خمرته وتميزها ، فهي منسوبة إلى الأزل ، رافقت نوحاً و آدم قبله ، يقول :

{ الكامل }

نُخِرْتُ لَادِمَ قَبْلِ خَلْقِهِ فَتَقَدَّمْتُهُ بِخَطْوَةِ الْقَبْلِ³

ويقول :

{ الوافر }

رَأْتُ نُوحًا ، وَقَدْ شَمِطْتُ وَشَابَتْ وَقَدْ شَهِدْتُ قُرُونًا قَبْلَ نُوحٍ⁴

وسمعت بذي القرنين ، بل وأدركت موسى عليه السلام ، وصاحبه الخضر ، فيقول :

{ الطويل }

وَأَدْرَكْتُ مُوسَى قَبْلَ صَاحِبِهِ الْخَضِرِ	سَمِعْتُ بِذِي الْقَرْنَيْنِ قَبْلَ خُرُوجِهِ
إِلَى أَنْ يَنَادِيَ هَاتِفَ اللَّهِ بِالْحَشْرِ ⁵	وَلَوْ أَنَّنِي خُلِدْتُ فِيهِ سَكَنْتُهُ

¹ أبو نواس : الديوان ص 36 ، وينظر : ص 679 ، 691 . و أبو نواس : الفكاهة والإنتاس ، ص 114 .

² المصدر السابق : ، ص 227 . وينظر : أبو نواس : الفكاهة والإنتاس ، ص 68 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 42 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 164 . وينظر : ص 684 .

⁵ المصدر السابق : ص 690 .

واختمرت في الخوابي ، وحجبت في الدنان من عهد طالوت ، وفي هذا يقول :

{ البسيط }

قلنا لها : كم لها في الدن مذ حُجبت قالت : قد اتُخذت من عهد طالوت¹

ويغالي أبو نواس في عبثه وتماجنه ، إذ يتأثر بقصص الأنبياء تأثراً معكوساً ، ويستحضرها في

موضع غير موضعها ؛ ليثبت صحة موقفه المنقلب ، فيقول :

{ المنسرح }

حُبُّ الْغَوَانِي مِنَ الرَّشَادِ وَلَوْ	يَكَادُ يُدْنِي الْمُحِبُّ مِنْ أَجَلِهِ
فَتَنُّ بِالْحُسْنِ يَوْسُفًا وَكَذَا	دَاوُدَ حَتَّى بَغَى عَلَى رَجُلِهِ
فَاغْتَالَهُ كَيْ يَحُورَ نَعَجَتُهُ	وَلَانَ لِلْحَبِّ عِنْدَ مُقْتَبَلِهِ
وَزَيْنَبًا تَيَمَّتْ مُحَمَّدَنَا	فَبَانَ زَيْدٌ وَوَصَارَ مِنْ بَدَلِهِ
وَصَوَّرَ اللَّهُ آدَمًا قَصَبًا	إِلَى الْغَوَانِي وَكُنَّ مِنْ أَمَلِهِ ²

حيث يرى الشاعر الرّشاد في اتباع الغواني والإذعان لحبهم ، ألم يتبعهم الأنبياء

المعصومون ؟ فكيف للإنسان غير المعصوم أن يمنع نفسه من عشقهم ؟! ولا يخفى على القارئ

ما قصده أبو نواس من استهزاء بالأنبياء ، وعبثٍ بأخبارهم .

وفي قوله :

{ البسيط }

صَلَّى إِلَاهَ عَلَى لَوِطٍ وَشِيعَتِهِ	أَبَا عَيْدَةَ قُلْ بِاللَّهِ آمِينَ
فَأَنْتَ عِنْدِي بِلَا شَكٍّ بَقِيَّتُهُمْ	مَنْذَ احْتَلَمْتُ ، وَقَدْ جَاوَزْتَ سَبْعِينَ ³

يورد الشعر الصلاة على لوطٍ عليه السلام ، ويثني على شيعته وقومه تماجناً ؛ فليس قوم لوطٍ ممن

يستحقون الصلاة عليهم ولا الدّعاء لهم ، لأنهم ملعونون في القرآن ، ونبّيهم بريء منهم ، ولكنّ أبا

نواس ذكرهم لما رأى من شيوع خُلُقهم في مجتمعه ، فاتخذ من فُبْح أفعالهم وصفاً يهجو به

¹ أبو نواس: الديوان، ص 39 .

² أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 66 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 531 .

خصومه¹ . وفي بيت آخر يتفاخر الشاعر بانتمائه إلى قوم لوط ، مستخفاً بما ألحقه الله بهم من عذاب ، فيقول :

{ الوافر }

أرى تَرْكَ اللَّوِاطِ عَلَيَّ عَارًا لَأُنِّي وَاحِدٌ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ²

ويخالف الشاعر وصايا لقمان الحكيم ، ويجعل من وصاياه المنقبة قواعد خُلُقِيَّة يدعو إلى تطبيقها ، عوضاً عنها ، مستهيناً بالحساب يوم القيامة ، فيقول :

{ مجزوء الكامل }

أوصي أَخِي إِلَى النَّدِيمِ بِخِلَافِ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ
لَا تَبْكُـيْنَ لِهَالِكِكِ لَا تَحْنُونَنَّ عَلَيَّ يَتِيمِ
وَتَحَسَّنْهَا زَيْنِيَّةً صَفْرَاءَ فَايْحَةَ النَّسِيمِ
وَعَدًا مَصِيرِكِ فِي الْحِسَا بَ إِذَا وَفَدْتَ عَلَيَّ الْكَرِيمِ³

ويحيل أبو نواس ألفاظاً التصقت بمعانٍ دينية محددة إلى معانٍ أخرى ، تخالف المؤلف ، فيما تطابق منطقته وتؤيد انقلابه ، ومثال ذلك ألفاظ الطَّوَّاف ، والسَّعْي ، والتَّلبية ، والعبادة ، في قوله :

{ الوافر }

فَأَطِيبْ مِنْهُ صَافِيَةً شَمُولٌ يَطُوفُ بِكَاسِهَا سَاقِ أَدِيبٍ⁴

حيث يساوي خمر الآخرة التي وعد الله بها عباده المتقين ، بخمر الدنيا المحرمة ، ويخلع على الغلمان الخلعاء الذين يقدمون كؤوس الشراب صفاتٍ اختصَّ بها ولدان الجنة ، منقلباً على قوله تعالى : " يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ " ⁵ . ويقول في صورة أخرى :

{ الوافر }

أَطُوفُ بِقَصْرِكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَأَنَّ لِقَصْرِكُمْ خُلِقَ الطَّوَّافُ

¹ ينظر : الزهيري ، محمود : تأثير القرآن الكريم في شعر أبي نواس ، ص 104 ، 105 .

² ابن منظور : ملحقات الأغاني ، ص 137 . وقد ورد ذكر هذا البيت سابقاً ، ينظر : الرسالة ، ص

³ أبو نواس : الفكاهة والإتناس ، ص 103 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 11 .

⁵ سورة الواقعة : (الآية 17)

أَنَا الْعَبْدُ الْمُقَرُّ بِطَوْلِ رِقٍّ وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ عَبْدٍ خِلَافٌ¹

فيختصُّ الشاعر قصر محبوبته بالطَّواف ، ويجعله دليلاً يقرُّ به عبوديته وإذعانه لها ، دون أن يعبأ بقدسيَّة الطَّواف حول الكعبة المشرَّفة ، بوصفه ركناً من أركان الحجِّ .

وتراه مستهتراً بالتَّلبية التي ينادي بها الحَجيُّ في المشاعر المقدَّسة ، ويجعلها نداءً يستعطف به المحبوب ، فيقول :

{ البسيط }

الْعَبْدُ عَبْدُكَ ، وَابْنُ عَبْدَيْكَ فَكَيْفَ يَعْصِيكَ عَبْدٌ طَوْعُ كَفَيْكَ
إِنْ قَالَ لَبَّيْكَ لَمْ تَفْتَحْ بَوَاحِدَةً حَتَّى يُضَيِّفَ إِلَى لَبَّيْكَ سَعْدَيْكَ²

ويرى أنَّ للخمر أسماءً حسنى الأولى أن تُدعى بها ، فيقول متماجناً على قوله تعالى : " وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا " ³ :

{ السريع }

أَتُنِ عَلَى الْخَمْرِ بِآلَائِهَا وَسَمَّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا⁴

كما يجعل من السَّجود عبادةً لا يتقرب بها إلى الله ، وإنَّما إلى الخمر المقدَّسة ، فيبدو في قَمَّة الخضوع والضَّراعة لها ، فيقول :

{ المنسرح }

قُلْتُ شِعَاعٌ ؛ فَكَيْفَ أَشْرِبُهَا لَوْ كَانَ خَمْرًا لِأَبْرَزْتُ كَدْرًا
حَتَّى إِذَا دُقْتُهَا خَرَزْتُ لَهَا بَعْدَ مَجَالِ الظَّنِّ مَنُفَعِرًا⁵

ويشبهه الشاعر خمرته بماء الكوثر ، شرابُ المؤمنين العذب في الجنَّة ، فيقول :

{ المتقارب }

عَقِيلَةٌ شَيْخٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَتَتْنَا تَهَادَى مِنَ الْكُوْثَرِ⁶

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 269 . وينظر : ص 375 .

² المصدر السابق : ص 383 .

³ سورة الأعراف : (الآية 180)

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 13 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 190 . وينظر : ص 61 ، 344 ، 683 .

⁶ المصدر السابق : ص 682 .

وكانَ خمرته تُلَخَّص نعيم الدنيا والآخرة ، ولذا لا عجب أن يصِرَّ عليها ؛ وقد منحتَه من اللذة ما لا يعوّض ، وأسبغت عليه من النّعيم ما يجعله أسيرَ قيودها .

واقْتَبَس أبو نواس أحاديث نبويّة ، ووظّفها لغير مرادها ، فيقول :

{ البسيط }

الله يعلّم ما تركي زيارتكم إلا مخافة أعدائي وحراسي
ولو قدرنا على الإتيان جنّكم سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراس
وقد قرأت كتابًا في صحائفكم لا يرحم الله إلا راحم الناس¹

حيث ضمّن الشّاعر قول الرّسول صلى الله عليه وسلم : " مَنْ لَا يَرْحَم النَّاس لَا يَرْحَمَهُ اللهُ " ² ، ليستجدي عطفَ محبوبه ، ويستميحه عذرًا على ما بدر منه من تأخّر عن زيارته . وفي موضع آخر ، ينثر أبو نواس قول الرّسول صلى الله عليه وسلم : " الأرواحُ جنودٌ مجنّدةٌ ، ما تعرّف منه انتلّف ، وما تنافّر منها اختلف " ³ ، في قوله مخاطبًا أحد الغلمان :

{ البسيط }

قُلْ لِلْمَلِيحِ ، أَمَا تَرْوِي " الْحَدِيث " بما خالفت فيه وقد جاءت به الصُّحفُ
.. إِنَّ الْقُلُوبَ لِأَجْنَادٍ مُجَنَّدَةٍ لله في الأرض بالأهواء تَخْتَلِفُ
فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا فَهُوَ مُؤْتَلَفٌ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا فَهُوَ مُخْتَلَفٌ⁴

إذ يدّعي الشّاعر أنّ ذاك الغلام خالف ما جاء في الحديث الشريف بتتكرّره لهواه ، وإصراره على جفائه .

ويعمد أبو نواس إلى توظيف أحاديث ضعيفة ، استهزاءً برواة الحديث ، وعبثًا بمجالس العلم، ومن ذلك قوله :

{ مجزوء الرمل }

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 265 .

² النووي ، محيي الدين بن يحيى بن شرف : منهل الواردين شرح رياض الصالحين ، ضبطه ووضع شرحه وصنع فهرسه : صبحي الصّالح ، ط 5 ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، 1977 م ، ص 205 .

³ المصدر السابق : ص 276 .

⁴ المصدر السابق : ص 277 .

عن زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى أَنْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ
قال من حبيبًا فاز منه بالسَّعَادَةِ
وإذا مات مُحَبَّبًا فله أَجْرُ الشَّهَادَةِ
والذي يجمع إِفْقِيًّا نِ عَلَى حُسْنِ الْإِرَادَةِ
هو في ذاك حَكِيمٌ زَعَمْتُ ذَاكَ جَرَادَةُ¹

حيث يبتذل الحديث الذي ينص على : " من عَشِيقَ ، وَكَتَمَ ، وَعَفَّ ، وماتَ ؛ فهو شهيدٌ " ² ،
ويبدو متهنكًا إذ يزعم أَنَّ (سَعْدَ بْنَ عِبَادَةَ) هو من روى الحديث ، وحاشا لمن شهد العَقْبَةَ مع
السَّبعين من الأنصار ، وشهد أحدًا والخندق وغيرها أن يفعل ذلك ³ .

ب- التناص التاريخي

سار أبو نواس في استلهامه شخصياتٍ تاريخيةٍ على نهجه في استحضار بعض الشخصيات
الدنيئة ، حيث وجد في تلك الشخصيات ، وما يحمله موقفها التاريخي من دلالات فرصةٍ تتيح له
التأكيد على أمجاد خمرته ، وأصالة جذورها ، فتراها يُكثر من توظيف شخصيتي كسرى وقيصر ؛
ليبدل على عراقه راحة المعتقة ، فيقول :

{ المتقارب }

نَحْنُ أَنْزُ كَسْرَى لِأَوْلَادِهِ وَغَرَسُ كَرَامِ بْنِ الْأَصْفَرِ
خِيُولًا لَكُمْ قَدْ أَتَتْ فُرْهًا فَمَنْ بَيْنَ أَخَوَى إِلَى أَحْوَرِ
فَقَالُوا لَهُمْ : إِنَّمَا خِيْلُنَا سَلَفَةُ كَرَمِ بْنِ قَيْصَرَ⁴

واستدعى أبو نواس أقوامًا تقادم عهدهم ، وأول حضورهم بما يضيف أبعادًا جديدةً لتجربته
الشعرية ، فيقول :

{ الطويل }

شهدتُ ثمودًا حين حلَّ بها البلى وأدركت أيامًا لعنُرو بن عامر⁵

¹ ابن منظور : ملحقات الأغاني ، ص 107 . وجراده : امرأة فاسقة كانت بالبصرة ، ينتابها الفساق .

² الألباني ، محمد ناصر الدين : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة ، ط 2 ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، 2000 م ، م 2 ، ص 587 .

³ ينظر : الزركلي : الأعلام ، ص 85 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 682 . وينظر : ص 14 ، 37 ، 73 ، 100 ، 101 ، 102 ، 104 ، 269 ، 690 .

⁵ المصدر السابق : ص 208 .

ويقول :

{ الكامل }

لَمَّا وَرَدْنَاَهَا نُلِمُّ بِشَيْخِهَا عِلْجٌ ، يَحْدُثُ عَنْ مَصَانِعِ عَادٍ¹

فقد غدت عاد ، وثمود معادلاً زمانياً تتحقق به جودة الخمر ، وتتحقق معه لذة الشاعر المفتون بالحضارة الخالدة العظيمة² ، على الرغم من أنها لم تخلد إلا لأخذ العبرة والعظة ، فقد أفسد أولئك الأقوام في بلادهم ، فأهلكهم الله بعذابه ، وجعلهم آية لعظمة الله وجبروته في البطش بكل من أنكر الرسل ، وعصى أوامر الحق . ولكن أبا نواس يتغنى بأمجادهم ، ويشيد بحضارتهم ، لأنها تتناسب موقفه الخمرى ، وتتحد مع انقلابه المعرفي .

وفي موضع آخر يستحضر أبو نواس شخصية السامري ؛ ويستعين بها على وصف معشوقه من الغلمان ، فيقول :

{ الوافر }

خَلِغْتُ وَلَيْسَ يَمْلِكُ رَدَّ رَاسِي	وَلَا يُذْنِي بِأُطْمَاعٍ وَيَاسِي
بَلِيتُ مِنَ الشَّقَاءِ بِسَامِرِيٍّ	يَعَامِلُنِي الْغَدَاةَ بِلَا مِسَاسِي
يَرَى حَرْجًا عَلَيْهِ مَسَّ ثَوْبِي	وَأَنْ أَسْنَقَى وَإِيَّاهُ بَكَاسِي
وَأَفْسَمَ لَا يَكَلِّمُنِي ثَلَاثًا	بَعْدَتْهِنَّ إِلَّا وَهُوَ نَاسِي
فَمَنْ ذَا يُبْلِغُ الْخَلَافَ عَنِّي	يَقُولُ لَهُ : فِدَاكَ أَبُو نُوَاسٍ ³

حيث يجعل نفسه فداءً لـ غلامٍ يرفض أن يمسه ، وأن يقترب منه ، كما كان السامري الذي عاقبه الله بالوحدة ؛ لتصويره عجلًا من ذهب إليها لقوم موسى ، فلم يمسه أحدٌ ، ولم يلمس أحدًا حتى مات⁴ . على أن غلام أبي نواس لا يرفض أن يمسه أحدٌ لمرض أصابه ، وإنما تيهًا ودلالًا ، وإسرافًا في تعذيب عاشقه وإشفاقه ، فحوّر الشاعر صورة مرض السامري من صورة سلبية مقبحة ، إلى صورة إيجابية تظهر إعجابه بالـ غلام المتمتع الراض .

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 78 .

² ينظر : الحجازرة ، سعاد يوسف محمد : خمريات أبي نواس ومسلم بن الوليد ، رسالة ماجستير ، جامعة الخليل ، الخليل ، 2012 ، ص 146 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 706 .

⁴ ينظر : حاشية الديوان ، 706 .

ج- التّناص الأدبي

برع النّواسيّ في تضمين أشعاره أبياتاً من قصائد سابقه ، أو أجزاء من تلك الأبيات ، أو أمثالاً مستنداً على ما حفظه ، وفهمه ، واستوعبه من التّراث القديم ، متحدّياً قدرته الفنيّة في اختيار ما يلائم انقلابه ، وينسجم مع مواقفه الرّافضة من أشعار سابقه ، وحرص في تضمينه على إظهار شخصيته المستقلّة ، وأسلوبه الخاص ؛ فلم يأت تأثره بغيره من الشّعراء تأثراً موافقاً لمعانٍ قصدها في أشعارهم ، وإنّما كان تأثراً مغايراً NSF من خلاله القيود ، وتهكّم على التقاليد الفنيّة¹ . فلا يعني تضمين أبي نواس للشّطر الأوّل من مطلع قصيدة زهير بن أبي سلمى :

{ الوافر }

لَمَنْ طَلَّلَ بِرَامَةَ لَا يَرِيْمُ عَفَا وَخَلَّاهُ عَهْدٌ قَدِيْمٌ²

في قوله :

{ الوافر }

وَلَمَّا لَاحَ ضَوْؤُ الصُّبْحِ عَنَّا وَحَرَكَ عَوْدَهُ بَذْرٌ وَسِيْمٌ
بصوت أخى الحجاز ؛ فهاج شوقي " لَمَنْ طَلَّلَ بِرَامَةَ لَا يَرِيْمٌ"³

أنّ الشّاعر وقف على أطلال محبوبه طعنت ، فأخذ يتأمّل آثارها التي عفت واندثرت ، أو أنّه بات منتظراً أن يلوح خيالها ، فبكاها في شعره ؛ لأنّ الخمر التي شغفت قلبه تأبى أن تحمّله همّاً ، فهي دواءٌ للكليم ، وشفاءٌ للعليل ، وعروسٌ تبعث الفرح بالطّرب والغناء⁴ .

ويختتم أبو نواس قصيدته التي مطلعها :

{ البسيط }

بَادِرْ صَبُوْحَكَ ، وَانْعَمِ أَيَّهَا الرِّجُلُ وَاعْصِ الذِّينَ بَجْهَلٍ فِي الْهَوَى عَذْلُوا⁵

¹ ينظر : سنجلاوي ، إبراهيم : دلالة التّضمين في خواتم قصائد أبي نواس ، ص 52 ، 60 ، 75 .

² زهير بن أبي سلمى : الديوان ، الدار القوميّة للطباعة ، القاهرة ، ص 206 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 158 .

⁴ ينظر : سنجلاوي ، إبراهيم : دلالة التّضمين في خواتم قصائد أبي نواس ، ص 60 ، 61 . وينظر : أبو نواس ، الديوان ، ص 158 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 84 .

بتضمينه مطلع معلقة الأعشى " ودّع هريرة إنّ الركب مُرتحلٌ " ¹ حيث يقول :

{ البسيط }

هَيْفَاءُ تُسْمِعُنَا ، وَالْعُودُ يَطْرِبُنَا " ودّع هريرة إنّ الركب مُرتحلٌ " ²

ولم يكن لشاعر دأب على المخافة كأبي نواس أن يستوحي ذاك المطلع عبثاً ، ولا سيما أنه كرره في موضع آخر فقال :

{ البسيط }

فَقَالَ : هَاتِ وَأَسْمِعْنَا عَلَى طَرْبِ " ودّع هريرة إنّ الركب مُرتحلٌ " ³

فإذا كانت (هريرة) محبوبة الأعشى التي لم يطق وداعها ، وطفق يسترجع لحظة ارتحالها بحزن وأسى ، فهي في نظر أبي نواس ماض ذهب بلا عودة ، وحلت محله الخمر ، بما تحمله من سعادة وطرب وانتشاء ، فلماذا الوقوف على أطلال محبوبة ابتعدت وهجرت ، إذا كانت الخمر محبوبة لا ترحل ، بل وتمنح شاربها من اللذة ، ودعة العيش ما يجعله في سرور لا ينقطع .
وقد عبث أبو نواس بقول الحطيئة :

{ البسيط }

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَغْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعَرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ⁴

وإخراجه من سياقه الحكمي إلى سياقٍ هزليٍّ ؛ فضربه مثلاً لوصف غلامٍ ساقٍ يحثُّ كؤوس الخمر على الندماء ، ويطربهم بعذب الغناء ، فيقول :

{ البسيط }

يَدِيرُهَا هَاشِمِي الطَّرْفِ ، مَعْتَدِلٌ ، أَبْهَى إِذَا مَا مَشَى مِنْ طَاقَةِ الْآسِ
حَثَّ الْمُدَامَ ، وَغَنَانَا عَلَى طَرْبِ " الْآنَ طَابَ الْهَوَى يَا مَعْشَرَ النَّاسِ
فَقُلْتُ أَضْرِبُ فِي مَعْزُوفِهِ مَثَلًا لِعَادَةٍ قَدْ مَضَتْ مِنِّي إِلَى الْآسِ

¹ يقول الأعشى :

{ البسيط }

ودّع هريرة إنّ الركب مُرتحلٌ وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

الأعشى : الديوان ، تح : فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت - لبنان ، ص 17 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 84 .

³ المصدر السابق : ص 116 .

⁴ الحطيئة ، جروول بن أوس : الديوان ، شرح : أبي سعد السكري ، دار صادر ، بيروت ، 1967 م ، ص 109 .

" مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَغْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ " ¹

وفي ذات السياق السّاحر ، اختتم أبو نواس قصيدته التي مطلعها :

{ الوافر }

تَعَاتِبُنِي عَلَى شُرْبِ اصْطَبَاحٍ وَوَصَلَ اللَّيْلُ مِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ ²

بقول جرير :

{ الوافر }

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ ³

حيث أُوهم القارئ بأنه سار على نهج القصيدة السابقة بوزنها وقافيتها ، ومضمونها ولا سيما أنه وظف بيتاً آخر منها في وسط قصيدته ، فيقول :

{ الوافر }

" أَتَصْحُوا أَمْ فَوَادِكُ غَيْرِ صَاحٍ عَشِيَّةً هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ " ⁴

ليفاجئه في نهاية قصيدته بنفسه السياق القديم ، وإخراجه من جديته ، فلم يمتطي الشاعر ناقته وحيداً وسط حرّ الهجير ليبدأ رحلة تخلص به إلى الخليفة الممدوح ، وإنما رافقه ندماؤه الأشراف وقصدوا جميعاً حانات الخمر ، وما يحيط بها من كروم معرشة ، وسقاة كرام ، وتمكّنوا من بلوغ غايتهم واصطباح خمرتهم ، وما كان البيت الأخير إلا تأكيداً على تماجن الشاعر وصحبه وتهكمهم ، وتبياناً لموقفٍ سخر فيه من التقليد ، ومن السلطة المتمثلة بالخليفة الذي استبدله بغلام رشاً رخيماً ⁵ .

ولا يمكن تفسير تناص أبي نواس مع مطلع قصيدة ذي الرّمة الذي يقول :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 75 .

² المصدر السابق : ص 169 .

³ الخطفي ، جرير بن عطية : الديوان ، دار صادر ، بيروت ، 1964 م ، ص 77 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، 169 . و جرير : الديوان ، ص 76 .

⁵ أبو نواس : الديوان : ص 170 .

{ الطويل }

خَالِي عُوجًا مِنْ صُدُورِ الرَوَاجِلِ بِجُمْهُورِ حُزْوَى فَابِكِيَا فِي الْمَنَازِلِ¹

أو توظيفه لمطلع قصيدة أخرى يقول :

{ الطويل }

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالٍ مِنْهَلًا بِجَرَعَاتِكَ الْقَطْرُ²

بمعزلٍ عن ذات الشاعر الثائرة على التّراث والأعراف الجاهليّة التي سار عليها سابقوه من الشعراء؛ فما استحضاره لتلك الأبيات في إطار حديثه عن الخمر وريحانها ، وتلطّف لونها ، وفعلها في شاربها ، ووصف ندمائها ؛ إلّا دعمًا لموقفه الرّافض للحرمان ، اللاّهت وراء متع الحضارة الجديدة التي تمهّد سبل الغواية ، وتفتح آفاق السّرور . فهو بذلك يرفض أبيات ذي الرّمة ، وينفي سياقها القديم ، ويقلب تجربة الشاعر القائمة على الحزن والبكاء ، والانتظار والأمل ، إلى تجربة أخرى زاخرة بالإشباع والاستمتاع الذي توفّره مجالس الخمر³ .

ويقف المتأمل في ديوان أبي نواس على أشعارٍ تناصّ فيها الشّاعر مع نفسه ، متحدّيًا سلطة المنع والحرمان ، مواجهًا ثوابت التّحريم التي فرضتها المؤسسات الدينية ، والمجتمعيّة ، ومثال ذلك تمرّده على لوم اللّائمين ، وزجر العاذلين ؛ لأنّه لن يزيد الشّاعر إلّا إصرارًا على معاقرة معشوقته⁴ ، فيقول :

{ البسيط }

كَمْ قَدْ تَغَيَّتْ ، وَلَا لَوْمٌ يَلْمُ بِنَا " دَعُ عَنْكَ لَوْمِي ؛ فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ"⁵
مستحضرًا نصًّا غائبًا يقول فيه :

{ البسيط }

دَعُ عَنْكَ لَوْمِي ، فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وداووني بالتي كانت هي الدّاء⁶

¹ ذو الرّمة ، غيلان بن عقبة : الديوان ، قدمه وعلّق على حواشيه : سيف الدين الكاتب ، وأحمد عصام الكاتب ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان ، ص 78 ، وأبو نواس : الديوان ، ص 186 .

² ذو الرّمة : الديوان ، ص 36 . وأبو نواس : الديوان ، ص 101 .

³ ينظر : سنجلاوي ، إبراهيم : دلالة التّضمين في خواتم قصائد أبي نواس ، ص 62 ، 63 ، 66 .

⁴ ينظر : الشارني ، بسّام : التناسخ الداخلي في شعر أبي نواس ، حويلات الجامعة التونسيّة ، ع 56 ، تونس ، 2011 م ، ص 216 .

⁵ أبو نواس : الديوان ، ص 700 .

⁶ المصدر السابق : ص 6 .

وتراه يضمن جزءاً من بيتٍ يقول فيه :

{ البسيط }

لا تَبْكِ ليلي ، ولا تَطْرِبِ إلى هندِ واشربِ على الوردِ من حمراء كالورد¹
في قوله :

{ البسيط }

لا تَحْفَلَنَّ بِقَوْلِ الرَّاجِرِ اللَّاحِي " واشربِ على الوردِ " من مَشْمُولَةِ الرَّاحِ

مبدئياً رفضه الزجر الذي يدعو إلى التقليد بالبكاء على المحبوبة أو التغني بذكرها ، مؤكداً مذهبه الفني الجديد الذي يتغنى بالخمير ؛ بوصفها معشوقةً تتفوق بصفاتها ، وأفعالها على المرأة التي أرقق الشعراء أنفسهم في التغزل بها ، والاجتهاد في وصلها وإرضائها .

وإذا كان الشاعر قد بدا معجباً " بدير حنة " متغنياً برهبانه في قصيدةٍ مطلعها :

{ البسيط }

يا دَيْرَ حَنَّةٍ مِنْ ذَاتِ الْأَكْيَرِاحِ مَنْ يَصْحُ عَنْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي²
فإنه بات منقلباً على حياتهم ، موظفاً التناص الذاتي ليظهر رفضه خوفهم ، ومعاناتهم وتقشفهم³ ،
فيقول :

{ البسيط }

حَتَّى تَغْنَى وَقَدْ مَالَتْ سَوَالِفُهُ " يا دَيْرَ حَنَّةٍ يا ذَاتَ الْأَكْيَرِاحِ"⁴
الْأَكْيَرِاحِ"⁴

حيث أورد الشاعر بيته السابق في سياقٍ خمريٍّ غزليٍّ ماجن ، مناقضٍ لزهد الرهبان وتعففهم⁵ .
فهو لا يطيق القيود ، ولا يرى نفسه إلا حراً يعيش على هواه ، ولذا فهو يأبى ما فرضه الرهبان على حياتهم من اعتزالٍ للمتعة ، وكبحٍ لشهواتٍ أباحها لنفسه ، وأحلّها لذاته .

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 27 .

² المصدر السابق : ص 297 .

³ ينظر : سنجلاوي ، إبراهيم : دلالة التضمين في خواتم قصائد أبي نواس ، ص 75 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 108 .

⁵ ينظر : المصدر السابق : ص 108 .

وقد ألفى أبو نواس في توظيف بعض الأمثال الفارسيّة ما يوافق رؤيته التجديدية ، ويعكس افنتانه بالحضارة الأعجميّة ، فيقول :

{ المنسرح }

أَمْشِي إِلَى جَنْبِهَا أَزْاحِمُهَا عَمْدًا وَمَا فِي الطَّرِيقِ مِنْ ضَيْقٍ
كَقَوْلِ كِسْرَى فِيمَا تَمَثَّلَهُ مِنْ فُرْصَةِ اللَّصِ ضَجَّةُ السَّوْقِ¹

د - التناص العلمي

ولم يقتصر تناص أبي نواس على اقتباس لفظ أو آية قرآنية كريمة ، أو حديث نبوي شريف ، أو تضمين شعري أو مثلي ، أو استحضار شخصية تاريخية ، بل تعداه ليشمل توظيف مصطلحات علمية وفلكية اكتسبها عن الهند والروم ؛ ليؤكد من خلالها تفرد خمرته ، وتميزها ، فهو يقول مستنداً على معرفته بالنظرية التي تقول : " إنّ الله خلق النجوم أولاً ، ثم خلق الحركة حينما دفع النجوم في مداراتها " ² :

{ مخلع البسيط }

تُخَيَّرْتُ ، وَالنُّجُومُ وَقُفَّ لَمْ يَتَمَكَّنْ بِهَا الْمَدَارُ³
فالخمر كانت قبل الحركة كما يزعم أبو نواس ، ولذا فهي أزلية القدم . وهي شمسُ تربعت في منازلها مؤذنةً بقدوم الربيع ، وبولادة جديدة للزمان ، فيقول :

{ السريع }

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ إِذَا صُفِّقَتْ مَنْزِلُهَا الْكَبْشُ أَوْ الْحَوْثُ
أَوْ دَارَةُ الْبَدْرِ إِذَا مَا اسْتَوَى وَتَمَّ لِلْعَدِّ الْمَوَاقِيتُ⁴

ويقول :

{ المنسرح }

أَمَّا تَرَى الشَّمْسَ حَلَّتْ الْحَمَلَا وَقَامَ وَزْنُ الزَّمَانِ فَاغْتَدَلَا

¹ المرزباني : الموشح ، ص 321 ، وينظر : أبو نواس : الديوان ، ص 274 .

² ينظر : حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحداثة ، ص 56 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 73 .

⁴ المصدر السابق : ص 74 .

فَاشْرَبْ عَلَى جِدَّةِ الزَّمَانِ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُ الزَّمَانِ مُقْتَبِلًا¹

ويعصفها في موضع آخر موظفًا مسائل حسابية ظريفة ، فيقول :

{ الوافر }

هَلَالٌ مُشْرِقٌ ، بَذَرٌ لِّتَسْعِ وَثَالِثَةٌ خَلَّتْ وَلِيْلَتَيْنِ
يُدِيرُ مِنَ الْمَدَامَةِ بَنْتَ تَسْعِ وَوَاحِدَةٍ مَضَتْ بَعْدَ اثْنَتَيْنِ
أَقُولُ لَهُ ، وَقَدْ طَرِدْتُ كَرَانَا أَدْرَهَا وَاسْنَقْنَا بِالرَّاحَتَيْنِ²

وتألفت خمرة أبي نواس فلا يكاد يحصيها نورٌ ؛ لشدة اختفائها ولطافتها³ ، فيقول :

{ السريع }

طَوَى عَلَيْهَا الدَّهْرُ أَيَّامَهُ وَعُمَيَّتْ عَنْهَا الْمَقَادِيرُ
جَاءَتْ كَرُوحٍ لَمْ يَقُمْ جَوْهَرٌ لُطْفًا بِهِ أَوْ يُحْصِيهِ نُورٌ⁴

" فالخمر لقداستها لا تعدّ عرضًا ماديًا زائلًا بل هي جوهرٌ وروح ، ولذلك تتعالى على الماء لأنها لا تلائمه لطافةً ، وهي تجفوه لأن طبيعتها ليست من طبيعته ، فهي أكثر من المادة رقةً وشفافية" ⁵ يقول :

{ البسيط }

رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يَلَائِمُهَا لَطَافَةً ، وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَرَجَّتْ بِهَا نُورًا لَمَارَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ⁶

فالخمر مسؤولة عن النور ، وتتولد منها الأضواء ، ولعلّ أبا نواس استمدّ هذا المعنى من قوله تعالى : " اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ " ⁷ ، فتغدو الخمر معادلًا موضوعيًا للزيت الذي يكاد وهجه

¹ المصدر السابق : ص 63 . وينظر : ص 111 ، 209 ، 210 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 44 .

³ ينظر : مجموعة من المؤلفين : المفيد في الأدب العربي ، ص 515 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 14 . وينظر : ص 73 .

⁵ العشماوي ، أيمن محمد زكي : خمريات أبي نواس ، دار المعرفة الجامعية ، 1988 م ، ص 104 .

⁶ أبو نواس : الديوان ، ص 6 . وينظر : ص 696 .

⁷ سورة النور : (الآية 35) .

يشعّ بالنور ، وينشر الضوء ، وهذا التوظيف ليس بريئاً ؛ إذ إنّ الشاعر غلبَ خمره على الزيت المبارك ليضفي عليها قدسيّة تهدي الشاربين إليها ، فتتعلّق أرواحهم بها ، ويبدون عاجزين عن إقصاء نفوسهم عنها .

2- الحوار والأسلوب القصصي

اتكأ أبو نواس في إبداع قصائده على أساليب شعريّة متنوعة ، وكان لأسلوب القصّ والحوار حضوراً بارزاً في أشعاره وتحديدًا في قصائد الخمرية التي بدت حكايا تروي قصّة الخمر كاملة من بدايتها إلى نهايتها بطريقة فنيّة في غاية الإثارة والتشويق ¹ . ولا يخفى على الباحث ما حققه الشاعر في توظيف الحوار والأسلوب القصصي من رفض لتقاليد فنيّة سار عليها الشعراء ردحاً غير قليلٍ من الزمن ، حيث تحلّل من وحدة البيت واتّجه إلى وحدة القصيدة ² ، فقد وجد متسعاً للتعبير عن أفكاره الانقلابية ، ومجالاً لجذب المتلقي وإقناعه بمذهبه المجاهر بالخطيئة ، والعبث بالندماء ، والغلمان السقاة ، والجواري الغانيات في أجواء تعبق باللذّة ورحيق الخمر .

ولم يغفل الشاعر في قصّته الخمرية أيّ عنصر من عناصر القصّ الذي يضيف على النصّ حركة وحيويّة تحيله إلى لوحة نابضة بالحياة ، ففي قوله :

{ الكامل }

واخْلَعُ قِيَادَكَ ، قَدْ خَلَعْتُ قِيَادِي	بَاكِرُ صَبُوحِكَ فَهُوَ خَيْرُ عَتَادِ
تُودِي بِصَاحِبِهَا بِغَيْرِ فَسَادِ	لَا تَنْسَ لِي يَوْمَ الْغُرُوبَةِ وَقَعَةً
خَمْرًا ، تَفُوقُ إِرَادَةَ الْمُزْتَادِ	يَوْمًا شَرِبْتُ ، وَأَنْتَ فِي قُطْرُبُلِ
عِلْجٍ ، يَحْدُثُ عَنْ مَصَانِعِ عَادِ	لَمَّا وَرَدْنَاهَا نَلِمُ بِشَخِيخِهَا
مَنْي سِلَاحُ تَحِيّةٍ ، وَوَدَادِ	قُلْنَا " السَّلَامُ عَلَيْكَ " قَالَ : " عَلَيْكُمْ
وَفَقْتُمْ - يَا إِخْوَتِي لِرَشَادِ "	" مَا رُمْتُمْ ؟ " قُلْنَا " الْمُدَامَ " فَقَالَ " قَدْ
عَصِرْتُ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهَا أَجْدَادِي	عِنْدِي مُدَامٌ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهَا
مِنَا النُّفُوسُ ، وَلَيْسَ مِنْهَا صَادِ	فَأَدَارَهَا عَدَدًا ثَلَاثًا ؛ فَانْتَبَهَتْ
وَفُؤَادِهِ ، وَبِوَجْنَتِي وَفُؤَادِي	حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ بِوَجْنَةٍ صَاحِبِي

¹ ينظر : خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، ص 51 .

² ينظر : المرجع السابق : ص 52 .

لَمْ يَرْضَ إِبْلِيسَ الظَّرِيفَ فَعَانَا حَتَّى أَعَانَ فَسَادُنَا بِفْسَادٍ!¹

يرأوح أبو نواس بين أسلوبَي الحوار والسرد ؛ ليوضح بأنّ المدام التي رامها وندماءه مدامٌ عتقت من عهد عاد ، وفيها من الإشرار والبهاء ما يزيل سواد الليل المظلم .

ولا يتوانى أبو نواس عن إظهار فساده ، والمجاهرة بفسوقه ؛ فيثبت على لسان صاحب الخمارة أنّ الخمر هي طريق الرّشاد ، وأنّ إبليس شخصٌ ظريفٌ يسعى جاهداً لإسعاد ندماء الخمر بإعانتهم على الفساد .

ويستند الشّاعر على الأسلوب القصصيّ في أكثر من موضعٍ ليصف الخمر المعنّقة ، وليضفي على ندمائه من الشّمائل ما يميزهم ، ويثبت اختلافهم عن غيرهم² .

ويظهر أبو نواس في مواضع أخرى معرّضاً بالسلطة التي كانت تلاحق الخمّارين وطّرّاقهم، وهذا يبدو جليّاً في وصفه لأصحاب الحوانيت مذعورين من أصحاب الشرّطة، ومباغثاتهم³ ، فيقول :

{ الطويل }

وليلةٍ دَجِنٍ قد سَرَيْتُ بفتيةٍ	تنازعُها نحو المدامِ قلوبُ
إلى بَيْتِ خَمَّارٍ ، ودون محلّه	قصورٌ منيفاتٌ لنا ، ودروبُ
فَفَزَعَ من إدلاجنا بعد هَجَعَةٍ	وليس سوى ذي الكبرياءِ رقيبُ
تتاوَمَ خوفاً أن تكونَ سِعايةً	وعاوده بعد الرُّقادِ وجيبُ
ولمّا دعونا باسمه طار دُغره	وأيقن أنّ الرّخل منه خصيبُ
وبادر نحو الباب سغياً مُبَيّياً	لَهُ طَرَبٌ بالزّائرين عجيبُ
فأطلقَ عن نابيه ، وانكَبَّ ساجداً	لنا ، وهو فيما قد يظنُّ مُصِيبُ
وقال : " ادخلوا حَيِّتُمْ من عصابةٍ	فمنزلكم سهلٌ لديّ ، رحيبُ "
فقلنا : " أرْحْنَا... هاتِ إن كنتِ بائعاً	فإنّ الدّجى عن مُلكه سيغيّبُ" ⁴

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 78 .

² ينظر : المصدر السابق: ص 38 ، 39 ، 70 ، 100 ، 101 ، 124 ، 125 ، 131 ، 132 .

³ ينظر : خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، ص 51 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 110 ، 111 .

وتظهر المفارقة في قول الشاعر في رسم صورتين متناقضتين للخمار ؛ فيجعله في قمة الخوف والفرح عند سماع الطراق ليلاً خوفاً من الشرطة ، فيما ينقله إلى صورة مغامرة تماماً ، يبدو من خلالها في قمة السعادة ، لدى معرفته بهوية زائريه ، فلم يملك إلا أن يسرع مستبشراً لفتح الباب ، وأن ينكب ساجداً لأبي نواس ورفقائه ، فهم خير عصابة ، ومطلبهم خير مطلب ¹ .

وإذا كان الشعراء السابقون قد أشادوا ببطولاتهم وشجاعتهم ، وصوّروا أنفسهم في ميادين الوغى يديرون رحى المعارك ، فإن ميدان الشاعر يتلخص في قصصه الخمرية ، حيث يظهر نفسه ورفقائه مغامرين ، يتحدون مخاوف الليل ، ويجتازون الصعاب للوصول إلى معشوقتهم ، مستعدين لإنفاق أموالهم في سبيلها ، وإن اضطروا إلى رهن أنفسهم ² .

ولعل في تلك البطولة المضادة ما يظهر سخرية الشاعر ممن شغلوا أنفسهم عن الخمر ، والحياة الحضارية المترفة ، ولهثوا وراء سراب الماضي ممجدين بطولات الحروب والمعارك . ولم تخل حوارات أبي نواس من ظرافة ودعابة ممتزجة بالعبث والمجون ، فيقول محاوراً إبليس إذ استعصى عليه إخضاع غلامٍ ثملٍ في مجلس خمر :

{ المنسرح }

أَحْسَنُ مِنْ وَفْقَةٍ عَلَى طَلَلٍ	كَأْسُ عُقَارٍ ، تَجْرِي عَلَى ثَمَلٍ
يَدِيرُهَا أَحْوَرٌ ، بِهِ هَيْفٌ	مَعْتَدِلُ الْخَلْقِ ، رَاجِحُ الْكَفَلِ
فَإِنْ تَرُمُ عَنْدَهُ مَدَاعِبَةٌ	قَالَ لَكَ " أَحْذَرُ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ
دَعَوْتُ إِبْلِيسَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ :	قَدْ أَعْجَزْتَنِي مَذَاهِبُ الْحَيْلِ
حَبْلِي ، وَحَبْلُ الَّذِي كَلِفْتُ بِهِ	عَلَى تَدَانِيهِ غَيْرُ مُتَّصِلِ
فَرَدَّهُ الشَّيْخُ عَنْ صُغُوبَتِهِ	وَصَارَ قَوَادِنَا ، وَلَمْ يَزَلِ ³

فأحال أمر ذاك الغلام لإبليس الذي أخضعه وردّه عن تمتّعه .

¹ ينظر : المصدر السابق : ص 48 . خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، ص 51 .

² ينظر : التطاوي ، عبد الله : القصيدة العباسية قضايا واتجاهات ، ص 171 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 147 .

كما استقى أبو نواس قواعد تمرده على الأعراف ، والتقاليد الدينية والمجتمعية من إبليس الذي غدا في نظره فقيهاً متبصراً بالأخبار والأحوال ، فيقول في قصيدة حوارية - قد أتى ذكر بعض أبياتها في أكثر من موضع من مواضع هذا البحث - :

{ الكامل }

قل للعذول بحانة الخمار	والشرب عند فصاحة الأوتار
إنني قصدت إلى فقيه عالم	متسكك ، حبر من الأخبار
متعمق في دينه ، متفقه	متبصر في العلم والأخبار
قلت : النبيذ تحله ؟ فأجاب : لا	إلا عقاراً تزتمى بشرار ¹

وقد بسطت الروح القصصية سيطرتها الواضحة على أشعار أبي نواس ، مستندة على عنصري الحركة والحوار ، وساهمت في تسجيل واقع نفسي واجتماعي أراد الشاعر أن يطلع عليه المتلقي ليشهد له بتميزه واختلافه² ، ويترك أثراً في نفسه بما فاض به شعره من تعابير سهلة ، موسيقى متاغمة ، وألفاظ وأوزان رشيقة ، وقافية عذبة³ .

3- التكرار

برز التكرار في شعر أبي نواس بأشكال مختلفة ، ظهر من خلالها الشاعر ممعناً في التمرد ، مصراً على موقفه الرافض ، والمتجاهل لخطاب اللاتمين ، عازفاً على إيقاع الذات الفردية وصوت الأنا المتعالية على الذات الجماعية المناهضة لأقوله وتصرفاته⁴ .

فقد مزج أبو نواس بين التكرار اللفظي والمعنوي ؛ لتأكيد المعنى ، وإثارة القارئ⁵ ، وقد رأى في اعتنائه بهذا الأسلوب ما يؤيد مواجهته لمجتمع طالما أوجعه بالعزل والالتهامات . وحشد من ألفاظ اللوم والعزل ما يدل على رفضه المطلق لأي أمر أو نصيحة . فيقول :

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 200 ، وللاستزادة : ينظر ص 200 ، 201 .

² ينظر : التطاوي ، عبد الله : القصيدة العباسية قضايا واتجاهات ، ص 174 ، 175 .

³ ينظر : الفاخوري ، حنا : تاريخ الأدب العربي ، ص 409 .

⁴ ينظر : الشارني ، بسام : التناص الداخلي في شعر أبي نواس ، ص 226 .

⁵ ينظر : عبيدات ، عدنان : أسلوبية الترجيع في شعر أبي نواس ، أبحاث اليرموك " سلسلة الآداب و اللغويات " ، الأردن ، م 24 ، ع 1 ، 2006 م ، ص 73 .

{ الوافر }

وعدُّكَ في المدامِ مستحيلُ
فإنَّ عتابنا فيها يطولُ¹

أعاذلُ ما على مثلي سبيلُ
أعاذلُ لا تلمني في هواها

ويقول في موضع آخر :

{ الوافر }

وبان الأطيَّبان مع الشَّبابِ
فمثلي لا يقرُّعُ بالعتابِ
وهل مثلي يكُلُّ عن الجوابِ²

أعاذلُ قد كبرتُ عن العتابِ
أعاذلُ عنك مغتبتني ولومي
أعاذلُ ليس إطراقِي لعيي

" فالعاذل هنا معادلٌ رمزيٌّ لصوت الجماعة ، وسلطة المؤسسة الدينية والاجتماعية الداعية إلى ترك سلوك البطالة ، والمجون والسكر " ³ .

وما كان لسياسة تلك السلطنة أن تروق لأبي نواس يوماً ، ولذا سعى لمرأتها مضمرًا في سرّه خلاف ما يظهر ، فيقول :

{ الوافر }

ولا أبى على ملكِ العراقِ
وكانت لي كمُمسكةِ الرِّماقِ
فأخذُ عفوه قبل الرِّقاقِ
حوى قدامها قصبَ السِّباقِ
ووقرنِي الخليفة عن نِراقِي⁴

أعاذلُ لا أموتُ بكفِّ ساقِ
هجزتُ له التي عنها نهاني
وقد يغدو إلى الحانوتِ زقي
وكُنْ إذا نزعن إلى مداهُ
فأصبحتُ اغتجرتُ على مشيبِ

فلم يشأ أبو نواس أن يلبس العمامة بعد مشيبه ، ولكنه فعل ذلك إرضاءً للخليفة ونزولاً عند أمره.

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 184 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 708 . و ينظر : ص 7 ، 22 ، 24 ، 55 .

³ الشارني ، بسام : التناص الداخلي في شعر أبي نواس ، ص 225 ، 226 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 56 . وينظر في ذات السياق ، ص 22 ، قوله :

{ الكامل }

وأعربتُ عما في الضمير ، وأعربا

ليأبى أمير المؤمنين وأشربا

أعاذلُ أعتبتُ الإمام ، وأعتبا

وقلتُ لساقينا أجزها فلم يكن

{ البسيط }

وَدِمْنَةَ كَسَحِقِ الْيَمْنَةِشِ الْبَالِي
فِي حُمْرَةِ النَّارِ ، أَوْ فِي رَقَّةِ الْآلِ¹

دَعِ الْوُقُوفَ عَلَى رَسْمٍ وَأَطْلَالٍ
وَعُجْ بِنَا نَصْطَبُحْ صَفْرَاءَ ، وَاقْدَةَ

ويقول في سياقٍ آخر :

{ السريع }

وَاصْطَبِحْ كَرَحِيَّةً مِثْلَ الْقَبْسِ²

اَثْرُكَ الرِّبْعِ ، وَسَلْمَى جَانِبًا

ويقول مكرراً صيغ النهي :

{ الخفيف }

وَاسْنَقْنِيهَا رَقِيْقَةً السَّرْبَالِ³

لَا تَعْرِجْ بِدَارِسِ الْأَطْلَالِ

ويقول :

{ المنسرح }

وَلَا تَجُذْ بِالْأَدْمُوعِ لِلْجَرْدِ
وَلَا أَثَافٍ خَلَّتْ ، وَلَا وَتَدِ
بِالْكَرْخِ بَيْنَ الْحَدِيقِ مُعْتَمِدِ⁴

لَا تَبْكُ رَسْمًا بِجَانِبِ السَّنْدِ
وَلَا تَعْرِجْ عَلَى مُعْطَاةٍ
وَمِلْ إِلَى مَجْلِسٍ عَلَى شَرْفِ

وفي تكرار صيغة (أفعل التفضيل) يقول :

{ المنسرح }

كَأْسُ عُقَارٍ ، تَجْرِي عَلَى ثَمَلِ⁵

أَحْسَنُ مِنْ وَفْقَةٍ عَلَى طَلَلِ

ويقول :

{ الوافر }

بِمَوْمَاءٍ يَتِيَهُ بِهَا الظَّلِيمُ

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَخْدِ الْمَطَايَا

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 680 . وينظر : ص 6 ، 11 ، 31 ، 110 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 134 . وينظر : ص 119 ، 168 ، 637 ، 687 ، 670 .

³ المصدر السابق : ص 97 .

⁴ أبو نواس : الديوان ، ص 172 . وينظر ص 27 ، 113 ، 133 ، 189 ، 520 .

⁵ المصدر السابق : ص 147 .

ومن نعت الديار ، ووصف ربيع
رياض بالشقائق مونيقات
تلوح به على القدم الرسوم
تكنف نبتها نور عميم¹

4- السخرية

بحث أبو نواس عن الأساليب والطرق الفنية التي تصور الحقيقة وتقدمها إلى المتلقي بصورة مغايرة للصورة التقليدية ، وعمد إلى انشاء علاقات لغوية جديدة بتطرقه إلى مواضيع اختلف بها عن غيره من الشعراء² ، انطلاقاً من قناعته بحرية الفنان في التعبير عما يمليه عليه الفن ، وما تفرضه عليه ذاته الرافضة³ .

فقد فاضت شخصية أبي نواس عن الهامش الذي خطته السلطة السياسية ، والدينية والمجتمعية ووجدت في السخرية والرمز ما يعينها على تعرية الواقع من كل ما يتخفى فيه ويتحصن وراءه، ومهاجمته بقصد سلب أسلحته التي يضيق بها الخناق على الأصوات الثائرة في وجهه والتي ترمي إلى إظهار حقيقته⁴ .

فغدت الخطيئة رمزا للحرية والخلاص ، والمجون رمزا للخروج عن السائد المألوف ، والدعابة والظرف أسلوب لمواجهة المجتمع ، وكشف ما يخفيه تحت أستاره⁵ .
وإذا كانت البطولة لا تتحقق في عرف أبي نواس إلا من خلال المخالفة والمواجهة ، فلا بد من امتلاك الجرأة التي ترفض الحياد ، وتتحدى النفاق ، وتأبى الخضوع ، وإن طالت تلك الجرأة رؤوس السلطة ، وفي هذا يقول :

{ مخلع البسيط }

هَذَا زَمَانُ الْقُرُودِ فَاخْضَعْ وَكُنْ لَهُمْ سَامِعًا مُطِيعًا⁶

¹ المصدر السابق : ص 187 . وينظر : ص 160 ، 162 ، 196 .

² ينظر : الوحيشي ، ناصر : الرمز في الشعر العربي ، ط 1 ، عالم الكتب الحديث ، إرد - الأردن ، 2011 م ، ص 15.

³ ينظر : نوره ، حادي : شعرية النص الخمري عند أبي نواس ، مجلة أصوات الشمال ،

www. Aswat – elchamal . com

⁴ ينظر : بزيغ ، شوقي : البطولة المضادة في شعر أبي نواس ، ص 100 . وشبابة ، ناصر : المفارقة في الشعر العربي الحديث ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2002 م ، ص 60 .

⁵ ينظر : الدهمان ، أحمد : التفاعل بين الحياة والفن وتأثيره في الشعر العباسي ، ص 111 . والزعيم ، أحلام : أبو نواس نواس بين العبث والاعترا ب والتّمرد ، ص 186 .

⁶ أبو نواس : الديوان ، ص 519 .

حيث يغلف الشاعر رفضه للسلطة الحاكمة بلغة الرمز ، ويجترأ على جعلها سلطة دكتاتورية تجبر رعيته على السمع والطاعة فيما تستأثر بالنعيم ، وتتمادى في الانحلال مسبلة على نفسها ستار العفة والطهارة¹ ، وإلا فبماذا يفسر وصفه لولي العهد (الأمين) في قوله :

{ السريع }

يا فرحةً جاءت مع العيد	وفي الذي أهوى بمؤعود
جاء من الأعين مستخفياً	من بعد إخلافٍ وتكيد
حتى إذا الراح جرت بيننا	أمنت من خُلفٍ وتزديد
ظلّ وليّ العهد في خطبة	وظلّت بين الراح والغود
صار مُصلّانا أباريقنا	ونحزنا بنّت العناقيد
للناس عيدٌ عمّهم واحدٌ	وصار لي عيدان في عيد ²

فقد جاء الأمين إلى مجلس الخمر ناشدا لذته مستخفيا عن أعين الناس فيما كان ينهى الشاعر عنها ويهدّده بالسجن . فالأمير يخضع تحريم الخمر لأهوائه ، فتارةً يمنعها فيعاقب على شربها ، وتارةً يبيحها ، يقول أبو نواس :

{ الطويل }

أعاذل بعث الجهل حيث يباع	وأبرزت رأسي ما عليه قناع
نهاني أمير المؤمنين عن الصبا	وأمر أمير المؤمنين مطاع
ولهو لتأنيب الإمام تركته	وفيه لإلاه منظرٌ وسامع
قصرت عليه النفس دون مدامة	هي اليوم حربٌ ، وهي أمس شيع ³

ولذلك تراه يوظف صوراً هزلية يهاجم بها الواقع بطريقة غير مباشرة ، ويعرض لموجة التفاق العام في مجتمعه ، ويسخر من الخليفة وحاشيته إذ أودعوه السجن لمجاهرته في شرب الخمر فيما كانوا يشربونها في الخفاء⁴ ، يقول :

¹ ينظر : الزعيم ، أحلام : أبو نواس بين العبث والاعتراب والتمرد ، ص 194 .

² أبو نواس ، الديوان ، ص 344 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 12 . وينظر : ص 22 .

⁴ ينظر : خريس ، حسين : حركة الشعر العباسي في مجال التقليد ، ج 1 ، ص 162 ، و الزعيم ، أحلام : أبو نواس بين بين العبث والاعتراب والتمرد ، ص 184 .

{ الخفيف }

أَنْتَ يَا ابْنَ الرَّبِّيعِ أَلْزَمْتَنِي النُّسْكَ وَعَوَّدْتَنِيهِ وَ الْخَيْرُ عَادَهُ
فَارْعَوَى بَاطِلِي وَ اقْصَرَ حَبْلِي
لَوْ تَرَانِي ذَكَرْتَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ
فِي حُسْنِ سَمْتِهِ أَوْ قِتَادَهُ
الْمَسَابِيحُ فِي ذِرَاعِي وَالْمُصْحَفُ
فِي لَبَّتِي مَكَانَ الْقِلَادَةِ
وَإِذَا شِئْتُ أَنْ تَرَى طَرْفَةً
تَعْجَبُ مِنْهَا مَلِيحَةً مُسْتَفَادَةً
فَادْعُ بِي لَا عِدَمَتَ تَقْوِيمٍ مِثْلِي
وَتَفْطَنُ لِمَوْضِعِ السَّجَادَةِ
تَرَأُّرًا مِنَ الصَّلَاةِ بِوَجْهِ
تُوقِنُ النَّفْسُ أَنَّهَا مِنْ عِبَادَةِ
لَوْ رَأَاهَا بَعْضُ الْمَرَائِنِ يَوْمًا
لَا شَتْرَاهَا يُعِدُّهَا لِلشَّهَادَةِ
وَلَقَدْ طَالَ مَا شَقِيتُ وَلَكِنْ
أَدْرَكْتَنِي عَلَى يَدَيْكَ السَّعَادَةُ¹

ولك أن تتخيل أبا نواس الماجن العابث الخليع يختال في رداء التَّسَاك الواعظين ، وتعلو جبينه سمات التوبة والإنابة ، يمسك المسابيح في ذراعه ويتقلد المصاحف ، ويسير بين النَّاس كأحد الصالحين محاولاً إرضاء الحُكَّام المتوقرين ، والتخلص من الرِّقَبَاء المارقين بتهافت النَّاس عليه ليستفيدوا من وعظه على أنه الحسن البصري أو قتادة الفقيه² .

ويبدو عنصر السخرية جلياً في معرض حديث أبي نواس عن الدِّين والعبادات والأخلاق ، فيتهكَّم ممن يلومه على شرب الخمر الصَّافية قائلاً :

{ البسيط }

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى حَمَرَاءٍ صَافِيَةٍ صِرَ فِي الْجَنَانِ ، وَدَعْنِي أَسْكُنُ النَّارَ³
ويقول مستخفاً بحكم تحريمها :

{ مجزوء الرمل }

هَذِهِ الْمَمْنُوعُ مِنْهَا وَأَنَا الْمَحْتَجُّ عَنْهَا
مَالَهَا تَخَرُّمٌ فِي الدَّنِّ يَا ، وَفِي الْجَنَّةِ مِنْهَا⁴

¹ أبو نواس : الديوان ، ص 459 .

² شلق ، علي : أبو نواس بين التخطي والالتزام ، ص 349 .

³ أبو نواس : الديوان ، ص 111 .

⁴ المصدر السابق : ص 170

ويستهزء بشهر الصوم لأنه يمنع العقار ، ويشبهه في السجن ، فيقول :

{ مجزوء الرمل }

وَبَقَيْنَا فِي سُجُونِ الْ صَّوْمِ لِلَّهِمَّ أَسْأَرِي¹

وينكر أبو نواس مسلمات تثبتها الرسالات السماوية قائلاً :

{ السريع }

مَا صَحَّ عِنْدِي مِنْ جَمِيعِ الَّذِي يُذَكِّرُ إِلَّا الْمَوْتَ وَالْقَبْرُ²

وتعدّ سخرية أبي نواس من عادات العرب وتقاليدهم الاجتماعية والفنية فضاء أطلق منه الشاعر سهامه على القديم بسلطانه وجبروته ، مزدرباً محقراً لكل ما لم ينسجم مع نفسيته الخمرية الماجنة فيحول دونه ودون لذته ، معادياً لكل ما يمنع نزوعه نحو الحرية والتجديد ، وقد وقف هذا البحث على مواطن كثيرة توضّح موقف الشاعر في هذا المضمار³ .

¹ المصدر السابق : ص 204 .

² أبو نواس : الديوان ، ص 218 .

³ ينظر : الرسالة ، ص 92، 93، 95، 105، 106، 107، 108، 117، 118، 119، 120، 122.

الخاتمة

نزع أبو نواس نحو الحرية المطلقة ، فكان علماً للثورة ، ومنبراً للتمرد ، وفي خاتمة هذه الدراسة كان لا بدّ من الوقوف على أبرز النتائج التي توصّلت إليها ، وأهمّها :

1. كان لنشأة أبي نواس دورٌ في صقل موهبته ، وبلورة أفكاره ، فقد استقى العلم على يد أبرز علماء عصره ، وخالط طوائف المتكلمين ، وأبدع في فنون القول ، إلّا أنّه خطّ لنفسه منهجاً خاصاً رفض فيه القيم ، والثوابت .

2. كشفت الدراسة عن بواعث الانقلاب المعرفي والمواجهة الثقافية في شعر أبي نواس ، حيث كان لطفولته أثرٌ في شذوذه ، فقد عانى من فراغ الأمومة ، وافتقد حماية الأسرة ورعايتها ، فاتّجه نحو الشذوذ ، ورافق المجان الخلاء فتفوّق عليهم ، وغلبهم بمجونه وفنّه ، فرفضته محبوبته جنان ، على الرّغم من أنّه أحبها حبّاً صادقاً إلّا أنّه أثر الانحراف على أن يقيّد بحب امرأة .

3. وضّحت الدراسة واقع الحياة الدينيّة في العصر العبّاسيّ الأول ، فقد قُسم النّاس إلى فريقين أحدهما لاهٍ عابث ، يلهث وراء المجون ، متّبِعاً الفرق الخارجة عن جادّة الحقّ والصّواب ، وآخرهما فريقٌ زاهد نأى بنفسه عن متاع الدّنيا الزائل في سبيل إرضاء الله .

4. تارّجحت شخصية أبي نواس بين تيّارات الظّرف والمجون ، والزّندقة والإلحاد ، والزّهد والتّصوف ، فجمعت بين التّناقضات ، وكوّنت رؤية دينيّة خارجةً عن المألوف ، فللخمر قداسة تحيلها إلى معبودة متفردة ، فيصلي لها ، ويسبّح بأسمائها ، ويعادي الصّوم لئلاّ يحرم منها ، ويحجّ إلى خماراتها ، وحوانيتها بيعها .

5. بيّنت الدراسة موقف أبي نواس من الخطيئة ، فقد مدحها وزيّنها ، وانغمس بالملذّات ، واستباح الحرمات واثقاً بعفو الله ، على يقينٍ بالمغفرة وقبول التوبة ، ووقفت على أشعارٍ انقلب الشّاعر فيها على ذاته ، فدعاها إلى الإنابة وطلب الصفح من الله بعد إغراقٍ بالمعاصي والدّنوب .

6. طغى صوت الشاعر على أصوات السلطة السياسية والاجتماعية ، وتحدى قوانينها ، واجترأ على تعرية زيفها ، وكشف ريائها ، حيث إنها ضيقت الخناق على الشاعر فيما كانت لاهية بالمرسات ، عابثةً بالمحرمات ، فاضطر إلى مرأاتها ؛ لينجو من عذابها .

7. رفض أبو نواس التقليد الخاضع لسطوة القديم بأشكاله وصوره ، وقَدَّس أفانين الحضارة الفارسية ، وحَقَّر العادات العربية ، وحمل نظرةً جديدةً لبعض المفاهيم الاجتماعية والحضارية ، فثار على الأنساب العربية ، وسخر من الأطلال والواقفين عليها ، في مقابل إكباره للمدنية ، ودعوته إلى التحضر والانفتاح .

8. رفض أبو نواس المرأة ، فلم تكن في عرفه سوى صورة للخيانة والعبث ، واستبدل الغلمان بها ، ورأى في عشقهم ، وتتبعهم ، بل والتَّذلل لهم لذة لا يمكن أن تعوّضه بها امرأة ذات حسنٍ وجمال ، ولم يكن غزله بالغلاميات إلا لأنَّهنَّ يقلدن الغلمان ، ففاضت أشعاره بغزلٍ رقيق ، عرض فيه لحسن غلمانه وغلamiّاته ، ووصف دلالهم وتمنّعهم .

9. ألقت ثورة أبي نواس بظلالها على لغته ، وأسلوبه الشعري ، فجاءت لغته موافقة لتمزده مطواعة لانقلابه ، منسجمةً بشكلها وموسيقاها مع هدفه ومبتغاه الفني .

10. ظهر التناص جلياً في أسلوب أبي نواس الشعري ، وبخاصة التناص الديني ، والتناص الأدبي ، والتاريخي ، إلا أنه لم يكن تناصاً موافقاً للنصوص المقتبسة أو المضمّنة، وإنما تناص منقلب يخضع فيه النص الغائب إلى رؤية الشاعر المخالفة ، ونزعتة التجديدية.

11. واجه أبو نواس المجتمع ، وتحدى ساسته ، وانقلب على أعرافه ، فاعتمد أسلوب السخرية والتكرار ، ووظف أسلوب القص والحوار ، ليقنع المتلقي بنظرته الرافضة ، و يثبت أسلوبه الشعري المختلف .

12. خلاص البحث إلى أنّ أبا نواس شاعرٌ رفع لواء الثورة على المسلمات الدينية والسياسية والاجتماعية ، وأرسى قواعد مذهبٍ فنيٍّ حرٍّ ، لا يعبأ بسخطٍ أو قبولٍ من أحد .

وفي الختام ، لا يمكن لهذا الجهد المتواضع أن يلمّ بكلّ ما قيل ودرس في هذا الموضوع ، ولكني أرجو أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم ، وأسأله سبحانه الرضا والتوفيق .

المصادر والمراجع

المصادر

- القرآن الكريم
- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي : الكامل في التاريخ ، (د. ط) ، دار صادر ، بيروت ، 1982
- الأصبهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين : الأغاني ، (د . ط) ، دار مكتبة الحياة ، دار الفكر ، بيروت ، 1956 .
- الأغاني ، ط2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1992 .
- الأعشى ، مأمون بن قيس : الديوان ، تح : فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت - لبنان .
- الألباني ، محمد ناصر الدين : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة ، ط 2 ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، 2000 م .
- البغدادي ، عبد القادر بن عمر : خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، (د. ط) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1979 م .
- ابن جعفر ، قدامة : نقد الشعر ، تح : كمال مصطفى ، ط 3 ، مكتبة الخاجي بالقاهرة ، 1978 م .
- الجهيشاري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس : الوزراء والكتّاب ، تح : مصطفى السقط ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، ط1 ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، 1938 م .
- الجواليقي ، أبو منصور موهوب بن أحمد : المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، تح : ف . عبد الرحيم ، ط1 ، دار القلم ، دمشق ، 1990 م .
- الحطيئة ، جرول بن أوس : الديوان ، شرح : أبي سعد السكري ، (د. ط) ، دار صادر ، بيروت ، 1967 م .
- الحنبلي ، عبد الحي بن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، (د . ط) ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1970 م .

- الخطفي ، جرير بن عطية : **الديوان** ، (د . ط) ، دار صادر ، بيروت ، 1964 .
- الخطيب البغدادي ، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي : **تاريخ بغداد** ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، (د . ت) .
- ابن خلكان ، شمس الدين بن محمد : **وفيات الأعيان** ، تح : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، (د . ت) .
- ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن : **جمهرة اللغة** ، ط 1 ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة ، (د . ت) .
- ذو الرمة ، غيلان بن عقبة : **الديوان** : قدمه وعلق على حواشيه : سيف الدين الكاتب ، وأحمد عصام الكاتب ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان ، (د . ت) .
- الزبيدي ، محمد مرتضى : **تاج العروس** ، (د . ط) ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان ، (د . ت) .
- الزركلي ، خير الدين : **الأعلام** ، (د . ط) ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، (د . ت) .
- الطبري ، ابن جرير : **تاريخ الأمم والملوك** ، (د . ط) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د . ت) .
- الطرطوشي ، محمد بن الوليد الفهري : **سراج الملوك** ، تح : محمد فتحي أبو بكر ، تق : شوقي ضيف ، ط 1 ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1994 م .
- ابن عبد ربّه ، أبو عمر أحمد بن محمد : **العقد الفريد** ، ط 2 ، القاهرة ، 1952 م .
- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل : **الصناعاتين** ، تح : علي محمد البيجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 ، دار إحياء الكتب العربية ، 1952 م .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم : **الشعر والشعراء** ، تح : أحمد محمد شاكر ، (د . ط) ، دار التراث العربي للطباعة ، (د . ت) .
- القيرواني ، ابن رشيق أبو علي الحسن : **العمدة** ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 1 ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، 1934 .
- الكتبي ، محمد بن شاكر : **فوات الوفيات** ، تح : إحسان عباس ، دار الصادق ، بيروت (د . ت) .

- اللّجّمي ، أديب ، وآخرون ، المحيط : معجم اللغة العربية ، ط 2 ، المحيط ، بيروت ، (د.ت)
- المرزباني ، محمد بن عمران : الموشّح ، تح : محمد حسين شمس الدّين ، (د.ط) دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، 1995م
- المزني : زهير بن أبي سلمى : الديوان ، (د . ط) الدار القوميّة للطباعة ، القاهرة ، (د.ت)
- المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت - لبنان ، 1982 م .
- ابن المعتز ، أبو العباس عبد الله بن محمد : طبقات الشعراء ، تح : عبد الستار فراج ، ط 4 ، دار المعارف ، القاهرة ، (د . ت) .
- المعريّ ، أبو العلاء أحمد بن عبد الله التّوّخيّ : رسالة الغفران ، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن ، ط 6 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1977 م .
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل : لسان العرب ، (د . ط) ، دار صادر، بيروت (د.ت).
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل: ملحق الأغاني، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1992 م أبو نواس في تاريخه وشعره وعبثه ومجونه، ط2، من التراث العربي، 1969 م.
- أبو نواس ، الحسن بن هانئ : ديوان أبي نواس ، حققه وضبطه وشرحه : أحمد عبد المجيد الغزالي ، (د . ط) ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، 1982 .
- الفكاهة والإتناس في مجون أبي نواس ، ط1، القاهرة، 1361هـ.
- النّووي ، محي الدين بن يحيى بن شرف : منهل الواردين شرح رياض الصّالحين ، ضبطه ووضع شرحه وصنع فهارسه : صبحي الصّالح ، ط 5 ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، 1977 م
- النيسابوري ، مسلم بن الحجاج القشيري : صحيح مسلم ، (د . ط) ، تح : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د . ت) .
- أبو هفان ، عبد الله بن أحمد المهزمي : أخبار أبي نواس ، (د . ط) ، تح : عبد الستار فراج ، مكتبة مصر ، (د . ت)

- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر : مشاكلة النَّاسِ لزمانهم وما يغلب عليهم في كلِّ عصر ، تح : محمد كمال الدين عز الدين ، (د . ط) ، عالم الكتب ، القاهرة ، (د . ت) .

المراجع

- إبراهيم ، طه أحمد : تاريخ النقد الأدبي عند العرب في العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري ، (د . ط) ، دار الحكمة ، بيروت - لبنان ، (د . ت) .
- أدونيس ، مقدمة للشعر العربي ، ط 3 ، دار العودة ، بيروت ، (د ، ت) .
- زمن الشعر ، (د . ط) ، دار العودة ، بيروت ، 1983 .
- إسماعيل ، عز الدين : في الأدب العباسي الرؤية والفن ، (د . ط) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1975 .
- أمين ، أحمد : ضحى الإسلام ، ط 2 ، مطبعة الاعتماد ، 1934 .
- بكار ، يوسف : بناء القصيدة العربية ، (د . ط) ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1979 .
- اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ط 2 ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1981 .
- البطل ، علي : الصورة في الشعر العربي ، ط 3 ، دار الأندلس ، بيروت - لبنان ، 1983 .
- بهجت ، مجاهد مصطفى : التيار الإسلامي في العصر العباسي الأول ، ط 1 ، وزارة الأوقاف والشؤون المالية ، بغداد ، 1982 .
- التطاوي ، عبد الله : القصيدة العربية قضايا واتجاهات ، (د . ط) ، مكتبة غريب ، القاهرة ، (د . ت) .
- حاوي ، إيليا : فن الشعر الخمري ، (د . ط) ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، 1960 .
- حجاب ، محمد نبيه : معالم الشعر في العصر العباسي الأول ، (د . ط) ، دار المعارف ، القاهرة ، 1972 .
- حسين ، طه : حديث الأربعاء ، ط 12 ، دار المعارف بمصر ، (د . ت) .

- خصام ونقد ، ط 9 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1979 .
- الحنفي ، عبد المنعم : موسوعة الطب النفسي ، ط 2 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1999.
- موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية ، ط 2 ، مكتبة مدبولي ، 1999 .
- الحوفي ، أحمد محمد : تيارات ثقافية بين العرب والفرس ، ط 3 ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، (د . ت) .
- خريس ، حسين : حركة الشعر العباسي في مجال التجديد ، ط 1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1994 .
- حركة الشعر العباسي في مجال التقليد ، ، ط 1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1994 .
- خفاجي ، محمد : الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط 1 ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، 2004 .
- خليف ، يوسف : تاريخ الشعر في العصر العباسي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1981.
- في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، (د ، ط) ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، (د . ت) .
- الخواجة ، إبراهيم شحادة: شعر الصّراع السياسي في القرن الثاني الهجري ، ط 1 ، شركة كاظمة للنشر والتوزيع ، الكويت ، 1984 .
- الخوسيكي ، زين كامل : في الأدب العباسي والأندلسي ، (د . ط) ، دار المعرفة الجامعية ، 2006
- خليل ، ياسين عايش : قراءات في تمرد الشعراء العباسيين على السلطة ، ط 1 ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن ، 2011 .
- داود ، جرجس داود : الزندقة والزنادقة في الأدب العربي ، ط 1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، 2004 .
- دكاش ، نضال الأميوني : ظاهرة الزمن في الشعر العربي القديم ، ط 2 ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2009 .

- ربابعة ، موسى : جماليات الأسلوب والتلقي دراسة تطبيقية ، (د . ط) ، دار جرير للنشر والتوزيع ، 2008 .
- رشيد ، مؤيد فاضل : شبهات حول العصر العباسي الأول ، ط 1 ، دار و الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، 1986 .
- رفاعي ، أحمد فريد : عصر المأمون ، ط 4 ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، 1928 .
- الزبيدي ، علي أحمد : زهد أبي نواس ، مطبعة كوستانتسوماس وشركاه ، القاهرة ، 1959 .
- زكي ، أحمد كمال : الحياة الأدبية في البصرة ، (د . ط) ، دار المعارف بمصر ، (د . ت) .
- الساريسي ، عمر عبد الرحمن : الشعر العربي في العصر العباسي ، (د . ط) ، دار حنين للنشر والتوزيع ، عمان ، 2008 .
- سالم ، السيد عبد العزيز : العصر العباسي الأول ، (د . ط) مؤسسة شباب للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، 1978 .
- سعيد ، فوزي : في الأدب العباسي ، (د . ط) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2003 .
- سلام ، محمد زغلول : الأدب في عصر العباسيين ، (د ، ط) ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1995 .
- شبانة ، ناصر : المفارقة في الشعر العربي الحديث ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2002 .
- شرف الدين ، خليل : أبو نواس ، (د . ط) ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، 1984 .
- الشكعة ، مصطفى : الشعر والشعراء في العصر العباسي الأول ، (د . ط) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1975 .
- شلق ، علي : أبو نواس بين التخطي والالتزام ، ط 1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، 1982 .
- صدقي ، عبد الرحمن : ألحان ألحان ، (د . ط) ، دار المعارف بمصر ، 1957 .
- أبو نواس قصة حياته في جده وهزله ، (د . ط) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، (د . ت) .
- ضيف ، شوقي : العصر العباسي الأول ، ط 6 ، دار المعارف بمصر ، (د . ت) .

- الطيّار ، عبد الله بن محمد : خلاصة الكلام في أركان الإسلام ، ط 4 ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ، 2008 .
- عباس ، عبد الحليم : أبو نواس ، (د . ط) ، دار المعارف ، القاهرة ، (د . ت)
- عبد العال ، محمد جابر : حركات الشيعة المتطرفين ، (د . ط) ، مطبعة السنة المحمدية ، 1954 .
- عبود ، مارون : الرؤوس ، ط5 ، دار مارون عبود ودار الثقافة ، 1972 .
- عساف ، سيمون ساسين ، الصورة الشعرية ونماذجها في شعر أبي نواس ، (د . ط) ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1982 .
- العشماوي ، أيمن محمد زكي : خمريات أبي نواس ، (د . ط) ، دار المعرفة الجامعية ، 1988 .
- العشماوي ، محمد زكي : موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، (د . ط) ، دار المعرفة الجامعية ، 1999 .
- عطوان، حسين: مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
- عيد ، يوسف : دفاتر عباسية ، (د . ط) ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس - لبنان ، 2008 .
- الفاخوري ، حنا : تاريخ الأدب العربي ، (د . ط) ، المكتبة البوليسية، بيروت ، 1953 .
- فروخ ، عمر : أبو نواس شاعر هارون الرشيد ومحمد الأمين ، ط 3 ، مكتبة الكشاف ، بيروت، 1946 .
- فوزي، عمر فاروق : العباسيون الأوائل ، ط1 ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن، 2003 .
- قدورة، زاهية: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، 1972 .
- قطب، سيد : في ظلال القرآن، ط 25، دار الشروق، القاهرة، 1996 .

- محمود ، عبد الناصر حسن : شعر أبي نواس قراءة أسلوبية ، ط 1 ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، 2009.
- مجموعة من المؤلفين : المفيد في الأدب العربي، ج2، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، 1964.
- مزروعة، محمود محمد: تاريخ الفرق الإسلامية، ط 1، دار المنار، 1991 .
- مغنيّة، محمد جواد: فلسفة الأخلاق في الإسلام، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1997.
- مندور، محمد: النقد المنهجي عند العرب، (د . ط)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، 1948 .
- مهتّا، علي جميل: الأدب في ظل الخلافة العباسية ، ط 1 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1981 .
- نافع، عبد الفتّاح: الشعر العباسي قضايا وظواهر، ط1، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان - الأردن ، 2008 .
- أبو النصر، عمر: هارون الرشيد، (د . ط)، المكتبة الأهلية، بيروت، 1934. أبو نواس في مبادئه، ط1، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت ، 1955.
- أبو النصر، عمر: الهوى والشباب والحضارة في عهد الرشيد ، ط2 ، منشورات مكتب عمر أبو النصر، بيروت ، 1970 .
- النويهي ، محمد : نفسيّة أبي نواس ، ط 2 ، مكتبة الخانجي ، دار الفكر ، (د . ت)
- هاشم ، علي محمد : الأندية الأدبية في العصر العباسي حتى القرن الثالث الهجري ، ط 1 ، دار الآفاق ، بيروت ، 1982 .
- هدّارة ، محمد مصطفى : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ، (د . ط) ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963 .
- الوحيشي ، ناصر : الرمز في الشعر العربي ، ط 1 ، عالم الكتب الحديث ، إربد - الأردن ، 2011 .

الدوريات

- إسماعيل ، عبده حسين : المرأة في شعر القرن الثاني الهجري ، مجلة عالم الكتب،السعودية، م 3 ، ع 3 ، 1982 / (377 - 378) .
- الباجوري ، محمد عبد الدايم : عرضية الزهد واتجاهاته في شعر أبي نواس ، فكر وإبداع ، مصر ، ج 52 / (288 - 229) .
- بزيغ ، شوقي : البطولة المضادة في شعر أبي نواس ، مجلة العربي ، الكويت ، ع 472 ، 1998 / (101 - 99) .
- تفتق بن يحيى ، لمياء : القبيح الجميل في خمريات أبي نواس ، حوليات الجامعة التونسية ، تونس ، ع 43 ، 1999 / (238 - 215) .
- حسن ، عبد الكريم : إنتاج المعرفة بين الأصالة والحدثة ، العلوم الإنسانية،البحرين ، ع 5 ، 2002 / (91 - 20) .
- حسين ، حسني محمود : الشعوبية في شعر أبي نواس ، مجلة المورد ، بغداد ، م 9 ، ع 1 ، دار الحرية للطباعة ، 1980 / (85 - 61) .
- خليف ، يوسف : الشعر والحياة الاجتماعية في القرن الثاني الهجري ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر ، ع 11 ، 1957 / (94 - 81) .
- الشعر والحياة اللغوية في القرنين الأول والثاني للهجرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، مصر ، ع 6 ، 1957 / (44 - 36) .
- خليل ، ياسين عايش ، هارون الرشيد في أنظار شعراء عصره ، دراسات ، العلوم الإنسانية والاجتماعية ، الجامعة الأردنية،الأردن ، م 32 ، ع 1 ، 2005 / (161 - 140) .
- دهمان ، أحمد : التفاعل بين الفن والحياة ، وتأثيره في الشعر العباسي (رؤية نقدية) ، مجلة التراث العربي ، سوريا / (112 - 101) .
- الزعيم ، أحلام : المرأة ودورها في حركة الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في العصر العباسي ، مجلة الموقف الأدبي ، سوريا ، م 16 ، ع 184 ، 1986 / (127 - 93) .

- الزهيري ، محمود : تأثير القرآن الكريم في شعر أبي نواس ، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها،الأردن ، م 9 ، ع 1 ، 2013 / (83 - 110) .
- الساريسي ، عبد الرحمن : توبة أبي نواس ، مجلة هدي الإسلام ،الأردن ،م 54 ، ع 3 ، 2010 / (100 - 104) .
- سليمان ، فريد حمد : التوظيف الدلالي للألفاظ الأعجمية في شعر أبي نواس ، مجلة آداب ذي قار ، كلية آداب جامعة ذي قار ،العراق ، ع 5 ، م 2 ، 2012 / (2 - 10) .
- سنجلاوي ، إبراهيم : دلالة التّضمين في خواتم قصيدة أبي نواس ، مجلة جامعة دمشق، سوريا ، م 3 ، ع 11 ، 1987 / (49 - 77) .
- الشارني ، بسّام : التناس الدّخلي في شعر أبي نواس ، حوليات الجامعة التونسية ، تونس ، ع 56 ، 2011 / (213 - 245) .
- الشتيوي ، صالح علي : صورة هارون الرّشيد الجادة في شعر العصر العباسي الأول ، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية ،الجامعة الأردنية ،الأردن ، م 29 ، ع 3 ، 2002 ، (745 - 759) .
- ثنائية النار والنور في شعر أبي نواس ، المنارة ، م 9 ، ع 1 ، 2003 / (95 - 122) .
- عباس ، عبد الحليم : مراجعة لكتاب البرامكة في التاريخ ، المجلة الثقافية ، عمان - الأردن ، ع 12 ، 13 ، 1987 / (268 - 297) .
- عبيدات ، عدنان : أسلوبية التّرجيع في شعر أبي نواس ، أبحاث اليرموك " سلسلة الآداب و اللّغويات " ، الأردن ، م 24 ، ع 1 ، 2006 / (69 - 97) .
- عيد ، رجاء : أبو نواس شاعر ظلّمه قومه ، مجلة العربي،الكويت ، ع 269 ، 1981 / (129 - 134) .
- عيسى، حكمت : شعر المجون في القرن الثّاني الهجري بين الإبداع والزندقة والشّعوبية، مجلّة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، (سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية)، سوريا، م32، ع1، 2010 / (207 - 227) .

- فاضل ، جهاد : قراءة جديدة لأبي نواس ، الفكر العربي ، (معهد الإنماء العربي) ، م 4 ، ع 26 ، 1982 / (262 - 257) .
- لحميداني ، حميد : قراءة في شعر أبي نواس ، مجلة جذور ، (النادي الثقافي لجدة) ، السعودية، م 5 ، ج 9 ، 2002 / (450 - 270) .
- المرزوق ، أحمد جمال : رائية أبي نواس قراءة في تأويل الأنساق الثقافية ، مجلة المنارة، الأردن، م 17 ، ع 7 ، 2011 / (207 - 237) .
- الموافي ، محمد عبد العزيز : أبو نواس الزاهد ، مجلة جذور ، (النادي الثقافي لجدة)، السعودية، م 8 ، ج 5 ، 2003 / (174 - 169) .
- نافع ، عبد الفتاح : أضرب الرفض في خمريات أبي نواس ، مجلة إريد للبحوث والدراسات، الأردن ، م 1 ، ع 1 ، 1998 / (68 - 44) .
- نصير ، فاطمة : تجليات التناس في أشعر أبي نواس ، مجلة مقاليد ، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر ، ع 5 ، 2013 / (195 - 191) .
- هلال، ريم: الدرس النفسي لأبي نواس بين العقاد والنويهي، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، (سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية)، سوريا، م 28، ع 1، 2006 / (55 - 4) .
- الواسطي، محمد: المنهج اللغوي وتطبيقه في شعر أبي نواس، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس - المغرب، ع 13، 2004 / (20 - 9) .
- يونس ، محمد عبد الرحمن : ملامح شخصية الخليفة هارون الرشيد في حكايات ألف ليلة وليلة ، دورية كان التاريخية ، دار ناشري للنشر الإلكتروني ، الكويت ، س 1 ، ع 2 ، 2008.

رسائل الماجستير

- الحاجرة ، سعاد يوسف محمد : خمريات أبي نواس ومسلم بن الوليد ، رسالة ماجستير ، جامعة الخليل، الخليل، 2012 .
- حمدان، ساهرة عبد الحفيظ محمد: الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس، 2010.
- المصري، عباس: تجربة السجن عند شعراء العصر العباسي، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، 2007.

المواقع الإلكترونية

- كرزازي ، علي : استراتيجية الموقف السخري عند أبي نواس ، مدونة إلكترونية ،
atjabrxabed . net www .
- نوره ، حادي : شعريّة النصّ الخمري عند أبي نواس ، مجلّة أصوات الشّمال ،
www. Aswat – elchamal . com

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

**Cognitive Inversion and Cultural Confrontation
In Abu Nawwas's Poetry**

By
Alaa Azzam Abdul-Wahab Odeh

Supervisor
Dr. Abdul-khaliq Iesa

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for
the Degree of Master of Arabic Language & Literature, Faculty of
Graduate Studies, An-Najah National University Nablus, Palestine.**

2014

Cognitive Inversion and Cultural Confrontation In Abu Nawwas's Poetry

**By
Alaa Azzam Abdul-Wahab Odeh**

**Supervisor
Dr. Abdul-khaliq Iesa**

Abstract

This study sheds light on the locales of cognitive inversion and cultural confrontation in Abu Nawwas's poetry wherein the study takes a critical, analytical approach. Abu Nawwas excelled in inverting facts and concepts, he revolted against costumes and traditions that his society had abided by, and also interpreted them in a way that concurs with his inverted logic and harmonizes with the rebellious self of his, which all made his art of a novel, unfamiliar color.

This paper consists of three chapters where the first covers the manifestations of cognitive inversion and cultural confrontation in Abu Nawwas's poetry particularly in the subject of religion. The second chapter deals with the manifestations of cognitive inversion and cultural confrontation in political and social subjects. Chapter three is specified to discuss the implications of cognitive inversion and cultural confrontation in Abu Nawwas's language and his poetic color.

The study finally came out as an introduction, a preface, three chapters and a conclusion.